

جورج أورويل
متشرداً في باريس ولندن
ترجمة: سعدي يوسف

متشرداً في باريس ولندن

جـــورج أورويـــل

متشرداً في باريس ولندن

ترجمة: سعدي يوسف

المدى

منشورات





Author : George Orwell
Title : Down and Out in Paris and London
Translator: Saadi Yousef
Al-Mada : Publishing Company
First Edition 1997

اسم المـــؤلف : جورج أورويل
عنوان الكتــاب : متشرداً في باريس ولندن
المـــتـــرجم : سعدي يوسف
النــاشـــــــر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبـعــة الأولى : ١٩٩٧

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ١١ - ٣١٨١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

«أيها الأذى المرير ، يا حال البؤس! »

تشوسر

1

درب الديك الذهبي ، باريس ، السابعة صباحاً . صيحاتٌ حانقةٌ خانقة تعلو متعاقبةً ، من الشارع . لقد خرجت مدام مونس متعهدةُ النُّزل الصغير الذي يواجه نُزلي ، إلى الرصيف ، لتنادي امرأةً ساكنةً في الطابق الثالث . كانت قدماها العاريتان محشورتين في قبقاب ، وشعرها الأشيب متهدلاً .

مدام مونس : «أيتها الوسخة ، أيتها الوسخة! كم أخبرتكِ ألا تقصعي البق على ورق الحائط ؟ أتظنين أنكِ اشتريتِ النزل ؟ لم لا ترمينها من الشبّاك مثل الآخرين ؟ أيتها العاهرة! أيتها الوسخة! » .

المرأة في الطابق الثالث : يا بقرة!

هكذا انطلقت جوقة متنوعة من الصيحات ، وأُشرعت النوافذ على جانبي الشارع الذي انضمّ نصفه إلى الشجار . بعد عشر دقائق صمتَ الناس بغتةً ، حين مرّت سريّة خيّالة ، فتوقّفوا عن الصياح ليتفرجوا .

غرضي من تخطيط هذا المشهد أن أنقل شيئاً من روح درب الديك الذهبي .

ليست المشاجرات هي الأمر الوحيد الذي يحدث هناك ـ لكن ، نادراً ما يطلع صباحٌ بدون أن نشهد انفجاراً كهذا . المشاجرات ، وزعقات الباعة الجوّالين ، وصيحات الأطفال وهم يتتبعون قشور البرتقال على الأحجار الرصيفة ، وفي الليل يكوّن الغناء المرتفع ، والرائحة الكريهة لعربات

القمامة ، جوَّ الشارع . كان درباً ضيقاً ، مَسيلاً من بيوتٍ مجذومة ، يميل واحدُها على الآخر في أوضاعٍ عجيبة ، كأنها تجمّدت وهي في وضع انهيارها . كل البيوت فنادق ، موسوقةٌ حتى قرميدها ، بالساكنين ، بولنديين وعرباً وإيطاليين في غالبهم . عند أسفل الفنادق كانت مشارب صغيرة حيث يمكن أن تغدو سكران بما يعادل شلناً واحداً . وفي ليالي السبت يكون ثلث سكان الحيِّ من الذكور متعتعين سكراً . العركات على النساء كثيرة ، والشغّالون العرب الذين يسكنون أرخص الفنادق ألِفوا القيام بمشاجرات غامضة ، يخوضونها بالكراسي ، وبالمسدسات أحياناً . أما عسسُ الليل فلا يدخلون الشارع إلا إثنين إثنين . إنه لَمَرْبعٌ صاخبٌ . لكن ، وسط الضجة والقذارة يحيا حياتهم العادية أصحاب الدكاكين الفرنسيون المحترمون ، والخبّازون ، والغسّالات ، ومن يماثلهم ، مكتفين بأنفسهم ، مكدِّسين بهدوءٍ ثرواتٍ صغيرة . دربُ الديك الذهبي ، يمثل ، حقاً ، حيّاً باريسياً فقيراً .

كان اسم النزل ، نزل العصافير الثلاثة ، وهو مبنى مظلمٌ ، متداعٍ ، من خمسة طوابق ، مقسَّمة بقواطع خشب ، إلى أربعين غرفة . كانت الغرف صغيرة ، بالغة القذارة ، إذ لم تكن ثمت خادمة ، كما أن مدام ف ، المالكة ، ليس لديها وقت لأي تنظيف . كانت الجدران صفيقةً مثل خشب رقيق ، وقد أُخفيتْ شقوقها بطبقات متعاقبة من الورق الوردي ، اهترأت مع الزمن لتؤوي بقّاً لا يُحصى . قرب السقف ، وطوال النهار ، تسير خطوطٌ مديدة من البق ، مثل طوابير جنود . وفي الليل تهبط ، متضوِّرة جوعاً ، حتى ليضطر المرء إلي القيام ، كل بضع سويعات ، ليقتلها في ما يشبه مجزرة . أحياناً ، يغدو الأمر لا يطاق ، يلجأ المرء إلى إحراق الكبريت فيطردها إلى الغرفة المجاورة ، حيث سيردُّ ساكنُها بكبرتة غرفته هو ، فيعيدها إلى حيث كانت . إنه مكانٌ قذرٌ ، لكنه أليفٌ ، إذ أن مدام ف ، وزوجها ، كانا طيبين . أما إيجار الغرف فيتراوح بين ثلاثين فرنكاً وخمسين ، للأسبوع .

كان النزلاء قوماً مترحلين ، أجانب في الغالب ، اعتادوا القدوم بلا حقائب ، والبقاء أسبوعاً ، ليختفوا ثانيةً . كانوا ذوي حرفٍ شتى ـ بلاّطين ، بنّائي طابوق ، حجّارين ، شغّالين ، طلبةً ، عاهراتٍ ، جامعي خِرَق . وكان بعضهم فقيراً بصورة خرافية .

في عِلِّيَةٍ ، كان طالب بلغاريّ ، يصنع أحذيةً زاهية للسوق الأميركية . كان يجلس على فراشه ، من الساعة السادسة حتى الثانية عشرة ، ليصنع دزينة من الأحذية هذه ، ويكسب خمسة وثلاثين فرنكاً ، أما بقية اليوم فيقضيها في محاضرات السوربون . كان يدرس للكنيسة ، وكانت الكتب الدينية ملقاة على وجوهها حيث الجلود تفرش الأرضية . وفي غرفة أخرى ، كانت تسكن امرأة روسية وابنها الذي يدعو نفسه فناناً . كانت الأم تعمل ست عشرة ساعة في اليوم تحوك الجوارب ، لتكسب خمسة وعشرين سنتيماً عن كل جورب ، بينما يطوف الإبن ، متأنقاً ، في مقاهي مونبارناس . إحدى الغرف مؤجرة لنزيلين مختلفين ، أحدهما عامل نهار ، والآخر عامل ليل . وفي غرفة أخرى يتقاسمُ مترمِّلٌ الفراش ذاته مع ابنتيه الشابتين ، المسلولتين كلتيهما .

كانت في النزل شخصيات غريبة الأطوار . إن أحياء باريس الفقيرة مَجمعٌ للناس غريبي الأطوار ـ إنهم قومٌ سقطوا في مهاوٍ للحياة ، منعزلة ، شبه مجنونة ، وتخلَوا عن محاولة أن يكونوا عاديين أو معقولين . لقد حررهم البؤس من المقاييس المألوفة للسلوك ، تماماً مثل ما يحرر المالُ الناسَ من العمل . وبين ساكني نُزلنا من عاشوا حيواتٍ أغرب من أن تعبر عنها الكلمات . هناك ، مثلاً آل روجيه ، وهما زوجان قزمان عجوزان ، يرتديان الأسمال ، ويحترفان حرفة عجيبة . لقد اعتادا بيع البطاقات البريدية في بوليڤار سان ميشيل . الغريب في الأمر أن هذه البطاقات البريدية كانت تباع في رزم مغلقة مثل صور البورنو ، إلا أنها كانت صوراً فوتوغرافية لقصورٍ على نهر اللّوار . المشترون لن يكتشفوا هذا إلا بعد فوات الأوان . ثم إنهم لم

يشتكوا البتة . آل روجيه يربحان مائة فرنك أسبوعياً ، وقد استطاعا بتقتيرٍ دقيق أن يظلا ، على الدوام ، نصف جائعين ، نصف مخمورين . كانت قذارة غرفتهما شنيعة إلى حد أن المرء يشمّ نتانتها من الطابق الأسفل . وتقول مدام ف إن آل روجيه لم يخلعا ملابسهما منذ سنوات أربع .

أو خذ هنري أيضاً ، الذي يشتغل في المجاري . كان رجلاً طويلاً ، كئيباً ، جعد الشعر ، ويبدو رومانتيكيّ الهيأة ، مع جزمة عامل المجاري الطويلة . خصوصية هنري أنه لا يتكلم إلا في شؤون عمله ، لأيامٍ عدّة فعلاً . لكنه ، قبل سنة فقط ، كان سائقاً في استخدام جيد ، وكان يوفِّر مالاً . في أحد الأيام وقع في حب فتاة ، وحين رفضته الفتاة فقد سيطرته على نفسه وركلها . وما أن ركلها حتى تولّهت به الفتاة حباً ، فعاشا أسبوعين ، معاً ، وأنفقا ألف فرنك من مال هنري . ثم خانته الفتاة ، فغرز هنري سكيناً في أعلى ذراعها ، مما سبّب حبسه لستة أشهر . الفتاة ، بعد الطعنة ، صارت أشدّ تعلقاً بهنري ، فأصلح الإثنان ما بينهما ، واتفقا على أنه في حال خروج هنري من السجن ، فسوف يشتري سيارة أجرة ، وسوف يتزوجان ويستقران . لكن ، بعد أسبوعين ، خانته الفتاة ثانيةً ، وحين خرج من السجن كانت مع طفل . لم يطعنها هنري ثانيةً . سحب كل مدّخراته ، ودخل في نوبة سكرٍ أدّت به ، من جديد ، إلى السجن ، يقضي فيه شهراً . بعد هذا ، ذهب ليعمل في المجاري . لا شيء يجعل هنري يتكلم . وإن سألته لمَ اشتغلَ في المجاري ، لم يجبك ، مكتفياً بمصالبة رسغيه إشارةً إلى الكلبجة ، وإمالة رأسه نحو الجنوب ، إشارة إلى السجن . ويبدو أن الحظّ العاثر أفقده نصف عقله ، خلال يومٍ واحد .

وهناك «ر» ، وهو إنجليزي ، يعيش ستة أشهر من السنة ، مع والديه ، في بوتني ، وستة أشهر في فرنسا . وخلال وقته في فرنسا يشرب أربعة ليترات نبيذ يومياً ، وستة لترات أيام السبت . وفي إحدى المرات ، سافر بعيداً حتى الآزور ، لأن النبيذ هناك أرخص من أي مكان في أوروبا . كان

مخلوقاً مهذباً لطيفاً ، لا صاخباً ولا متخاصماً ، ولا صاحياً . ومن عاداته أنه يظل في فراشه حتى منتصف النهار ، ومُذّاك حتى منتصف الليل يظل في زاويته بالمشرب ، هادئاً ، منتظماً ، منقوعاً بالنبيذ . وبينما هو يعبّ شرابه ، يظل يتحدث بصوت مهذبٍ ، أنثويّ ، عن الأثاث القديم .

ثمت آخرون كثار ، يحيون حيواتٍ غريبة كهذه : السيد جول الروماني ذو العين الزجاج التي لا يعترف بها ، فوركس الحجّار ، روكول البائس ـ مات قبل مجيئي ـ لوران العجوز تاجر الأسمال ، الذي اعتاد استنساخ إمضائه من مِزْقة ورقٍ يحملها في جيبه . طريفٌ أن أكتب بعض سيرهم الشخصية لو توافر لديّ الوقت .

أنا أحاول وصف الناس في حارتنا ، لا فضولاً حسبُ ، بل لأنهم جميعاً جزءٌ من قصتي . البؤس هو ما أشرعُ أكتب عنه ، البؤس الذي اتصلتُ به ، للمرة الأولى من حياتي ، في هذا الحي الفقير . الحيّ ، بقذارته وحيواته الغريبة ، كان للوهلة الأولى درساً موضوعياً ، مادةً دراسية ، للبؤس ، وصار فيما بعد ، خلفية تجاريبي الخاصة . ولهذا السبب ، أحاول أن أقدم فكرة ما ، عمّا كانت عليه الحياة هناك .

2

الحياة في الحيّ . «مَشْربُ»نا ، مثلاً ، أسفل نُزل العصافير الثلاثة . حجرة صغيرة ، مرصوفة أرضيتها بالطابوق ، نصف قبو ، ذات طاولات نقيعةٍ بالنبيذ ، وصورة فوتوغرافية لجنازة مع عبارة «الدَّين مات ، وعمّال بأنطقةٍ حمرٍ يقطعون المقانق بمُدى كبيرة ، ومدام ف ، وهي امرأة ممتازة فلاحة من أوفيرنون ذات وجه يشبه وجه بقرة ذكية ، تشرب شراب المالقا طوال اليوم «بسبب معدتها» ، وألعاب النرد من أجل الأشربة المشهية ، وأغان عن «الكرز والتوت البري» ، وعن مادلون التي قالت : «كيف أتزوج جندياً واحداً ، أنا التي تحب الكتيبة كلها ؟» ، وممارسة جنس علنية فاضحة . نصف نزلاء الفندق اعتادوا الالتقاء في المشرب مساءً . أقدم لك شارلي ، من غرائبنا المحلية ، أنموذجاً يتحدث . كان شارلي شاباً ذا أصل وتربية ، هرب من البيت وعاش على فتاتٍ عابرٍ . تصوَّرْهُ متورداً فتياً ، طريَّ الخدين ، ذا شعرٍ بُنّي سَبْطٍ لصبي جميل ، مع شفتين جدّ حمراوين ورطبتين كالكرز . قدماه صغيرتان ، وذراعاه قصيرتان بصورة غير اعتيادية ، ويداه مكتنزتان مثل يدي طفل . كانت له طريقته في الرقص والنّطّ حين يتكلم ، كأنه من فرط سعادته وحيويته لا يستطيع أن يظل ساكناً للحظة واحدة . الساعة الثالثة عصراً ، ولا أحد في المشرب سوى مدام ف ، وواحدٍ أو إثنين من العاطلين ، لكن الأمر على حدٍّ سواء بالنسبة لشارلي ، إذ يظل يتحدث طالما كان

حديثه عن نفسه . وهو يتكلم بصوت مرتفع كأنه خطيب يعتلي متراساً ، مدوِّراً الكلمات على لسانه ، مشيراً بذراعيه القصيرتين ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بعيني الخنزير تلتمعان حماسةً .

إنه يتحدث عن الحب ، موضوعه الأثير .

« آه ، الحب ، الحب! آه ، لقد قتلتني النساء! آه ، أيتها السيدات والسادة ، النساء ، كنّ خرابي ، خرابي بلا أمل . أنا في الثانية والعشرين ، مستنفدٌ منتهٍ . لكن ، كم من أمورٍ تعلمتها ، وكم من أغوار حكمةٍ لم أسبرها! كم هو عظيمٌ أن يكتسب المرء الحكمة الحقَّ ، وأن يغدو بالمعنى الأسمى للكلمة شخصاً متحضراً ، أن يكون مهذَّباً وفاجراً... » الخ...

أيتها السيدات والسادة ، أظن أنكم حزانى . آه ، لكن الحياة جميلة ـ لا تحزنوا ، أتوسل إليكم .

ارفعوا كأسكم مترعاً بخمرة ساموس*
فلا نفكر بأشياء كهذه!

آه ، كم هي جميلةٌ ، الحياة! اسمعوا ، أيها السادة والسيدات .

من كنز خبرتي سأحدثكم عن الحب . سأشرح لكم المعنى الحقيقي للحب ـ ما هو الإحساس الحقيقي ، والسرور الرفيع ، المصفَّى ، الذي يعرفه الناس المتحضرون فقط . سأخبركم عن أسعد يوم في حياتي . لكني ، واأسفاه ، لم أعد في ذلك الزمن ، آنَ بمقدوري أن أعرف سعادة مثل تلك . لقد ذهبتْ إلى الأبد ـ ذهب حتى الإمكانُ والرغبة . اسمعوا ، إذاً . كان ذلك قبل سنتين . كان أخي في باريس ـ هو محام ـ وقد أخبره والداي أن يبحث عني ويأخذني معه إلى العشاء . أنا وأخي نكره بعضنا ، لكننا آثرنا ألاّ نعصي والدَينا . تعشينا ، وقد سكر أخي في العشاء سكراً شديداً بعد ثلاث زجاجات بوردو . أعدتُه إلى الفندق ، وفي الطريق اشتريت زجاجة براندي ،

---

* البيت للّورد بايرون ، يذكر فيه خمرة ساموس ، وهي خمرة أخذت اسمها من جزيرة ساموس الإغريقية . (المترجم)

وحين وصلنا جعلت أخي يشرب كأساً كبيرة من البراندي ـ أخبرته أنني أسقيه ما سوف يصحيه . شرب الكأس ، فسقط على الفور كمن أصابته سكتةٌ . رفعتُه وأسندت ظهره إلى السرير ، ثم شرعت أبحث في جيوبه . وجدت إحدى عشرة مائة فرنك ، أخذتُها وأسرعت هابطاً الدرج ، وقفزت في سيارة أجرة ، ونجوتُ . أخي لا يعرف عنواني ـ كنت آمناً . إلى أين يذهب المرء حين تكون لديه نقود ؟ إلى المبغى ، طبعاً . غير أنكم لا تفترضون أنني كنت سأمضي لأصرف وقتي على فسوقٍ مبتذل لا يليق إلا بالشغّالين ؟ دعك من هذا ، إنني رجلٌ متحضر! كنتُ متعنتاً في مطالبي ، أنتم تفهمون هذا ، وفي جيبي إحدى عشرة مائة فرنك . حلَّ منتصف الليل قبل أن أجد ما كنت أبحث عنه . لقد صادفتُ شاباً في الثامنة عشرة ، نابهاً ، أنيقاً ، يرتدي بدلة سموكنج ، ويصفف شعره على الطريقة الأميركية ، وكنا نتحدث في مشرب هادئ بعيداً عن الشوارع . تفاهمنا جيداً ، أنا والشاب . تكلمنا في هذا الأمر أو ذاك ، وناقشنا الطرق التي يسلّي فيها المرء نفسَه . بعدها ، ركبنا سيارة أجرة ، وانطلقنا بعيداً .

توقفت سيارة الأجرة في طريق ضيق ، منعزل ، يضيء نهايتَه مصباح غاز خافق . كانت بقع ماء داكنة بين الأحجار . على جانب الطريق يمتد السور العالي المصمَت لدَير . قادني دليلي إلى منزلٍ عالٍ متداعٍ مغلق النوافذ ، وطرق الباب عدة مرات . بعدها ، سمعنا وقع أقدام وصوت مزاليج ، وانفتح الباب قليلاً . وامتدت يدٌ من طرف المنفتَح ، كانت يداً عريضةً معروقة ، تبسط كفّها إلى أعلى تحت أنفينا ، طالبةً المال .

وضع دليلي قدمه بين الباب والدّرج . قال : كم تريدين ؟

ردّ صوت امرأة : «ألف فرنك ، ادفع فوراً ، إن لم تدفع فلن تدخل» .

وضعت ألف فرنك في اليد ، وأعطيت دليلي المائة المتبقية . قال لي : تصبح على خير . وتركني . كان بمقدوري أن أسمع في الداخل صوت عدّ الأوراق ، ثم أخرجت امرأةٌ نحيلة مثل غرابٍ عجوز أنفها ، وحدّقت فيَّ

متشككةً قبل أن تسمح لي بالدخول . لم أكن لأستطيع أن أرى شيئاً غير مصباح غازٍ متخافقٍ يضيء قسماً من جدار مجصص ، مبقياً لكل شيء سواه ظلاً أعمق . كانت ثمت رائحة جرذان وغبار . أشعلت العجوز ، بدون كلام ، شمعةً ، من مصباح الغاز ، وشرعت تتقدمني وهي تعرج ، في ممر حجري نحو أعلى درجٍ حجريّ .

قالت : هَيْتَ لك! اهبط إلى القبو هناك ، وافعل ما تشاء . أنا لن أرى شيئاً ، ولن أسمع شيئاً ، ولن أعرف بشيء . أنت حر . هل تفهم ؟ حرٌ تماماً .

ها ، أيها السادة ، هل من حاجة إلى أن أصف لكم ـ يلزم أنك تعرفونها بأنفسكم ـ تلك الرعشة ، نصف الرعب ونصف البهجة ، التي تجري في عروق المرء ، في مثل هذه اللحظات ؟ زحفتُ إلى أسفل ، متحسساً طريقي ، وكنت أستطيع أن أسمع تنفسي وسحبة حذائي على الأحجار ، وما سوى هذا كان الصمت مطبقاً . في قاع السلّم التقت يدي بزر كهرباء . أدرتُه فغمر اثنا عشر مصباحاً القبو بضوء أحمر باهر . عجباً... أنا لم أكن في قبو ، بل كنت في غرفة نوم ، غرفة عظيمة ، غنية ، مترفة ، ملوَّنة بالأحمر من أعلاها إلى أدناها . تصوّروا أيها السادة والسيدات! سجادة حمراء على الأرض ، ورق أحمر على الجدران ، الكراسي مفروشة بالأحمر ، حتى السقف أحمر ، كل شيء أحمر ، يبهر العينين . كان لوناً أحمر ثقيلاً خانقاً ، كأن الضوء يشعّ عبر أوانٍ من الدم .

في النهاية القصوى للحجرة ، سرير نوم ، ضخم ، مربع ، بألحفةٍ حمرٍ مثل باقي الأشياء ، وعلى السرير تتمدد فتاة ذات ثوب من المخمل الأحمر . تراجعت لمرآي وحاولت إخفاء ركبتيها تحت ثوبها القصير .

كنت توقفت عند الباب . ناديتها : تعالي يا فرختي .

أطلقتْ أنّة خوف . سريعاً صرت بجانب الفراش . حاولت الإفلات مني ، لكني أمسكتُ بها من رقبتها ، هكذا... أترون ؟ ، وبشدّة . أخذت

تقاومني ، وتبكي طالبةً الرحمة ، لكنني تشبثت بها ، دافعاً رأسها إلى الخلف ، وناظراً إلى وجهها . ربما كانت في العشرين من العمر . كان وجهها عريضاً ، وجهاً عادياً لطفلة غبية ، لكنه كان مغطى بالأصباغ والمساحيق ، وكانت عيناها الزرقاوان الغبيتان تلتمعان في الضوء الأحمر ، وتحملان تلك النظرة الذاهلة المشوَّهة التي لا يراها المرء إلا في عيون هؤلاء النساء .

لا شك في أنها فتاةٌ فلاّحة باعها أهلها في سوق الرقيق .

بلا كلمة ثانية ، سحبتها من الفراش ، وألقيتها على الأرض . ثم وقعت عليها مثل نمر! يا لمتعة تلك الأيام التي لا تقارَن ، ويا لبهجتها! هنا ، أيها السادة والسيدات ، ما أردت تبيانه لكم . ها هو ذا الحب! هنا الحب الحقيقي ، هنا الشيء الوحيد في العالم الذي يستحق النضال من أجله ، هنا الشيء الذي تغدو إزاءه شاحبةً تافهةً كالرماد كلُّ فنونكم وأفكاركم ، كل فلسفاتكم وعقائدكم ، كل كلماتكم الرفيعة وميولكم السامية . إن جرّبَ امرؤٌ الحب ـ الحب الحقيقي ـ فهل سيتبقى في العالم غير ما يبدو محض شبحٍ للبهجة ؟

أعدتُ هجماتي بوحشية أشدَّ وأشد . وحاولت الفتاة الإفلات مني مرّاتٍ عدّة ، وصرخت من جديد ، طالبةً الرحمة ، لكني ضحكتُ منها .

قلت : شكراً! أتظنينني جئت هنا لأقدم الرحمة ؟ أتظنينني دفعت ألف فرنك لهذا ؟ أقسمُ لكم ، أيها السادة والسيدات ، أنني كنت سأقتلها تلك اللحظة ، لولا خشيتي ذلك القانون اللعين الذي يحرمنا حريتنا .

آه ، كم صرختْ ، وكم أطلقت من صيحات ألمٍ مريرة . لكن ، ليس من سامعٍ هناك ، إذ نحن هنا ، تحت شوارع باريس ، كنا آمنين ، كما لو أننا في قلب أحد الأهرامات . تحدّرت الدموع على وجه الفتاة ، مزيلةً المساحيق في لطخ طويلة قذرة . آه للزمن الذي لا يستعاد! وأنتم ، أيها السادة والسيدات ، أنتم الذين لم يعرفوا الأحاسيس الأسمى للحب ، أنتم لا

تدركون مثل هذا السرور . وأنا أيضاً ، وقد ذهب شبابي ـ آهٍ ، للشباب! ـ لن أرى ، ثانيةً ، الحياة في مثل ذلك الجمال . لقد انتهى الأمر . آهٍ ، نعم ، انتهى إلى الأبد . آهٍ ، البؤس ، ضيق ذات اليد ، خيبة البهجة الإنسانية! والحقُّ ، ما الوقت الذي تستغرقه اللحظة العليا للحب ؟ لا شيء . لحظة . ربما ثانية . ثانيةٌ من النشوة ، وبعدها التراب ، الرماد ، العدم .

وهكذا ، للحظةٍ واحدةٍ ، أمسكتُ بالسعادة القصوى ، أسمى ، وأصفى عاطفة يمكن للبشر أن يصلوا إليها . وفي الوقت نفسه ، تكون انتهت ، وتُركتُ ـ لأي شيء ؟ كل وحشيتي وشهوتي تناثرت مثل بتلات وردة . خُلِّفتُ بارداً ذاوياً ، مليئاً بندامات العروق . وفي انكساري أحسست حتى بنوعٍ من الشفقة تجاه الفتاة الباكية على الأرض . أليس أمراً يبعث على الغثيان أن نكون فريسة مثل هذه العواطف الدنيئة ؟ لم أنظر إلى الفتاة ثانيةً . كانت رغبتي الوحيدة أن أخرج . أسرعت مرتقياً درجات القبو ، وخرجت إلى الشارع . كان الليل مظلماً ، قارس البرد ، والشوارع خالية . والأحجار تحت كعبي حذائي ترنّ رنيناً أجوف منعزلاً . ذهب مالي كله . وليس في جيبي حتى ما يلزم لسيارة أجرة . مشيت وحيداً ، عائداً إلى غرفتي الباردة المنعزلة .

هذا ، أيها السادة والسيدات ، ما وعدتكم أن أبينه لكم . ذاك هو الحب . ذاك كان أسعد يوم في حياتي .

شارلي ، كان عيّنة عجيبة .

وأنا أصفه ، فقط ، كي أبيّن أي شخصيات مختلفة يمكن أن يجدها المرء ، مزدهرةً ، في حيّ الديك الذهبي .

3

عشت في حيّ الديك الذهبي ما يقارب العام ونصف العام . أحد أيام الصيف وجدت أنني لا أملك غير أربعمائة وخمسين فرنكاً ، وعدا ذلك هناك ستة وثلاثون فرنكاً كل أسبوع متأتية من إعطائي دروساً باللغة الإنجليزية . لم أكن فكّرت بالمستقبل ، لكنني أدركت الآن أن عليّ أن أفعل شيئاً في الحال . قررت البدء في البحث عن عمل ، ولحسن حظي ـ كما تبيّن من بعدُ ـ احتطتُ ، فدفعتُ مائتي فرنك ، إيجاراً مقدماً لمدة شهر . بالمائتين والخمسين فرنكاً الباقية ، مع دروس الإنجليزية ، أستطيع العيش شهراً ، وخلال شهر قد أجد عملاً . استهدفتُ أن أكون دليلاً في إحدى شركات السياحة ، أو ربما مترجماً ، لكن شيئاً من سوء الحظ منع هذا .

في أحد الأيام ، جاء إلى النزل شابٌ إيطالي يقول إنه مؤلف موسيقي . لكن الحقَّ أنه كان شخصاً ملتبساً ، فهو ذو سالفين طويلين هما علامة على أن المرء إما أن يكون من «الأباش» أو المثقفين ، ولا أحد يعلم إلى أي من الصنفين ينتمي هذا . مدام ف لم تحبب هيأته ، وجعلته يدفع إيجار أسبوع مقدماً . دفع الإيطالي المبلغ ، وأقام ست ليال في النزل . خلال هذا الوقت استطاع أن يدبر نسخاً لعدة مفاتيح ، وفي ليلته الأخيرة سرق اثنتي عشرة غرفة من بينها غرفتي . وكان من حسن حظي أنه لم يعثر على النقود التي كانت في جيوبي ، ولهذا لم أغدُ مفلساً بالتمام والكمال ، إذ ظلّ لديّ سبعة وأربعون فرنكاً .

وضع الأمر حداً لخططي في البحث عن عمل . وتعيّنَ عليَ الآن أن أدبر عيشي بمعدل ستة فرنكات يومياً ، ومن البداية صار من الصعب جداً أن أفكر بأي شيء آخر . مذّاك بدأت تجاريبي مع البؤس ـ إذ أن ستة فرنكات في اليوم ، إن لم تعنِ البؤس الفعلي ، فهي تعني حافته . ستة فرنكات هي شلن ، وبمقدورك في باريس أن تعيش بشلن واحد إذا عرفت الكيفية . لكنها مسألة معقدة .

إنه لأمرٌ ذو غرابةٍ ، ارتطامُك الأول بالبؤس . لقد فكرتَ طويلاً بالبؤس ـ فهو الشيء الذي خشيتَه طوال حياتك ، الشيء الذي تعرف أنه سيحصل لك عاجلاً أو آجلاً ، لكنّ ما فكرتَ به مختلفٌ كليةً . أنت ظننتَ أنه سيكون في غاية البساطة ، غير أنه معقدٌ جداً . أنت حسبتَه رهيباً ، والحقُّ أنه وسخٌ ومضجرٌ فقط . إن ما تكتشفه أولاً هو الضعة الخاصة بالبؤس ، الحيل التي يضعك فيها ، الشُحُّ المعقد ، ومسْحُ الفُتات .

أنت تكتشف ، مثلاً ، السرية المتصلة بالبؤس . فبضربةٍ واحدة انخفض مستواك إلى ستة فرنكات يومياً . لكنك لا تجرؤ ، بالطبع ، أن تعترف بالأمر ـ عليك أن تتظاهر بأنك تعيش كالمعتاد تماماً . من البداية يعلّقك البؤس بشبكة من الأكاذيب ، وحتى بأكاذيب لا تكاد تستطيع لها تدبيراً . تتوقف عن إرسال ملابسك إلى محل التنظيف ، وتلتقيك الغسّالة في الشارع لتسألك عن السبب ، وأنت تغمغم شيئاً ، وهي تظن أنك ترسل ملابسك إلى غيرها ، فتصير عدوّك إلى الأبد . بائع التبغ يظل يسألك عن سبب تركك التدخين . ثمت رسائل تطالب بجواب ، فلا تجيب ، لأن الطوابع غالية جداً . ثم ، هناك وجبات طعامك ـ والوجبات هي أسوأ المصاعب في هذا كله . أنت تخرج ، كل يوم ، مع مواعيد الوجبات ، متظاهراً بالذهاب إلى مطعم ، لكنك تطوّف ساعة في حدائق اللوكسمبورغ ، متابعاً الحَمام . بعد ذلك تنسلّ إلى مسكنك وطعامك في جيبك . طعامك خبز ومارغرين ، أو خبز وخمر ، حتى طبيعة الطعام تتحكم بها الأكاذيب . عليك أن تشتري خبز الجويدار بدلاً من

الخبز المنزلي المعهود ، لأن أرغفة الجويدار مستديرة ، وبالإمكان تهريبها في جيوبك ، مع أن خبز الجويدار أغلى ، وأنت بهذا تخسر فرنكاً كل يوم . أحياناً ، حفاظاً على المظهر ، تضطر لإنفاق ستين سنتيماً على مشروب ، لتظل بلا طعام . شراشفك تغدو وسخة ، وينفد الصابون وأمواس الحلاقة . شعرك يطول ، وتجرب أن تقصّه بنفسك ، لكن النتيجة تكون مخيفة إلى حد أنك تضطر للذهاب إلى الحلاّق في النهاية ، فتنفق ما يعادل طعام يوم كامل . طوال اليوم تطلق الأكاذيب ، والأكاذيب الغالية .

تكتشف الهشاشة القصوى لفرنكاتك الستة في اليوم . كوارث دنيئة تحدث وتحرمك الطعام . لقد صرفت آخر ثمانين سنتيماً لديك على نصف ليتر حليب ، وأنت تغليه على مصباح كحول . وبينما الحليب يغلي ، يجري صرصار على ذراعك ، فتنفض الصرصار بإظفرك ، وإذا بالصرصار يسقط مباشرة في الحليب . ليس لك سوى أن تدلق الحليب ، وتظل جائعاً .

تذهب إلى المخبز لتشتري رطل خبز ، وتنتظر حتى تقطع البنت رطلاً لزبون آخر . البنت غير بارعة ، وتقطع أكثر من رطل . تقول : « معذرة ، يا سيدي ، أعتقد أنك لا تمانع في دفع سنتيمين أكثر ؟ » . الخبز بفرنك واحد للرطل . وأنت لديك فرنك واحد فقط . وحين تفكر بأنك قد تضطر لدفع سنتيمين أكثر ، وأن عليك الاعتراف بأنك غير قادر على دفعهما ، فلسوف تفرّ مذعوراً .

أنت تفكر ساعاتٍ قبل أن تجرؤ على المغامرة بدخول مخبز آخر .

تذهب إلى البقّال لتنفق فرنكاً على شراء كيلو غرام من البطاطا . لكن إحدى القطع النقدية التي تشكل الفرنك الذي لديك هي قطعة بلجيكية ، والبقال يرفضها . تنسلّ من الدكان ، ولن تدخله ثانية .

ضلّت بك الخطى ، ودخلت في حيٍّ محترم ، لترى صديقاً موسراً يأتي . تجنباً له تدخل إلى أقرب مقهى . ما إن تدخل المقهى حتى يتعيّن عليك أن تشرب شيئاً ، وهكذا تصرف آخر خمسين سنتيماً على كأس قهوة سوداء استقرت فيه ذبابة ميتة .

بالإمكان مضاعفة هذه الكوارث إلى المئات . إنها جزء من عملية أن تكون في شدة . وتكتشف ما يعني أن تكون جائعاً . بالخبز والمرغرين في معدتك ، تخرج وتنظر إلى واجهات المخازن . في كل مكان ، طعامٌ يُهينك ، في أكداسٍ ضخمة ، خنازير بأكملها ، سلال من الأرغفة الساخنة ، قطع عظيمة صفراء من الزبدة ، حبالٌ من المقانق ، جبال من البطاطا ، أجبان جرييير في حجم حجر الرحى . إنك لتشعر بمرارة فائضة وأنت ترى هذا الطعام الكثير . تفكر بخطف رغيف والهرب ، ملتهماً إياه قبل أن يمسكوا بك ، إلا أنك تمتنع ، لمحض الخوف .

وتكتشف الضجر غير المنفصل عن البؤس ، أحيانَ لا يكون لديك ما تفعل ، ومع سوء تغذيتك ، تفقد اهتمامك بأي شيء . تظل متمدداً نصف يومك في الفراش ، كأنك الفتاة المريضة في قصيدة بودلير . الطعام وحده هو الذي يُنهضك . وتكتشف أن الإنسان الذي ظل يقتات ، أسبوعاً كاملاً ، الخبزَ والمرغرين ، لم يعد إنساناً ، إنه معدة فقط مع بضعة أعضاء ملحقة .

هذه ـ بالإمكان تقديم وصف أكثر ، لكن الأمور تظل بالأسلوب نفسه ـ هي الحياة بستة فرنكات يومياً . آلاف الناس في باريس يَحْيونها ـ فنانون وطلبة يصارعون العيش ، عاهرات عاثرات الحظ ، عاطلون من كل صنف . إنها ضواحي البؤس .

ظللت هكذا حوالي ثلاثة أسابيع . تبددت فرنكاتي السبعة والأربعون سريعاً ، وتعيّنَ عليَ أن أدبِّر أمري بالفرنكات الستة والثلاثين المتأتية من دروس الإنجليزية . كنت ، لقلة خبرتي ، لا أحسنُ التصرف بالنقود ، وأحياناً أظل يوماً كاملاً بلا طعام . وإذ يحدث هذا ، اضطرُ لبيع بعض ملابسي ، مهرباً إياها خارج النُزل في رزم صغيرة ، ذاهباً بها إلى دكان للأشياء المستعملة في شارع لامونتان سان جنفييف . كان صاحب الدكان يهودياً ذا شعر أحمر ، شخصاً كريهاً جداً ، تتملكه دوماً نوبة غضب شديد حين رؤيته زبوناً . ومن تصرفه يحسب المرء أنه سبّبَ له جرحاً بمجيئه . اعتادَ أن

يصرخ : «خراء! أنت هنا ثانيةً ؟ ماذا تظن المكان ؟ مطبخ حساء ؟» . وكان يقدم ثمناً رخيصاً بصورة لا تصدق . فلقبّعةٍ كنت اشتريتها بخمسة وعشرين شلناً ، ولم أكد أعتمرُها ، دفع خمسة فرنكات ، وللقمصان دفع فرنكاً واحداً لكل قميص ، ولزوجين من الأحذية خمسة فرنكات . كان يفضل ، دائماً ، المبادلة ، على الدفع . وكانت له خدعة أن يحشر أشياء غير ذات قيمة في يد الزبون ، ويتظاهر بأن الزبون تقبّلها . ومرةً رأيته يأخذ معطفاً جيداً من سيدة عجوزٍ ، ويضع اثنتين من كريّات البليارد البيض في يدها ، ثم يدفعها دفعاً خارج المحل قبل أن تستطيع الاحتجاج . كان من السعادة أن تسدّد لكمة إلى الأنف اليهودي مفلطحةً إياه ، لو استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً .

كانت تلك الأيام قذرةً غير مريحة ، والواضح أن الأسوأ آتٍ ، إذ أن الإيجار سيكون مستحقاً في وقت قريب . مع هذا كله ، لم تكن الأمور بالسوء الذي توقعتُه . فأنت ، في اقترابك من البؤس ، تكتشف أمراً يعدلُ أموراً أخرى . أنت تكتشف الضجر والتعقيدات الدنيئة ، وبدايات الجوع ، لكنك تكتشف أيضاً صفة الثواب العظيم في البؤس ، حقيقة أنه يلغي المستقبل . ويصحّ إلى حد معين أنك كلما قلَّ مالُك قلّ قلقك . حين يكون لديك مائة فرنك في هذا العالم تتعرض لألف فكرة وفكرة ، لكن حين يكون لديك ثلاثة فرنكات فقط فأنت غير مبالٍ ، إذ أن الفرنكات الثلاثة سوف تطعمك حتى غد ، وليس بمقدورك أن تفكر أبعد من ذلك . أنت ضجرٌ ، لكنك لستَ بخائفٍ .

أنت تفكر مبهماً ، «سوف أكون جائعاً بعد يوم أو يومين ـ أمرٌ صادمٌ ، أليس كذلك ؟» ثم ينتقل الذهن إلى أمور أخرى .

وهنالك شعور آخر هو عزاء عظيم في البؤس . وأعتقد أن كل من عانى شدةً عرفه . إنه شعورٌ بالارتياح ، بل بالسرور ، حين معرفتك أنك صرت بائساً بحقٍّ . غالباً ما تحدثتَ عن الهلاك بين الكلاب ـ حسناً ، ها هم أولاء الكلاب ، وقد بلغتَهم ، وبإمكانك الثبات . هذا الشعور يزيل الكثير من القلق .

4

في أحد الأيام ، توقفت دروسي الإنجليزية فجأةً . كان الطقس بدأ يستحرّ ، وأحسَّ أحد طلبتي بأنه أكثر كسلاً من أن يستمر في دروسه ، فطردني . أما الآخر فقد اختفى من سكناه بدون إشعار ، مديناً لي بإثني عشر فرنكاً . وهكذا خُلِّفتُ مع ثلاثين سنتيماً فقط ، وبلا تبغ . وليومٍ ونصف اليوم لم يكن لديّ ما آكله أو أدخنه ، وعندما لم أتحمل أكثر أن أظلَّ أتضوّرُ جوعاً ، وضعتُ ما تبقّى لدي من ملابس في حقيبة وأخذتها إلى محل الرهون . وقد وضع هذا نهاية لكل ادّعاءٍ بأن لديّ مالاً ، إذ ليس بمقدوري أن أُخرج ملابسي من النزل بدون موافقة مدام ف . غير أني أتذكر ، على أي حال ، مبلغ دهشتها حين طلبتُ موافقتها بدلاً من الإنسلال بها ، خفيةً ، خارج النزل ، مثل ما جرت العادة في حيّنا . كانت المرة الأولى التي أدخل فيها محلاً فرنسياً للرهون . يدخل المرء عبر بوابات حجر فخمة ، عليها حسب المعتاد : «حرية ، مساواة ، إخاء» ـ إنهم يكتبون ذلك ، في فرنسا ، حتى على مراكز الشرطة .

بعد اجتياز البوابات ، يكون المرء في حجرة عارية ، مثل صف مدرسيّ ، ذات نُضدٍ (كاونتر) وصفوف من المصاطب . كان هناك أربعون أو خمسون شخصاً ينتظرون . كل واحدٍ يقدم طلبه عند النضد ويجلس . ما إن يقدِّر الموظف السعر حتى ينادي : «رقم كذا وكذا ، هل تأخذ خمسين

فرنكاً ؟ » ، أحياناً يكون المبلغ خمسة عشر فرنكاً أو عشرة فرنكات أو خمسة ـ مهما كان ، فالحجرة كلها عرفت به . حين دخلتُ كان الموظف ينادي بلهجة عدوانية : « الرقم ٨٣ ـ هنا! » مع صفير قصير وإيماء كأنه ينادي كلباً . خطا الرقم ٨٣ نحو النضد ، كان شيخاً ملتحياً يرتدي معطفاً مزرراً حتى العنق وبنطلوناً مهترئ النهايات . وبدون كلام رمى الموظف الصرّة عبر النضد ـ واضحٌ لا تساوي شيئاً . سقطت الصرة على الأرض ، وانفتحت ، كاشفة أربعة أزواج من السراويل الداخلية الصوف الرجالية . لم يستطع أحدٌ أن يكتم ضحكه . جمع الرقم ٨٣ سراويله ، وانسلَّ خارجاً ، متمتماً لنفسه .

الملابس التي كنت أرهنها ، كلّفتني مع الحقيبة أكثر من عشرين باوناً ، وكانت في حالة جيدة . ظننت أن قيمتها يجب أن تكون عشرة باونات ، أما رُبع القيمة (يتوقع المرء رُبع القيمة في محل الرهون) فيبلغ مائتين وخمسين فرنكاً أو ثلثمائة فرنك . انتظرت مطمئناً ، متوقعاً مائتي فرنك في الأقل .

أخيراً ، نادى الموظف على رقمي : « رقم ٩٧! » .

قلت وأنا أقف : « نعم »

« سبعون فرنكاً ؟ » .

سبعون فرنكاً لملابس قيمتُها عشرة باونات! لكن ، لا فائدة من المحاججة . كنت رأيت شخصاً يحاول المجادلة ، فرفض الموظف طلبه . أخذتُ المبلغ وبطاقة الرهن وخرجت . الآن ، لا أملك من الملابس إلا ما أرتديه ـ السترة سيئة عند الكمَّين ، والمعطف يصلح للرهن المتواضع ، كما أن لديّ قميصاً احتياطاً . في ما بعد ، وبعد فوات الأوان ، علمت أن من الأفضل الذهاب إلى محل الرهون بعد الظهر . فالموظفون فرنسيون ، وهم مثل عموم الفرنسيين ، يكونون سيئي المزاج ، إلى أن يتناولوا غداءهم .

حين عدت إلى مقامي كانت مدام ف تنظف أرضية المشرب . ارتقت الدرجات لتلقاني . أكاد أرى في عينيها قلقها على الإيجار . قالت : « حسناً!

ماذا قبضتَ لقاء ثيابك ؟ ليس كثيراً ؟ » قلت على الفور : «مائتي فرنك . قالت مندهشة : «خُذْ! حسناً ، ذلك ليس سيئاً . يجب أن تكون تلك الملابس الإنجليزية غاليةً جداً! » .

جنّبتني الكذبة العديد من المتاعب ، ومن الغريب أن الكذبة صارت حقيقةً واقعة ، إذ تسلّمتُ بعد بضعة أيام مبلغ مائتي فرنك بالضبط عن مقالٍ لي في صحيفة ، وقد دفعت المبلغ كله رأساً للإيجار ، بالرغم من الأذى الذي سبّبه لي الدفعُ . وهكذا ، مع أنني كنت على حافة الجوع في الأسابيع التالية ، إلا أن سقفاً ظلّ يظللني .

الآن ، صار الحصول على عمل ضرورة مطلقة ، وتذكرتُ صديقاً لي ، نادلاً روسياً اسمه بوريس ، قد يكون بمقدوره مساعدتي ، التقيته للمرة الأولى في ردهة عمومية بمستشفى ، حيث كان يعالج من التهاب المفاصل في ساقه اليسرى . وقد كان أخبرني أن آتيه إذا واجهتني مصاعب .

عليّ أن أقول شيئاً عن بوريس ، إذ كان شخصية غريبة ، وصديقاً حميماً لي فترة طويلة . كان شخصاً ضخماً ، ذا بنية عسكرية ، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر ، وكان جميل المحيّا ، إلا أنه منذ مرضه صار بديناً لطول بقائه في الفراش . ومثل معظم اللاجئين الروس ، كانت له حياته الملأى بالمغامرة . والداه قُتلا في الثورة ، وكانا من الأغنياء ، وهو خدم في الحرب في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ، أفضل فرقة في الجيش الروسي ، حسب قوله . بعد الحرب اشتغل أولاً في معمل للفَراشي ، ثم حمّالاً في سوق الهال ، ثم صار غاسل صحون ، وأخيراً ارتقى في عمله إلى مستوى نادلٍ .

عندما سقط مريضاً كان في فندق سكريب ، يكسب مائة فرنك يومياً من الهِبات . كان مطمحه أن يغدو رئيس نادلين ، ويوفر خمسين ألف فرنك ، ويفتح مطعماً صغيراً فاخراً في الضفة اليمنى .

بوريس ، يتحدث دائماً عن الحرب باعتبارها أسعد أيام حياته . كان هواه الحرب والعسكرية ، وقد قرأ كتباً لا تحصى في الستراتيجيا والتاريخ

العسكري ، وبمقدوره التحدث إليك عن كل ما يتصل بنظريات نابوليون وكوتوزوف وكلوزفيتز ومولتكه وفوش . كل ما يتعلق بالجنود يسرّه . مقهاه المفضل كان كلوزيري دي ليلا في مونبارناس ، ببساطةٍ لأن تمثال المارشال ناي كان خارج المقهى . فيما بعد ، كنت وبوريس نذهب أحياناً إلى شارع كوميرس معاً . فإن استخدمنا المترو نزل بوريس دائماً في محطة كامبرون ، بدلاً من محطة كوميرس ، ذلك لأنه يحب العلاقة مع الجنرال كامبرون ، الذي طُلب منه الاستسلام في معركة واترلو ، فأجاب ببساطة : «خراء!» .

الأشياء الوحيدة التي تركتها الثورة لبوريس كانت أوسمته وصور فرقته القديمة ، وقد احتفظ بهذه ، بينما ذهب كل شيء إلى محل الرهون . ويكاد كل يوم يبسط صوره على الفراش ، ويتحدث عنها :

«هكذا ، يا صديقي! هناك تراني أتقدّم سَريّتي . رجالٌ ضخامٌ لطافٌ... إيه ؟ ليسوا مثل هذه الجرذان الصغيرة من الفرنسيين . نقيبٌ في العشرين ـ ليس سيئاً... إيه ؟ نعم ، نقيب في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ، وأبي كان عقيداً .

آه ، يا صديقي... لكنْ تقلبات الحياة! نقيب في الجيش الروسي ، وإذا بالثورة... كل مليم ذهب . في ١٩١٦ أقمت أسبوعاً في فندق إدوارد السابع ، وفي ١٩٢٠ كنت أبحث عن عملٍ ، حارساً ليلياً هناك . اشتغلتُ حارساً ليلياً ، مكلفاً بقبو ، منظف أرضيّة ، غاسل صحون ، حمّالاً ، مشرف مرحاض . قدّمتُ هِباتٍ للنادلين ، وقدّمَ لي النادلون هباتٍ .

آه ، لكني عرفت ما معنى أن يعيش المرء ، شخصاً مهذباً ، يا صديقي . لا أقول هذا متباهياً ، لكني في يوم سابق حاولت أن أعدَّ العشيقات اللائي عرفتهن في حياتي . نعم ، كنّ مائتين في الأقل... آه ، حسناً . سوف يعود هذا . النصر حليف من صبر في القتال . تشجَّع! »... الخ .

كان لبوريس طبعٌ غريب ، متقلب . لقد رغب على الدوام في أن يعود إلى الجيش ، لكنه اشتغل أيضاً ، لفترة طويلة ، نادلاً ، حتى اكتسب ملامح

النادل . ومع أنه لم يوفر ، البتة ، أكثر من بضعة آلاف من الفرنكات ، إلا أنه يرى أن لا محالة في أنه سيكون قادراً ، في نهاية الأمر ، على فتح مطعمه الخاص ، والوصول إلى الثراء .

وقد وجدت ، فيما بعد ، أن كل النادلين يفكرون بهذا . إنه هو الذي يعزّيهم في كونهم نادلين . بوريس اعتاد الحديث بصورة مشوقة عن حياة الفندق :

«عمل النادل مقامرة . قد تموت فقيراً ، وقد تكوّن ثروتك في سنة . أنت لا تقبض أجوراً ، أنت تعتمد على الهِبات ـ عشرة بالمائة من القائمة ، ونسبة من الشركات عن سدّادات فلّين الشمبانيا . أحياناً تكون الهبات هائلة . المشرف على البار في مكسيم ، مثلاً ، يحصل على خمسمائة فرنك يومياً ، أكثر من خمسمائة فرنك ، في الموسم... أنا نفسي حصلت في أحد الأيام على مائتي فرنك . كان ذلك في فندق بـ«بياريتز» ، أثناء الموسم . كان الطاقم كله ، من المدير حتى غاسلي الصحون ، يعملون إحدى وعشرين ساعة في اليوم . إحدى وعشرون ساعة عمل ، وساعتان ونصف الساعة في الفراش ، لمدة شهر كامل . ومع هذا ، فالأمر يستحق... مائتا فرنك يومياً .

أنت لا تعلم متى تأتي ضربة الحظّ . مرةً ، حين كنت في فندق رويال ، استدعاني زبونٌ أميركي قبل العشاء ، وطلب أربعة وعشرين كوكتيل براندي . أحضرتها ، كلها ، على صينية ، في أربع وعشرين كأساً . قال لي الزبون (كان سكران) : الآن ، يا جرسون ، أنا سأشرب اثني عشر ، وأنت ستشرب اثني عشر ، فإن استطعتَ المشي حتى الباب ، بعدها ، أعطيتك مائة فرنك» . مشيت حتى الباب ، وأعطاني مائة فرنك . وكل ليلة ، لستة أيام ، فعل الأمر ذاته ، اثني عشر كوكتيل براندي ، ثم مائة فرنك . بعد أشهر قليلة سمعتُ أنه أُبعد ، بطلب من الحكومة الأميركية ، نظراً لسوء التصرف» .

أحببتُ بوريس ، وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة ، نلعب الشطرنج ونتحدث عن الحرب والفنادق . وقد اعتاد بوريس أن يقترح عليَّ العمل نادلاً .

«سوف تناسبك الحياة ، حين تشتغل بمائة فرنك في اليوم ، مع عشيقة لطيفة . الأمر ليس سيئاً . تقول إنك ماضٍ في الكتابة . الكتابة لا شيء . ثمت طريقة وحيدة للحصول على المال من الكتابة ، وهي أن تتزوج ابنة ناشر . لكنك ستكون كاتباً جيداً لو حلقتَ شاربك هذا . أنت طويل ، وتتكلم الإنجليزية ـ هذه هي الأشياء الرئيسة التي يحتاجها النادل . انتظر حتى أحني هذه الساق اللعينة ، يا صديقي ، وآنذاك إن لم تجد عملاً فتعال إليّ» .

أنا الآن لا أستطيع دفع إيجاري ، وبدأت أجوع .

تذكرت وعد بوريس ، وقررت البحث عنه ، فوراً . لم آمل في أن أكون نادلاً بالسهولة الموعودة ، لكنني أعرف ، بالطبع ، كيف أغسل الصحون ، ولا شك في أنه يستطيع إيجاد عمل لي في المطبخ . كان قال لي إن أشغال غسل الصحون تكون متاحة في الصيف . وكان مصدر ارتياحٍ لي أن أتذكر أنّ لي ، بعد كل شيء ، صديقاً ذا نفوذ يمكنني اللجوء إليه .

5

قبل فترة قصيرة ، كان بوريس أعطاني عنواناً في شارع مارشيه دو بلان مانتو . كل ما ذكره في رسالته أن «الأمور ليست بالغة السوء» ، وافترضتُ أنه قد عاد إلى فندق سكريب ، ليحصل على فرنكاته المائة كل يوم . كنت مفعماً بالأمل ، واستغربتُ من أنني كنت أحمق إلى حدٍّ أنني لم أذهب إلى بوريس من قبلُ . تخيلتُ نفسي في مطعمٍ فاخر ، مع طبّاخين مرحين يغنّون أغاني حب ، وهم يكسرون البيض في المقلاة ، ومع خمس وجبات حقيقية في اليوم . بل لقد بدّدتُ فرنكين وخمسين سنتيماً على علبة گولواز أزرق ، بانتظار أجوري .

في الصباح ، مشيت إلى شارع مارشيه دو بلان مانتو . وقد صُدمتُ إذ رأيتُه شارعاً خلفياً بائساً ، سيئاً مثل شارعي . أما نُزل بوريس فكان أقذر نُزلٍ في الشارع . من مدخله جاءت الرائحة الكريهة الحامضة ، مزيجاً من الغُسالة والصابون الكيمياوي ـ رائحة البْوِيّون زيب ، خمسة وعشرون سنتيماً للعلبة . أحسستُ بالتطيُّر . فالناس الذين يشربون البويّون زيب هم إما متضورون جوعاً أو يكادون . هل يمكن أنّ بوريس يحصل على مائة فرنك يومياً ؟

إن مالكاً موثوقاً به ، يجلس في المكتب ، قال لي ، نعم ، إن الروسيَ في مسكنه ـ بالعلِّية . ارتقيتُ ست مجموعات من درجات سلّم دائريّ ،

بينما رائحة البويّون زيب تتصاعد مع الصعود . بوريس لم يردّ حين طرقت الباب ، ولهذا فتحتُه ، ودخلتُ .

كانت الغرفة عِلِّيةً ، مساحتها عشرة أقدام مربعة ، يضيئها نور السماء ، وأثاثها الوحيد سرير حديد ضيّق ، وكرسيّ ، ومغسلة ذات قائمة عرجاء . سلسلة من البقّ على شكل حرف S تسير بطيئة عابرةً الجدار فوق الفراش . كان بوريس يرقد نائماً ، عارياً ، وبطنه مثل مرتبئ تحت الشرشف القذر . صدره مبقّعٌ بلدغات الحشرات . استفاق حين دخلتُ ، فرك عينيه ، وتأوّه عميقاً .

هتف : «باسم يسوع المسيح! أوه ، باسم يسوع المسيح ، ظَهري! عليه اللعنة ، أظن أن ظهري مكسور! »

قلت : «ما الأمر ؟ »

«ظهري مكسور ، هذا كل ما في الأمر . أمضيتُ الليلة على الأرض . أوه! باسم يسوع المسيح! لو عرفتَ كيف يؤلمني ظهري! »

«يا عزيزي بوريس ، ألنت مريض ؟ »

«لست مريضاً . إنني جائعٌ فقط . نعم . جائع حتى الموت إن استمر الوضع هكذا . وإلى جانب نومي على الأرض ، عشت بفرنكين يومياً طوال الأسبوع الفائت . الأمر مخيف . لقد أتيت في لحظة سيئة ، يا صديقي » .

يبدو أن لا فائدة ترجى من الاستفسار عمّا إذا كان بوريس لايزال يحتفظ بعمله في فندق سكريب . هبطتُ السلّم مسرعاً واشتريت رغيف خبز . رمى بوريس بنفسه على الرغيف وأكل نصفه ، بعدها ، انتعش ، وجلس في الفراش ، وأخبرني ما الأمر . لقد أخفق في الحصول على عمل بعد مغادرته المستشفى ، لأنه لايزال يعرج شديداً ، وقد أنفق كل ماله ، ورهن كل شيء ، وأخيراً ظل جائعاً عدة أيام .

وكان نام أسبوعاً على الرصيف تحت جسر أوسترليتز ، بين براميل نبيذ فارغة .

وطوال الأسبوعين الفائتين كان يعيش في هذه الغرفة مع يهودي ، ميكانيكيّ . وظهر (ثمت تعقيد في الشرح) أن اليهودي مدينٌ لبوريس بثلثمائة فرنك ، وكان يسدِّد دينه بالسماح لبوريس بالنوم على الأرض ، وبإعطائه فرنكين يومياً للطعام . يذهب اليهودي إلى العمل في السابعة صباحاً ، وبعد ذهابه يترك بوريس موضع منامه (وهو تحت نور السماء ، مما يسمح بدخول المطر) وينام في الفراش . لكنه لا يستطيع أن ينام أكثر هناك ، بسبب البقّ ، لكنه يريح ظهره بعد الأرض .

كانت خيبتي كبيرة ، حين جئت إلى بوريس طالباً العون ، وإذ بي أراه في حالٍ أسوأ من حالي . بيّنتُ له أنني لا أملك إلا ستين فرنكاً ، وأنّ عليّ الحصول على عملٍ فوراً . آنذاك كان بوريس أجهز على بقية الرغيف ، وصار مبتهجاً منشرحاً . قال بلامبالاة : « يا للسماء! لماذا تقلق ؟ ستون فرنكاً! ماذا ؟ إنها لثروةٌ! أعطني ذلك الحذاء ، رجاءً ، يا صديقي . أريد أن أحطم بعض هذه البقّات إن صارت على مقربة مني » .

« لكن ، أتعتقد أن ثمت فرصة للحصول على عمل ؟ »

« فرصة ؟ إنها أمرٌ أكيد . والواقعُ أن لديّ شيئاً بالفعل الآن . هناك مطعمٌ روسيّ جديد يوشك أن يفتح خلال أيام قليلة في شارع كوميرس . إنه شيء منتظَر ، وسأكون فيه رئيس النادلين . ومن السهولة أن أحصل لك على عمل في المطبخ . خمسمائة فرنك شهرياً مع طعامك ـ هِباتٌ أيضاً ، إن كنتَ محظوظاً » .

لكن الآن ، عليّ أن أدفع الإيجار في وقت غير بعيد » .

أوه ، سوف نجد شيئاً . لديّ أوراقٌ قليلة في عبّي . ثمت أناسٌ مدينون لي ، مثلاً ـ باريس ملأى بهم . وأحدهم استحقّ موعد دفعه . ثم فكّرْ بكل النساء اللواتي كنّ عشيقاتي! المرأة لن تنسى أبداً ، وأنت تعرف ـ عليّ فقط أن أطلب ليساعدنني . ثم أن اليهودي أخبرني أنه سوف يسرق بعض المغناطيسات من المرآب الذي نعمل فيه ، وسوف يدفع لنا خمسة فرنكات

في اليوم لتنظيفها قبل أن يبيعها . هذا وحده سيقوم بأوَدنا . لا تقلقْ ، يا صديقي ، لا شيء يسهل الحصول عليه مثل النقود » .

« حسناً ، لنخرج الآن ونبحث عن عمل » .

« يا صديقي ، نحن لن نجوع في الوقت الحاضر . لا تخفْ . إن هذا حظ الحرب فقط ـ كنت في وضعٍ أسوأ مراتٍ عدة . المسألة مسألة صمود . تذكّرْ قولةَ فوش : « هاجِمْ! هاجم! هاجم! » .

انتصف النهار ، قبل أن يقرر بوريس النهوض من الفراش . كلُ ما تخلّفَ لديه من الثياب الآن هو بدلةٌ واحدة ، وقميص واحد ، ياقة ورباط عنق ، وزوجان من حذاء كاد يهترئ ، وجوربان مليئان بالثقوب . لديه أيضاً معطفٌ مقدَّرٌ له أن يُرهن في المطاف الأخير . لديه أيضاً حقيبة ، شيء تعيس من الورق المقوى بعشرين فرنكاً ، لكنه في غاية الأهمية ، لأن صاحب النزل يظن أنه مليء بالملابس ـ وبدونه ، كان يمكن للرجل أن يطرد بوريس . لكنّ هذا الشيء التعيس كان يحتوى على أوسمة بوريس وصوره ، وعلى أشياء لا حصر لها ، ورزمٍ منتفخة من رسائل الحب . بالرغم من هذا كله ، استطاع بوريس الحفاظ على مظهر لائق . إنه يحلق لحيته بلا صابون ، وبموسى عمره شهران ، وهو يعقد رباط عنقه حتى لا تظهر الثقوب ، ويحشو بعنايةٍ باطن حذائه بورق الصحف . أخيراً ، حين يلبس ، يُخرج دواةً ويحبّرُ كعبيه اللذين يبدوان من جواربه . ليس بمقدورك ، بعد أن يستكمل هيأته ، أن تفكر بأنه كان منذ وقت جدّ قريب ينام تحت جسور السين .

ذهبنا إلى مقهى صغير ، في فرعٍ من فروع شارع ريفولي ، وهو ملتقى شهير لمديري الفنادق والمستخدمين . في مؤخرة المقهى غرفة معتمة تشبه الكهف يجلس فيها كل أصناف عمال الفنادق ـ نادلون شبان أنيقون ، آخرون ليسوا بمثل تلك الأناقة ويبدو عليهم الجوع ، طبّاخون سمان متوردو الوجوه ، غاسلو صحون مدهَّنون ، عجائز تنظيف متداعيات . كل شخص أمامه كأس قهوة سوداء لم يُمَسّ . كان المكان ، في واقع الأمر ، مكتب

استخدام ، والمال الذي يُصرَف على المشروبات كان نسبة المالك . أحياناً يأتي رجل متين البنيان ، هامّ المنظر ، صاحب مطعم ، كما هو واضح ، ويتحدث مع مشرف البار . مشرف البار يستدعي أحد الجالسين في مؤخرة المقهى . لكنه لم يستدعني ، البتة ، ولا استدعى بوريس ، فتركنا المكان بعد ساعتين حسب ما تقتضي الأصول . بعد فوات الأوان علمنا أن السرَّ هو في رشوة مشرف البار ، فإن كانت لديك عشرون فرنكاً تقدمُها ، حصل لك عموماً على عمل .

ذهبنا إلى فندق سكريب وانتظرنا ساعة على الرصيف ، آملين في خروج المدير ، لكنه لم يظهر . جرجرنا أنفسنا نحو شارع كوميرس ، فقط لنجد أن المطعم الجديد الذي كان يعاد ديكوره ، مغلقٌ ، وأن صاحبه ليس هناك . الوقت الآن ليل . ولقد مشينا أربعة عشر كيلو متراً على الرصيف ، وكنا متعبين جداً ، حتى لقد أنفقنا فرنكاً وخمسين سنتيماً لنستخدم المترو . كان المشي عذاباً لبوريس ذي الرجل العرجاء ، وقد شرع تفاؤله يتهاوى مع ساعات اليوم . وحين خرج من المترو في ساحة إيطاليا كان يائساً . بدأ يقول أن لا فائدة في البحث عن عمل ـ ولم يتبقَّ إلا أن يجرب الجريمة .

«يا صديقي ، اسلبْ ، لا تجُعْ . لقد خططتُ كثيراً لهذا . غنيٌّ أميركي سمين ـ زاوية مظلمة في طريق مونبارناس ـ حجرٌ في جورب ـ بانْغ! ، ثم تبحث في جيوبه وتهرب . المسألة مجدية ، ألا تظن ؟ أنا لن أتزحزح ـ تذكرْ أنني كنت جندياً» .

في النهاية ، صرفَ النظر عن الخطة ، لأننا ، كلينا ، أجنبيان ، ويسهل التعرف علينا . حين عدنا إلى غرفتي أنفقنا فرنكاً وخمسين سنتيماً أخرى على الخبز والشوكولاتا . التهم بوريس حصته ، وعلى الفور شعر بالابتهاج كالسحر ، ويبدو أن الطعام يؤثر في جهازه بسرعة الكوكتيل . أخرج قلماً ، وأخذ يعدّ قائمة بالناس الذين يمكن أن يعطونا أعمالاً . هناك العشرات منهم . قال :

«غداً سوف نجد شيئاً ، يا صديقي ، أعرف هذا من أعماقي . الحظ يتغير دائماً . ثم أن لدينا مخّاً ، نحن الإثنين ، والرجلُ ذو المخّ لا يمكن أن يجوع . يا للأشياء التي يمكن للمرء أن يفعلها باستخدام مخه! المخ يخلق مالاً من لاشيء . كان لي مرةً ، صديق ، بولندي ، رجل حقيقي ذو عبقرية ، وماذا تظنه اعتادَ أن يفعل ؟ كان يشتري خاتم ذهب ، ويرهنه بخمسة عشر فرنكاً . ثم ـ أنت تعرف بأي إهمال يملأ الموظفون البطاقات ـ يضيف إلى حيث كتب الموظف ، ذهب ، كلمة وماس ، ويبدل عبارة خمسة عشر فرنكاً إلى خمسة عشر ألف فرنك . دقيقٌ ، أليس كذلك ؟ ثم يستطيع أن يستدين ألف فرنك بضمانة بطاقة الرهن . هذا ما أعنيه بالمخّ...» .

بقية المساء ، ظل بوريس في مزاج رائق ، يتحدث عن الأوقات التي سوف نكون فيها ، سويّةً ، نادلينِ ، في نيس أو بياريتز ، مقيمين في غرف أنيقة ، وذوي مالٍ كافٍ لعشيقاتٍ . كان جدَّ متعبٍ ، فلا يستطيع قطع الكيلومترات الثلاثة مشياً ، عائداً إلى فندقه . نام على الأرض في غرفتي ، ومعطفه ملفوف على حذائه ، وسادةً .

6

أخفقنا ثانيةً في الحصول على عملٍ ، اليوم التالي ، ومرّت ثلاثة أسابيع قبل أن يتبدل الحظّ . فرنكاتي المائتان أنقذتني من متاعب الإيجار ، لكن كل شيء عدا ذلك جرى بأسوأ ما يمكن . ويوماً بعد يوم ، كنا نخرج أنا وبوريس نطوف باريس ، منجرفين بسرعة ميلين في الساعة بين حشود الناس ، ضجرينِ ، جائعينِ ، خائبين . أتذكرُ يوماً قطعنا فيه نهر السين إحدى عشرة مرة . نتسكع ساعات عند مداخل الخدمات ، وحين يخرج المدير نقف مستعطفين ، والقبعة في اليد . وكنا نلقى الجواب ذاته : إنهم لم يريدوا رجلاً أعرج ، ولا شخصاً بدون خبرة . وكدنا نظفر مرةً بعمل ، فبينما كنا نتكلم مع المدير وقف بوريس مستقيم القامة ، غير مستند إلى عصاه ، ولم ير المدير أنه أعرج . قال : «نعم ، نريد شخصين في الأقبية ، قد تصلحان للعمل . أدخلا . ثم تحرّك بوريس ، فانكشفت اللعبة . قال المدير : «آه ، أنت أعرج ، لسوء الحظ...» .

سجلنا اسمينا في الوكالات وأجبنا الإعلانات ، لكن المشي إلى كل مكان جعلنا بطيئين ، وبدا أننا نخطئ كل عمل بتأخرنا نصف ساعة . كدنا نحصل مرة على عمل هو كنس عربات القطار ، لكنهم رفضونا في اللحظة الأخيرة لصالح فرنسيين . ومرةً أجبنا إعلاناً يطلب عمّالاً في سيرك . يقتضي العمل نقل المصاطب وتنظيف القاذورات ، أما في العرض فعليك الوقوف على

برميلين قصيرين وتركِ أسدٍ يثبُ من بين رجليك . عندما وصلنا إلى المكان ، قبل الموعد المحدد بساعة ، وجدنا طابوراً من خمسين رجلاً ينتظرون . واضحٌ أن الأسود ذات جاذبية . مرةً أرسلت لي إحدى الوكالات التي كنت قدمت طلباً إليها منذ شهور ، إشعاراً يخبرني عن جنتلمان إيطالي يريد دروس لغة إنجليزية . يقول الإشعار : «احضر حالاً» ، واعداً بعشرين فرنكاً للساعة . أنا وبوريس كنا يائسين . وها هي ذي الفرصة الممتازة ، لكنني لا أستطيع الإمساك بها ، إذ من المستحيل أن أذهب إلى الوكالة وسترتي مهترئة عند الكوعين . وخطر لنا أن أرتدي سترة بوريس ، وهي لا تماثل بنطلوني ، لكن البنطلون رماديّ ويمكن أن تمرّ المسألة . كانت السترة جدّ واسعة عليّ ، حتى تعيَّنَ عليّ أن أرتديها مفتوحة الأزرار ، وأن أضع يدي في جيبي . أسرعت إلى المكان ، وأنفقت خمسة وسبعين سنتيماً أجرةَ حافلةٍ للوصول إلى الوكالة . وحين وصلت ، قالوا لي إن الإيطالي غيّر رأيه ، وغادر باريس .

ومرةً اقترح عليّ بوريس أن أذهب إلى سوق الهال وأجرب العمل حمّالاً . وصلت إلى سوق الهال في الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، حين العملُ يكون في أوج نشاطه . وعندما رأيت رجلاً سميناً ذا قبعة عالية ذهبت إليه وسألته عملاً . قبل أن يجيب ، أمسك بيدي اليمنى وتحسّسَ راحتي . قال : «أنت قوي ؟ إيه ؟» ، قلت كاذباً : «قوي جداً» . «حسناً ، دعني أراك ترفع ذلك القفص» .

كان ذلك ، سلّة أماليد ضخمة ، ملأى بالبطاطا . أمسكتُ بها ، وتبيّن لي أني غير قادرٍ ، البتة ، على تحريكها ، فكيف برفعها ؟ الرجل ذو القبعة العالية راقبني ، ثم هزّ كتفيه ، واستدار عني . غادرتُ المكان ، وحين ابتعدت مسافة ما التفتُّ إلى وراء ، فرأيت أربعة رجال يرفعون السلّة إلى عربة . ربما كان وزنها ثلثمائة كيلو . رأى الرجل أني غير نافع ، فتصرّف هكذا ليصْرفني .

أحياناً ، في لحظات الأمل ، ينفق بوريس خمسين سنتيماً على طابع ، ويكتب إلى واحدة من عشيقاته السابقات ، يطلب منها مالاً . لم تردّ عليه إلا إحداهنّ . وهي امرأة إلى جانب أنها كانت عشيقته ، فهي مدينة له بمائتي فرنك . عندما رأى بوريس الرسالة تنتظره ، وعرف الخطّ ، جُنَّ أملاً . تسلمنا الرسالة وأسرعنا إلى غرفة بوريس لنقرأها ، مثل طفل مع حلويات مسروقة . قرأ بوريس الرسالة ، ثم سلّمها ، صامتاً ، إليّ . الرسالة كما يلي :

ذئبي الصغير العزيز ، ـ بأي ابتهاج فتحتُ رسالتك الممتعة ، التي تذكرني بأيام حبنا الكامل ، وبالقبل العزيزة التي تلقيتُها من شفتيك . ذكريات كهذه تظل في القلب إلى الأبد ، مثل عطر زهرة ماتت .

أما عن طلبك مائتي فرنك ، فوا أسفاه! إنه مستحيل . أنت لا تعرف يا عزيزي كم أنا متوجعة من سماعي الضيق الذي أنت فيه . لكن ماذا تفعل ؟ في هذه الحياة الرديئة يعمُّ البلاء الجميع . ولي من هذا نصيبٌ أيضاً . أختي الصغرى كانت مريضة (آهٍ للصغيرة! كم تألمتْ!) واضطررنا أن ندفع ما لا نعلم مقداره إلى الطبيب . ذهبَ كل مالنا ، وأؤكد لك ، أننا نمرّ في أيام صعبة جداً .

تشجّعْ يا ذئبي الصغير ، الشجاعة دائماً! تذكّرْ أنّ الأيام السيئة لن تظل إلى الأبد ، والعناء الذي بدا شديداً سوف يزول أخيراً .

كن واثقاً ، يا عزيزي ، أنني سأتذكرك على الدوام .

وتقبَلْ العناق المخلص ممّن لم تتوقف عن حبك .

« إيفون » لكَ

أزعجت هذه الرسالة بوريس ، حتى لقد ذهب فوراً إلى الفراش ، وامتنع عن طلب العمل ذلك اليوم .

فرنكاتي الستون استمرت أسبوعين . تخليتُ عن التظاهر بالخروج إلى المطاعم ، وقد اعتدنا الأكل في غرفتي ، أحدنا يجلس على الفراش ، والآخر على الكرسي . بوريس يساهم بالفرنكين وأنا بثلاثة فرنكات أو أربعة ، فنشتري خبزاً وبطاطا وحليباً وجبناً ، ونُعدّ حساءً على مصباحي الكحولي . لدينا مقلاة ودلّة قهوة وملعقة واحدة . وكل يوم يدور خلافٌ مؤدب حول أي منا سيأكل من المقلاة ، وأي سيأكل من دلّة القهوة (المقلاة تتسع أكثر) ، وكل يوم ، يتنازل بوريس ، مسبِّباً غضباً خفياً لديّ ، ويأخذ المقلاة . أحياناً يكون عندنا خبز أكثر في المساء ، وأحياناً لا . شراشفنا صارت قذرة ، وأنا أستحمّ منذ ثلاثة أسابيع . أما بوريس فيقول إنه لم يستحم من أشهر . التبغ هو ما يجعل كل شيء متحمَّلاً . لدينا كثير من التبغ ، فقبل وقتٍ ما ، التقى بوريس جندياً (الجنود يُعطَون تبغهم مجاناً) واشترى منه عشرين أو ثلاثين علبة ، بخمسين سنتيماً للواحدة .

هذا كله كان أشد وطأةً على بوريس مني . فالمشي ، والنوم على الأرض ، جعلا ظهره ورجله في وجعٍ دائم ، وبسبب شهيته الروسية الهائلة كان يعاني من عذاب الجوع ، مع أنه لم يبدُ عليه أثرٌ للنحافة . وعلى العموم كان مبتهجاً بصورة تدعو إلى الإدهاش ، متمتعاً بقابليات واسعة للأمل . اعتاد أن يقول إن لديه قديساً يرعاه ، وإنه حين تسوء الأمور جداً يبحث في البالوعة عن النقود ، زاعماً أن قديسه يلقي له هناك بقطعة نقد ذات فرنكين . في أحد الأيام كنا ننتظر في شارع رويال ، حيث مطعم روسيٌّ قريب ، وكنا ذاهبين لنطلب عملاً هناك . فجأةً قرر بوريس الدخول إلى كاتدرائية المادلين ، وإشعال شمعة بخمسين سنتيماً لقدّيسه الحامي . ثم خرج ، ليقول إنه سيكون في الطريق القويم ، وأشعل بوقار ، طابعاً ذا خمسين سنتيماً ، قرباناً للآلهة الخالدين . قد لا يتفق الآلهة والقديسون ،

لكننا ، على أي حال ، لم نحصل على العمل .

في أحد الصباحات انهار بوريس في يأس غامرٍ . وكان يتمدد على الفراش ، لاعناً وشاتماً اليهودي الذي يعيش معه . في الأيام الأخيرة شرع اليهودي يتململ من دفع الفرنكين كل يوم ، والأسوأ من ذلك أنه بدأ يصنع أجواء سيطرة لا تُحتمل . قال بوريس إنني باعتباري إنجليزياً لا أستطيع أن أدرك أي عذاب تعانيه أسرةٌ روسيةٌ لو وقعت تحت رحمة يهوديّ .

« يهودي ، يا صديقي ، يهودي حقيقي! وليس عنده تأدّبُ أن يخجل من ذلك . فكرْ بالأمر ، أنا النقيب في الجيش الروسي ـ هل أخبرتك يا صديقي بأني كنت نقيباً في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ؟ نقيب ، نعم ، وأبي كان عقيداً . وها آنذا الآن ، هنا ، آكل خبز يهودي . يهودي...

سأخبرك عن اليهود . مرةً في الشهور الأولى للحرب ، وكنا في مسيرةٍ ، وتوقفنا نقضي الليل في قرية . انسلَّ يهودي عجوز فظيع ذو لحية حمراء مثل يهوذا الإسخريوطي ، إلى مأواي . سألته عما يريد . قال : يا صاحب الشرف ، أتيت بفتاة إليك ، فتاة شابة جميلة في السابعة عشرة من عمرها فقط . بخمسين فرنكا حسب . قلت : عُدْ بها ، لا أريد أن أصاب بمرض . صرخ اليهودي : لكن ، يا سيدي النقيب ، لا خوف من ذلك . إنها ابنتي! ها هي ذي الصفة الوطنية لليهودي أقدمها إليك .

ألم أخبرك ، يا صديقي ، أنه في الجيش الروسي القديم ، كان يعتبر تصرفاً سيئاً ، أن تبصق على يهودي ؟ أجل ، رأينا أن بصقة ضابط روسيّ أثمن من أن تبدَّد على اليهود... » الخ . الخ .

في هذه الأيام ، أعلن بوريس ، عادةً ، أنه أشد مرضاً من أن يخرج باحثاً عن عمل . كان يظل راقداً حتى المساء تحت الأغطية المسودّة الموبوءة ، يدخن ، ويقرأ الصحف القديمة . أحياناً نلعب الشطرنج . لم تكن لدينا رقعة لعب ، لكنا كنا نكتب الحركات على قطعة ورق . فيما بعد ، عملنا رقعة من وجه علبة ، وبيادق من الأزرار وقطع النقد البلجيكية وما شابه

ذلك . بوريس ، شأنه شأن الروس الآخرين ، مولعٌ بالشطرنج . وكان يردد أن قواعد الشطرنج هي ذاتها قواعد الحب والحرب ، وأنك إن استطعت أن تكسب في واحد ، تستطيع أن تكسب في الأمور الأخرى . لكنه قال أيضاً إنك لو كانت عندك رقعة شطرنج فلا يهمك أن تجوع .

إن هذه ليست حالي ، بالتأكيد .

7

بدأ مالي يقلّ ، متدنياً إلى ثمانية فرنكات ، فأربعة ، فواحدٍ ، إلى خمسة وعشرين سنتيماً . والسنتيماتُ الخمسة والعشرون ليست بذات نفع ، إذ لا تستطيع أن تشتري إلا صحيفةً . تبلّغنا عدة أيام بالخبز اليابس ، ثم أمضيت يومين ونصف اليوم بلا شيء إطلاقاً . وكانت هذه تجربة قبيحة . ثمت أناس يعالجون أنفسهم بالصوم ثلاثة أسابيع أو أكثر ، ويقولون إن الصوم لطيفٌ جداً بعد اليوم الرابع ، لكنني لا أعرف ، فأنا لم أتجاوز اليوم الثالث . قد تكون المسألة مختلفة حين تتم طوعاً ، وحين لا تكون تغذيتك سيئة في البداية .

في اليوم الأول ، وكنت أشد هموداً من أن أبحث عن عمل ، استعرت شصّاً وذهبت إلى السين أصطاد السمك ، أما الطُّعم فكان الذباب الأزرق . آملتُ في أن أصطاد ما يكفي لوجبة ، لكنني لم أفلح طبعاً . نهر السين مليء بأسماك الداس ، لكن هذه الأسماك صارت خدّاعة أثناء حصار باريس ، ولم تُصطَد واحدةٌ منها إلا بالشِّباك . في اليوم التالي فكرت في أن أرهن معطفي ، لكن بدا لي أن المشي حتى محل الرهن طويل ، فأمضيتُ اليوم في الفراش ، أقرأ «مذكرات شرلوك هولمز» . هذا كان كل ما رأيته مناسباً لي ، بدون طعام .

الجوع يحطّ من المرء حتى يغدو بلا حول ولا عقل . إنه أشبه بعقابيل

الإنفلونزا منه بأي شيء آخر . كأن الإنسان تحوّل إلى إحدى الرخويّات . أو أن دمه كله قد فُصد واستُبدل به ماءٌ دافئ . الهمود الكامل هو ما أتذكره بصورة رئيسة عن الجوع ، الهمود والاضطرار إلى البصق كثيراً . كما أن البصاق يكون أبيض شمعياً ، مثل بصاق طائر الكوكو . لا أعرف سبب ذلك ، لكن كل من جرّب الجوع أياماً لاحظَ هذا .

في اليوم الثالث شعرت بتحسنٍ واضح . وأدركت أن عليَ أن أفعل شيئاً آخر ، فقررت الذهاب إلى بوريس أسأله مقاسمته الفرنكين ، بأي صورة من الصور ، ليوم أو إثنين . حين وصلت وجدت بوريس في الفراش ، حانقاً . وما أن دخلت حتى انفجر في شبه اختناق :

«لقد استعادها ، اللص القذر! لقد استعادها!»

قلت : «من أخذ ماذا ؟»

«اليهودي! أخذ الفرنكين ، الكلب ، اللص! سرقني وأنا نائم!» .

وقد ظهر أن اليهودي ، في الليلة الفائتة ، رفض رفضاً قاطعاً أن يدفع الفرنكين اليوميين . لقد تجادلا وتجادلا ، وقبل اليهودي أخيراً بدفع الفرنكين . وقال بوريس إن اليهودي دفعهما بطريقة عدوانية ، ملقياً خطبة قصيرة عن مقدار عطفه ورأفته ، مطالباً بالامتنان لما فعل . لكنه في الصباح سرق الفرنكين قبل أن يستيقظ بوريس . كانت تلك ضربة . وقد استأت كثيراً ، لأنني جعلت معدتي تتوقع طعاماً ، وهو خطأ جسيمٌ حين يكون المرء جائعاً . غير أني دهشت لأن بوريس كان أبعد ما يكون عن اليأس . جلس في فراشه ، أشعل غليونه ، واستعرض الوضع .

«الآن اسمع ، يا صديقي ، إنها لزاويةٌ ضيقة . نحن لدينا خمسة وعشرون سنتيماً فقط بيننا ، ولا أعتقد أن اليهودي سوف يدفع الفرنكين ثانيةً . وعلى أي حال ، إن سلوكه صار لا يُحتمل . أتصدق أنه في إحدى الليالي جاء بامرأة إلى هنا ، بينما أنا على الأرض . الحيوان الوضيع! وهناك شيء أسوأ أريد أن أخبرك به . اليهودي يعتزم ترك المكان . إنه مدينٌ

بإيجار أسبوع ، وفكرتُه أن يتجنب الدفع ، ويتركني في المأزق . لو هرب اليهودي فإنني سأكون بلا مأوى ، وسوف يأخذ صاحب النزل حقيبتي بدلاً من الإيجار ، اللعنة عليه! » .

« حسناً ، لكن ماذا بمقدورنا أن نفعل ؟ يبدو لي أن الشيء الوحيد الممكن هو أن نرهن معطفينا ، ونحصل على طعام » .

« سنفعل ذلك ، طبعاً ، لكن عليّ أولاً أن أخرج ممتلكاتي من هذا المنزل . فكِّرْ بصوري تُصادَر! حسناً ، إن خطتي جاهزة . سوف أسبق اليهودي ، وأهرب أنا ـ إخلاء المعسكر ـ الإنسحاب ، أنت تفهم . أعتقد أنها الحركة الصحيحة ، إيه ؟ » .

« لكن ، يا عزيزي بوريس ، كيف تستطيع ذلك ، نهاراً ؟ سوف يقبض عليك » .

« آه ، حسناً ، الأمر بحاجة إلى ستراتيجية ، طبعاً . صاحب نُزلنا يرصد الناس الذين ينسلّون خارجين بدون أن يدفعوا الإيجار . هذه عادته من قبلُ . هو وزوجته يتناوبان الجلوس في المكتب طوال اليوم ـ كم هم بؤساء هؤلاء الفرنسيون! لكني فكرت في طريقة لتدبير الأمر لو ساعدتَني » .

لم أكن في مزاج لإبداء أي مساعدة ، لكني استفسرت من بوريس عن خطته . شرحها لي بعناية ودقة .

« اسمع الآن . ينبغي أن نبدأ برهن معطفينا . أولاً عد إلى غرفتك وأحضر معطفك ، ثم تعال إلى هنا وخذ معطفي لتهرِّبه تحت معطفك . خذ المعطفين إلى محل الرهون في شارع فرانك بورجوا . إن كنت محظوظاً فستحصل على عشرين فرنكاً للإثنين ، ثم اذهب إلى ضفة السين واملأ جيوبك بالحجر ، بعد ذلك تعال إلى هنا ، وضع الحجر في حقيبتي . هل أدركتَ الفكرة ؟ سوف ألفُ قدر ما أستطيع حمله من أشيائي في صحيفة ، وأهبطُ لأستفسر من صاحب النُزل عن الطريق إلى أقرب محل لتنظيف الملابس . سوف أكون لبقاً جداً وماهراً بحيث يعتقد الرجل أن ما أحمله

ليس غير غسيل ، قذر . وفي حال شكّه سوف يفعل ما يفعله على الدوام ، هذا الحقير . إنه سوف يصعد إلى غرفتي ويتحسس ثقل حقيبتي . وحين يحسّ بثقل الحجر يظن الحقيبة ملأى . ستراتيجية ، إيه ؟ بعد هذا ، أستطيع أن أعود ، لأحمل أشيائي الأخرى في جيوبي » .

« لكن ، ماذا عن الحقيبة ؟ » .

« أوه ، تلك ؟ علينا التخلي عنها . إنها لا تساوي إلا عشرين فرنكاً . ثم أن المرء يتخلى دائماً عن شيء ما في أي تراجعٍ . أنظر إلى نابوليون بيريسينا! لقد تخلى عن كامل جيشه!

كان بوريس جدَّ مسرور بخطته (سمّاها خدعة حرب ـ Une ruse de guerre) حتى لقد نسي جوعه .

أما الضعف الأساس في خطته ـ وهو أنه لن يكون لديه مكان للنوم بعد الهروب ـ فقد أهمله .

في البداية ، نال التوفيق الخدعة الحربية . ذهبت إلى مسكني وأخذت معطفي (قطعت تسعة كيلو مترات بمعدة خاوية) وهرّبتُ معطف بوريس بنجاح . ثم حدثت نكسة . إذ رفض متسلِّمُ محل الرهون ـ وهو ضئيلٌ ، متأفف ، حامض الوجه ، متدخل ـ مثالٌ للموظف الفرنسي ـ المعطفين بدعوى أنهما لم يكونا ملفوفين بأي شيء . قال إنهما يجب أن يوضعا إما في حقيبة أو في صندوق من الورق المقوّى . لقد أفسد هذا كل شيء ، إذ ليس لدينا صندوق من أي نوع ، ولأننا نحن الإثنين لا نملك إلا خمسة وعشرين سنتيماً ، لن يكون بمقدورنا أن نشتري واحداً .

عدتُ وأطْلعتُ بوريس على الأنباء السيئة . قال : « خراء! هذا يجعل الأمر صعباً . حسناً . لا يهمّ . ثمت دائماً مخرج . سوف نضع المعطفين في حقيبتي » .

« لكنْ ، كيف بمقدورنا أن نأخذ الحقيبة أمام عيني صاحب النزل ؟ إنه يكاد يجلس في باب المكتب . مستحيل! » .

«يا صديقي ، أنت تيأس بسهولة! أين العناد الإنجليزي الذي قرأتُ عنه ؟ الشجاعة! سوف ندبر الأمر» .

فكّر بوريس برهةً قليلة ، ثم قدّم خطةً خبيثة أخرى .

الصعوبة الجوهرية في هذه الخطة هي الاستحواذ على انتباه صاحب النزل لمدة خمس ثوان مثلاً ، بينما نستطيع نحن الإنسلال من أمامه مع الحقيبة . وقد صادف أن لصاحب النزل نقطة ضعف واحدة ـ وهي أنه مولعٌ بالرياضة ، ومستعدٌ للحديث فيها إذا فتحتَ له باب الموضوع . قرأ بوريس مقالاً عن سباق الدراجات في عدد قديم من «الباريسيّ الصغير» ، ثم ، بعد أن استطلع السلّم ، نزل وجعل صاحب النزل يتحدث . آنذاك ، كنت أنتظر أسفل السلّم ، المعطفان تحت الذراع ، والحقيبة تحت الأخرى . كان على بوريس أن يسعل سعلةً حين يرى أن اللحظة المناسبة قد حلّت . انتظرتُ مرتجفاً ، ففي أي لحظة يمكن أن تخرج زوجة صاحب الفندق من الباب الذي يواجه المكتب ، فتفسد اللعبة . لكني سمعت سعلة بوريس ، فمرقتُ مسرعاً ، عبر المكتب ، إلى الشارع ، سعيداً بأن حذائي لم يطلق صريره . كانت الخطة ستخفق لو كان بوريس أنحف ، إذ سدّت كتفاه العريضتان ممرّ المكتب . كانت أعصابه رائقة ، فقد ظل يضحك ويتحدث بأجمل طريقة ، وأعلى صوت يغطي أي ضجيج يمكن أن أفعله . عندما صرت على مبعدة جيدة ، جاء وانضمّ إليّ في الركن ، ثم انطلقنا هاربين .

لكن ، بعد هذا العناء كله ، رفض متسلم محل الرهون المعطفين . قال لي (بإمكان المرء رؤية روحه الفرنسية المتيّمة بالحذلقة) إن أوراق تعريفنا ليست كافية ، بطاقة هويتي لا تكفي ، ويجب عليّ أن أريه جواز سفر أو مظاريف عليها اسمي وعنواني .

بوريس ، يمتلك مظاريف معنونة ، بالعشرات ، لكن بطاقة هويته غير صالحة (فهو لم يجددها البتة ، ليتفادى الضريبة) ، ولهذا لا نستطيع رهن المعطفين باسمه . كل ما نقدر عليه ، هو الذهاب إلى غرفتي ، والمجيء

بالأوراق اللازمة ، وأخذ المعطفين إلى محل الرهون في شارع بور رويال .

تركت بوريس في غرفتي وهبطت إلى محل الرهون . حين وصلت وجدته مغلقاً ، ولن يفتح إلا في الرابعة عصراً . كانت الساعة الواحدة والنصف ، وكنت مشيت إثني عشر كيلو متراً ، ولم أكن طعمتُ شيئاً منذ ستين ساعة . ويبدو أن القدر كان يطلق سلسلة مِزَحٍ مزعجة بشكل استثنائي . ثم تبدّل الحظّ فجأة في مثل المعجزة . كنت عائداً إلى مسكني عبر شارع بروكا ، حين لمحت قطعة خمسة وعشرين سنتيماً تلتمع بين أحجار الرصف . وثبتُ عليها وثباً ، واشتريت رطل بطاطا . كان في الموقد كحولٌ يكفي فقط لسلقها ، ولم يكن عندنا ملح ، لكننا تناهشناها نهشاً ، القشر وكل شيء . بعدها ، أحسسنا بأننا بشر من جديد ، وجلسنا نلعب الشطرنج ، حتى موعد فتح محل الرهون .

في الساعة الرابعة ، عدت إلى محل الرهون . لم يكن لديّ كثير أمل . فمادمت تلقيتُ من قبلُ سبعين فرنكاً فقط ، فماذا يمكن أن أحصل من معطفين قديمين في صندوقٍ من المقوى ؟ قال بوريس إننا سنحصل على عشرين فرنكاً ، أما أنا فرأيت الرهن بعشرة فرنكات ، أو حتى بخمسة ، والأسوأ من هذا كله أن يُرفض الرهن بالمرّة ، مثل الرقم ٨٣ البائس في المناسبة السابقة . جلست على المصطبة الأمامية ، حتى لا أرى الناس يضحكون حين يعلن الموظف خمسة فرنكات .

أخيراً نادى الموظف رقمي : «الرقم ١١٧!» .

قلت واقفاً : «نعم» .

«خمسون فرنكاً ؟» .

كانت خضَةً كبيرة ، مثل الفرنكات السبعين قبلها . وأظن الآن أن الموظف خلط بين رقمي ورقم آخر ، إذ لا يمكن حتى بيع المعطفين بخمسين فرنكاً . أسرعت عائداً إلى مسكني ، ودخلت غرفتي ويداي خلف ظهري ، بدون أن أقول شيئاً .

كان بوريس يلعب الشطرنج . صعَّدَ إليّ بصره متلهفاً .

هتف بي : «ماذا قبضت ؟ ماذا ؟ ليس عشرين فرنكاً ؟ أكيدٌ أنك حصلت على عشرة فرنكات على أي حال ؟ يا إلهي! خمسة فرنكات ـ أمرٌ سيئٌ . يا صديقي ، لا تقل إنها خمسة فرنكات ـ إن قلت خمسة فرنكات فسوف أفكر حقاً بالانتحار» .

رميت ورقة الخمسين فرنكاً على الطاولة . صار وجه بوريس أبيض كالشمع ، ثم وثبَ ، وأمسك بيدي ، واعتصرها حتى كاد يكسر عظامي . خرجنا راكضين ، ابتعنا خبزاً وخمراً ، وشريحة لحم ، وكحولاً للموقد ، وشرعنا نلتهم .

بعد الأكل ، صار بوريس أشد تفاؤلاً من أي وقت عرفت . قال : «بمَ أخبرتُك ؟ حظُّ الحرب! هذا الصباح مع خمسة وعشرين سنتيماً ، والآن أنظر ما نحن فيه . لقد قلتُها دائماً ، لا شيء يسهل الحصول عليه مثل النقود . وهذا يذكّرني بصديقٍ في شارع فونداري يمكن أن نذهب لنراه . لقد غشني بأربعة آلاف فرنك ، هذا اللص . إنه أعظم لصٍ حيّ حال صحوه ، لكن ثمتَ شيئاً عجيباً وهو أنه إنسانٌ صادقٌ حال سكره . أعتقد أنه يكون سكران في السادسة مساءً . فلنذهب للقائه! قد يدفع مائة فرنك على الحساب . خراء! قد يدفع مائتين . لنمضِ!» .

ذهبنا إلى شارع فونداري ، ووجدنا الرجل ، وكان سكران ، لكننا لم نحصل على فرنكاتنا المائة . ما أن التقى الرجلان حتى بدأت مشادّة حامية على الرصيف . أعلن الرجل الآخر أنه غير مدين لبوريس بسنتيم ، والعكس أن بوريس مدينٌ له بأربعة آلاف فرنك ، وكان كل منهما يستعين بي طالباً رأيه . كنت أجهل ما في الأمر . تجادل الإثنان وتجادلا ، أولاً في الشارع ، ثم في المشرب ، ثم في مطعم ذي سعر محدد حيث دخلنا نتعشى ، ثم في مشرب آخر . وأخيراً ، بعد ساعتين من قول أحدهما للثاني إنه لصٌ ، دخلا في نوبة شربٍ أجهزتْ على آخر سنتيم عند بوريس .

أمضى بوريس الليل في مسكن عامل رصفٍ ، لاجئ روسيّ آخر ، في حيّ كومّيرس . بقيَ لديّ ثمانية فرنكات ، وسجائر كثيرة ، وكنت مترعاً حتى عينيّ بالطعام والشراب . لقد كان تغيُّراً ممتازاً نحو الأحسن ، بعد يومين سيّئين .



بأيدينا الآن ثمانية وعشرون فرنكاً ، ونستطيع أن نبحث عن العمل من جديد . كان بوريس لايزال ينام ، بموجب شروط غامضة ، في منزل راصف الأحجار ، كما استطاع أن يستدين عشرين فرنكاً من صديق روسي . كان لديه أصدقاء ، معظمهم ضباط سابقون مثله ، هنا وهناك في كل باريس . بعضهم كان نادلاً أو غاسل صحون ، بعضهم سائق سيارة أجرة ، قليل منهم يعيش على النساء ، بعضهم استطاع المجيء بأموال من روسيا فامتلك مرآباً أو صالة رقص . اللاجئون الروس في باريس ، هم على العموم قومٌ يصبرون على العمل الشاقّ ، واستطاعوا التأقلم مع حظهم السيئ أكثر مما يمكن أن يتخيله الإنسان لدى الإنجليز من الفئة الاجتماعية ذاتها . هناك استثناءات بالطبع . فقد حدثني بوريس عن دوق روسيّ منفيّ التقى به مرة ، ألِفَ ارتياد المطاعم الفاخرة . كان الدوق يبحث عما إذا كان بين النادلين ضابط روسيّ سابق ، وبعد أن يتعشى يستدعيه بطريقة ودية إلى طاولته .

يقول الدوق : «آه ، إذاً أنت جندي قديم ، مثلي ؟ إنها لأيامٌ سيئة هذه ، إيه ؟ حسناً ، حسناً ، الجندي الروسي لا يهاب شيئاً . في أي كتيبة كنتَ ؟» .

سوف يجيب النادل : «كتيبة كذا وكذا ، سيدي» .

«كتيبة مقدامة! لقد فتشتُهم في ١٩١٢ . وبالمناسبة ، أنا لسوء الحظ

تركت محفظة نقودي في المنزل . أعرف أن ضابطاً روسياً سيجعلني ممتناً له بثلثمائة فرنك» .

فإن كانت لدى النادل ثلثمائة فرنك سلّمها إياه ، وهو بالطبع ، لن يراه ثانيةً . وقد جمع الدوق بهذه الطريقة مالاً كثيراً . ربما لم يهتمّ النادلون بأنهم خُدعوا . فالدوق يظل دوقاً ، حتى في المنفى .

من أحد هؤلاء اللاجئين الروس سمع بوريس عن شيء قد يحمل وعداً بالمال .

وبعد يومين من رهننا معطفينا ، قال لي بوريس بطريقة غامضة :

«أخبرني يا صديقي ، ألديك أي آراء سياسية ؟» .

قلت : «لا» .

«ولا أنا . كل شخص هو وطنيّ طبعاً ، لكن مع ذلك ـ ألم يقل موسى شيئاً حول الانتفاع من المصريين ؟ أنت ، باعتبارك إنجليزياً ، كنتَ قرأت الكتاب المقدس . ما أعنيه هو ، هل تعترض على كسب المال من الشيوعيين ؟» .

«لا ، بالطبع لا» .

«حسناً ، يبدو أن في باريس جمعية روسية سرية قد تفعل شيئاً لنا . إنهم شيوعيون . والواقع أنهم عملاء للبلاشفة . إنهم يعملون باعتبارهم جمعية صداقة ، تتصل بالمنفيين الروس ، وتحاول أن تجعلهم بلاشفة . صديقي انضمَ إلى جمعيتهم ، وهو يعتقد أنهم سيساعدوننا لو ذهبنا إليهم» .

«لكن ماذا بمقدورهم أن يفعلوا لنا ؟ وفي كل الأحوال ، لن يساعدوني أنا ، فأنا لستُ روسياً» .

«ها هي ذي النقطة بالضبط . يبدو أنهم مراسلون لصحيفة موسكوفية ، ويريدون مقالات عن السياسة البريطانية . لو ذهبنا إليهم فربما كلّفوك بكتابة مقالات» .

«أنا ؟ لكني لا أعرف شيئاً عن السياسة» .

«خراء! ولا هُم . من تراه يعرف في السياسة ؟ الأمر سهل . كل ما عليك أن تفعله هو أن تستنسخ المقال من الصحف الإنجليزية . أليست هناك «ديلي ميل» في باريس ؟ انسخ مقالاتك منها» .

«لكن الديلي ميل صحيفة محافظة . وهم يكرهون الشيوعيين» .

«حسناً ، قل عكس ما تقوله الديلي ميل ، ولن تخطئ آنذاك . علينا ألا نفرِّط بهذه الفرصة ، يا صديقي . فقد تعني مئات الفرنكات» .

لم تستهوني الفكرة ، فالشرطة الباريسية شديدة على الشيوعيين ، وعلى الأجانب منهم بخاصة ، كما أنني موضع ريبةٍ بالفعل . فقبل شهور رآني مخبرٌ سريّ أخرج من مكتب صحيفة شيوعية أسبوعية ، مما سبّب لي متاعب كثيرة مع الشرطة . ولو قبضوا عليّ خارجاً من هذه الجمعية السرية ، فربما وقع إبعادي . بالرغم من هذا كله ، بدت الفرصة أثمن من أن يفرَّط بها . عصر ذلك اليوم ، جاء صديق بوريس ، وهو نادلٌ آخر ، ليأخذنا إلى الموعد . لا أستطيع أن أتذكر اسم الشارع ، لكنه كان شارعاً بائساً يمتد جنوباً من ضفة السين ، غير بعيد عن مجلس النواب . أصرّ صديق بوريس على اتخاذ الحيطة والحذر . تجوّلنا ، عابرين ، هنا وهناك ، في الشارع ، وعيّنّا المدخل الذي سوف نلجه ـ كان محل تنظيف ملابس ـ ثم مشينا عائدين ، مراقبين كل النوافذ والمقاهي . إن كان المحل معروفاً بأنه وكرٌ للشيوعيين فلا شك في أنه مراقَبٌ ، وقد اعتزمنا العودة إلى مسكننا لو رأينا أي شخص له هيأة المخبر السريّ . كنت خائفاً ، لكن بوريس كان يستمتع بهذه العمليات التآمرية ، وقد نسي تماماً أنه يوشك أن يتعامل مع من قتلوا أمه وأباه .

حين تأكدنا من خلوّ الشاطئ دخلنا المجاز مسرعين . في محل التنظيف كانت امرأة فرنسية تكوي ثياباً ، وقد أخبرتنا أن «السادة الروس» يقيمون في أعلى درجٍ عبر الحوش . ارتقينا عدة سلالم من درج معتم وخرجنا إلى منبسَط . في أعلى الدرج يقف شابّ قويّ ، واثق النظرات ،

قصير الشعر . حين وصلت نظر إليّ مرتاباً ، وسدّ الطريق بذراعه ، وقال كلمات بالروسية .

وعندما لم أجب قال محتداً باللغة الفرنسية : كلمة السر! Mot d'ordre .

توقفت ، مباغَتاً . فلم أكن توقعت كلمات سر .

كرّر الروسي : «كلمة السر!» .

صديق بوريس ، الذي كان يمشي خلفي ، تقدّم وقال شيئاً باللغة الروسية ، إما كلمة سر ، أو شرحاً .

وبدا أن الشاب الواثق اطمأنّ لما قيل ، فقادنا إلى غرفة صغيرة بائسة ذات زجاج مضبَّب . كان مكتباً في غاية البؤس ، فيه ملصقات دعاوة بالروسية ، وصورة كبيرة خشنة للينين ، على الجدران . عند الطاولة يجلس شخصٌ روسيّ غير حليق اللحية ، يرتدي قميصاً ، وهو منهمك في رُزم صحف من كدْسٍ أمامه .

عندما جئت تحدّث معي بفرنسية ذات لكنةٍ رديئة .

صاح بي مهتاجاً : «إنه التسيّب! لمَ جئتم بلا ربطة ملابس للغسيل ؟» .

قلت : «غسيل ؟» .

«كل من يأتي إلى هنا يحمل غسيلاً . إنهم يتظاهرون بأنهم يقصدون محل تنظيف الملابس في الأسفل . هات صرة ملابس كبيرة ، حين تأتي ، المرة المقبلة . نحن لا نريد أن تكون الشرطة في أثرنا» .

كان الوضع التآمري هذا أكثر حتى مما تصورتُ .

جلس بوريس على الكرسي الفارغ الوحيد ، وجرى حديث طويل باللغة الروسية . الشخص غير الحليق كان المتكلم الوحيد ، أما الشاب الواثق فقد استند إلى الجدار وعيناه عليّ ، كأنه لا يزال مرتاباً فيّ . جوٌّ غريبٌ ، أن تقف في الغرفة السرية الصغيرة ذات الملصقات الثورية ، وتنصت إلى محادثة لا تفهم منها كلمة واحدة . الروس يتكلمون بسرعة وحميّة ، مع ابتسامات

وتحريك أكتاف . وكنت أتساءل عمّ يدور الحديث . ربما كان واحدهم يدعو الآخر ، أبي الصغير ، أو حمامتي الصغيرة ، أو إيفان ألسكندروفتش ، مثل شخصيات الروايات الروسية . وسوف يكون الحديث عن الثورات . ولسوف يقول الشخص غير الحليق حازماً ، «نحن لا نتناقش ، الخلاف ماضٍ بورجوازيّ . الأفعال هي حججنا» . ثم أدركت أن الأمر لم يكن هكذا بالضبط . واضحٌ أنهم طلبوا عشرين فرنكاً رسومَ دخولٍ في الجمعية ، وأن بوريس كان يعد بدفعها (متاعنا في الدنيا سبعة عشر فرنكاً فقط) . أخيراً أخرج بوريس ذخرنا الثمين من النقود ، وقدّم خمسة فرنكات على الحساب .

آنذاك بدا الشاب الواثق أقل ارتياباً ، وجلس على حافة الطاولة . الشخص غير الحليق شرع يستجوبني باللغة الفرنسية ، مدوّناً ملحوظات على قطعة ورق . سألني : هل أنا شيوعي ؟ أجبت : تعاطفاً ، إذ لم أكن قطُّ في أي منظمة . هل أفهم الوضع السياسي في إنجلترا ؟ أوه ، طبعاً ، طبعاً . ذكرت أسماء بعض الوزراء ، وأبديت ملحوظات تُزري بحزب العمال . وماذا عن الرياضة ؟ هل أستطيع كتابة مقالات عن الرياضة ؟ (ثمت ، في القارة ، علاقة غامضة بين كرة القدم والإشتراكية) ، أوه ، طبعاً . الرجلان كلاهما كانا يؤمِّنان على أقوالي بحركة رأسيهما . الشخص غير الحليق قال : «من الواضح أن لديك معرفة وثيقةً بظروف إنجلترا ، هل بمقدورك أن تكتب سلسلة مقالات لصحيفة موسكوفية أسبوعية . سوف نعطيك التفاصيل» .

«بالتأكيد» .

«إذاً ، أيها الرفيق ، سوف تسمع منا ، بالبريد أولاً ، غداً . وربما بالبريد الثاني . نحن ندفع مائة وخمسين فرنكاً للمقال . تذكَّرْ أن تحمل معك صرة ملابس غسيل حين تجيء ، المرة المقبلة . إلى اللقاء ، يا رفيق» .

هبطنا السلالم ، ونظرنا مليّاً خارج محل تنظيف الملابس ، لنرى إن كان أحدٌ في الشارع ، ثم انسللنا خارجين . كان بوريس مجنوناً بالفرح .

وفي نوع من نشوة التضحية اندفع إلى أقرب دكان تبغ وأنفق خمسين سنتيماً على شراء سيجار . وخرج ، متألقاً ، يدقّ بعصاه على الرصيف .

«أخيراً! أخيراً! يا صديقي ، لقد ابتسم لنا الحظ فعلاً . أنت استطعت التأثير فيهم . أسمعتَه يناديك : يا رفيق ؟ مائة وخمسون فرنكاً للمقال ـ يا إلهي ، أي حظ ؟» .

في الصباح التالي ، حين سمعت ساعي البريد ، اندفعتُ هابطاً إلى المشرب كي آخذ رسالتي ، وقد خاب أملي ، حين لم تصل .

بقيت في المنزل حتى البريد الثاني . لا رسالة . وبعد أن مرت ثلاثة أيام ، بدون أن أسمع من الجمعية السرية ، فقدنا الأمل ، وقلنا إنهم كلفوا شخصاً آخر بكتابة المقالات .

وبعد عشرة أيام ، زرنا ثانيةً مكتب الجمعية السرية ، واحتطنا بأن أخذنا معنا صرّةً كأنها تحتوي على غسيل . وإذ بالجمعية السرية قد اختفت! المرأة في محل تنظيف الملابس لا تعرف شيئاً ـ قالت ببساطة إن هؤلاء السادة تركوا المكان قبل بضعة أيام ، بعد خلاف على الإيجار .

كم بدونا حمقى ، ونحن واقفان هناك مع صرّتنا! لكن عزاءنا أننا لم ندفع سوى خمسة فرنكات بدلاً من عشرين .

وهذا كان آخر ما سمعناه عن الجمعية السرية . من كانوا ؟ وماذا فعلوا ؟ لم يعرف أحد . لكنني أعتقد شخصياً أنه لم تكن لهم أي علاقة بالحزب الشيوعي ، أظن أنهم كانوا ، بكل بساطة ، محتالين ، يعتاشون على اللاجئين الروس بأخذ رسوم دخول في جمعية خيالية .

إنه عمل كامل الأمان ، ولا شك في أنهم لايزالون يؤدونه في مدينة أخرى . كانوا شُطّاراً ، ولعبوا دورهم بشكل مرموق . كان مكتبهم يبدو تماماً مثل ما يمكن أن يكون عليه مكتبٌ شيوعي سريّ ، أما عن لمستهم الخاصة بصرّة الغسيل ، فأعتقد أنها علامة عبقرية .

9

لثلاثة أيام أخرى ، ظللنا نجرجر أقدامنا ، منهكين ، بحثاً عن عمل ، وعائدين إلى المسكن لنتناول وجبات متضائلة من الحساء والخبز في غرفة نومي . ثمت الآن بصيصا ضوء .

في المقام الأول ، سمع بوريس بعمل ممكن في فندق س ، قرب ساحة الكونكورد ، وفي المقام الثاني أن صاحب المطعم الجديد في شارع كومَيرس عاد أخيراً . ذهبنا عصراً ورأيناه . وفي طريقنا إليه كان بوريس يتحدث عن الثروات الطائلة التي سنجنيها لو حصلنا على العمل ، وعن أهمية إعطاء انطباع جيد لصاحب المطعم .

«المظهر ـ المظهر هو كل شيء ، يا صديقي . أعطني بدلةً جديدة أستدنْ ألف فرنك عشاءً . أمرٌ مؤسفٌ أنني لم أشتر ياقة حين كانت معنا نقود . لقد قلبتُ ياقتي هذا الصباح ، لكن ما الفائدة ؟ إن ظهرها أوسخ من بطنها . أتعتقد أني أبدو جائعاً يا صديقي ؟» .

«أنت تبدو شاحباً» .

«اللعنة ، ماذا يفعل المرء بالخبز والبطاطا ؟ أمرٌ مهلكٌ أن تبدو جائعاً . إنه يجعل الناس يركلونك . انتظر» .

توقف عند واجهة محل مجوهرات وصفع خديه بقوة كي يعيد الدم إليهما . وقبل أن يختفي التورّد أسرعنا ندخل المطعم ، وقدّمنا أنفسنا إلى صاحبه .

كان صاحب المطعم رجلاً قصيراً ، أميل إلى البدانة ، ذا هيبة وشعر أشيب متموج ، كان يرتدي بدلة مزدوجة الصدر من الفلانيلة ، ويتضوع منه العطر . أخبرني بوريس بأنه كان أيضاً عقيداً في الجيش الروسي . كانت زوجته هناك كذلك ، وهي امرأة فرنسية سمينة رهيبة ذات وجه ميت البياض وشفتين قرمزيتين تذكران بلحم العجل البارد والطماطم .

حيّا صاحب المطعم بوريس بحرارة ، وتحدثا بالروسية لبضع دقائق . ووقفت أنا في المؤخرة ، متهيئاً لإطلاق أكاذيب كبرى عن خبرتي في غسل الصحون .

ثم تقدم صاحب المطعم مني . تحركت بارتباك محاولاً أن أبدو متذللاً . وكان بوريس أدخل في روعي أن غاسل الصحون هو عبد العبد ، وتوقعت أن يعاملني صاحب المطعم مثل نُفاية . ولدهشتي أمسكَ بيدي مرحِّباً خير ترحيب .

هتف : « إذاً ، أنت إنجليزي! كم الأمر مبهج! هكذا ، لن أسألك إن كنت لاعب غولف ؟ » .

قلت : « بالتأكيد » ، باعتبار أن هذا هو المتوقَّع مني .

« طوال حياتي ، وددت أن ألعب الغولف . ترى ، هل تتعطف يا سيدي العزيز وتريني بضع ضربات رئيسة ؟ » .

واضحٌ أن هذه هي الطريقة الروسية في العمل .

شرحت له ، وهو مصغٍ ، الفرق بين المضرب والحديد ، لكنه أخبرني فجأةً أن كل شيء قد تقرَّر . بوريس سوف يكون رئيس النادلين حين يُفتح المطعم ، وأنا غاسل صحون مع فرصة أن أرتقي إلى مشرف مرحاض ، عندما يكون الشغل ناجحاً . سألتُ ، متى يفتح المطعم ؟ أجاب الرجل بتفخيم : « بعد أسبوعين بالضبط اعتباراً من هذا اليوم » ، (كانت له عادة التلويح بيده ونفض سجارته في الوقت نفسه مما يبدو في منتهى الفخامة) ، « بعد أسبوعين بالضبط اعتباراً من هذا اليوم ، في موعد الغداء » ، ثم جعلنا نتفرج على المطعم مفتخراً .

كان محلاً أميل إلى الصغر ، مكوناً من بار ، صالة طعام ، ومطبخ ليس أوسع من غرفة حمّام اعتيادية . كان صاحب المطعم يعمل الديكور بطريقة « تصويرية »

تافهة (سمّاها النورماندية وكانت تعني عوارض زائفة تلصق على الجص ، وما إلى ذلك) ، واقترح أن يسمى المطعم أوبرج جيان كوتار ، لإعطاء مؤثر قروسطي . كما أن لديه منشوراً مطبوعاً ، مليئاً بالأكاذيب عن الروابط التاريخية للحيّ ، وفي هذا المنشور تمّ الإدّعاء ، بين أمور أخرى ، أنه كان في موضع المطعم نُزلٌ يؤمُّهُ شارلمان . أما البار فقد تولّى تزيينه بصور غير لائقة ، فنانٌ من الصالون . أخيراً قدّمَ لكل واحدٍ منا سجارة غالية ، وبعد مزيدٍ من الحديث ، ذهب إلى بيته .

انتابني إحساسٌ قويّ بأننا لن ننال خيراً من هذا المطعم . لقد بدا لي صاحبه محتالاً ، بل محتالاً غير ماهر ، وهذا هو الأسوأ . كما أنني رأيت دائنينِ اثنينِ لا يخطئهما النظر متوقفين عند الباب الخلفية .

« لقد نجحت محاولتنا . علينا الصبر أسبوعين فقط . ما الأسبوعان ؟ الطعام ؟ لا يهمّ . آ! فكر بأن عشيقة ستكون عندي بعد ثلاثة أسابيع! ترى ، أستكون سمراء أم شقراء ؟ لست أدري ، لا يهمني مادامت ليست نحيفة جداً » .

تلا ذلك يومان سيئان . لم يتبقّ لدينا إلا ستون سنتيماً أنفقناها على شراء رطل من الخبز مع قطعة ثوم نفرك الخبز بها . الفكرة في فرك الخبز بالثوم أن الطعم يبقى ، فيتولد عند المرء وهمُ أنه قد أُطعمَ مؤخراً . أمضينا معظم النهار في « حديقة النباتات » . حاول بوريس اصطياد الحمام الأليف بالحجر ، لكنه أخطأ مرماه . وبعد ذلك كتبنا قوائم طعام عشاء على ظهور المظاريف . كنا جائعين إلى حدٍ لا نستطيع التفكير معه إلا بالطعام . وأتذكر العشاء الذي اختاره بوريس لنفسه أخيراً ، وكان : ١٢ محارة ، حساء بورش (حساء الشمندر الأحمر الحلو مع الكريم فوقه) ، روبيان ، فرخة بالقِدر ، لحم بقر مع البرقوق ، بطاطا صغيرة ، سلطة ، پُدنج ، وجبنة روكفور ، مع لتر بورغندي ، وبعض البراندي المعتق . إن لدى بوريس تذوقاً أممياً للأطعمة . فيما بعد ، حين صرنا موسرين ، رأيته يأكل وجبات ثقيلة مثل هذه بدون صعوبة .

عندما نفدت نقودنا توقفتُ عن طلب العمل ، وأمضيت يوماً آخر بلا أكل . لم أصدق أن أوبرج جيان كوتار سوف يفتح بالفعل ، ولم يكن لديّ

مشروع آخر ، غير أني من كسلي أكتفي بالبقاء في الفراش . ثم تبدّل الحظّ فجأةً . حوال الساعة العاشرة ، ليلاً ، سمعت صيحة متلهفة من الشارع . نهضت وذهبت إلى النافذة . كان بوريس هناك ، يهز عصاه مبتهجاً . قبل أن يتكلم أخرج رغيفاً ملوياً من جيبه وقذف به إلى أعلى ، نحوي .

« يا صديقي ، يا صديقي العزيز ، لقد أُنقذنا! ماذا تظن ؟ » .

« أكيدٌ ، أنك لم تحصل على عمل! » .

« في فندق س ، قرب ساحة الكونكورد ـ خمسمائة فرنك شهرياً ، مع الطعام . كنت أشتغل اليوم هناك . باسم يسوع المسيح ، كم أكلتُ! » .

بعد عشر ساعات ، أو اثنتي عشرة ساعة من العمل ، وبساقه العرجاء ، كانت فكرته الأولى أن يمشي ثلاثة كيلو مترات إلى نُزلي ، ويفضي لي بالأنباء السعيدة! والأكثر من ذلك ، أنه أخبرني أن ألقاه في التويلري غداً خلال راحته بعد الظهر ، فربما استطاع أن يسرق لي شيئاً من طعام . في الوقت المحدد التقيت بوريس على المصطبة العمومية . حلَّ صُدْرته وأخرج رزمة ورق جرائد كبيرة منسحقة ، وكان فيها لحم عجل مثروم ، وقطعة من جبنة الكاموبير ، وخبز ، وإصبع حلوى ، كلها مخلوط ببعضه .

قال بوريس : « هكذا! هذا كل ما استطعت تهريبه إليك . إن البوّاب خنزيرٌ خبيث » .

من غير المقبول أن يأكل المرء من جريدة على مقعد عمومي ، وبخاصة في التويلري ، حيث يعجّ المكان بالفتيات الجميلات ، لكني من شدة جوعي لم أكن لأهتمّ . وبينما أنا آكلُ ، شرح لي بوريس أنه يعمل في كافتيريا الفندق . وقد ظهر أن الكافتيريا هي أدنى وظيفة في الفندق ، والتردي الفظيع لنادلٍ ، لكنها مفيدة حتى يفتح أوبرج جيان كوتار . خلال ذلك الوقت كان عليَ أن ألتقي بوريس يومياً في التويلري ، ليهرِّب إليَ ما يستطيعه من طعام . لثلاثة أيام استمررنا في هذا الترتيب ، وعشت بالكامل على الطعام المسروق . ثم انتهت المتاعب كلها ، إذ ترك أحد غاسلي الصحون فندق س ، وأُعطيتُ العمل بتوصية من بوريس .

10

كان فندق س مبنىً واسعاً ، فخماً ، ذا واجهة كلاسيكية . وفي أحد جوانبه مدخلٌ مظلم صغير مثل جحر فأر ، هو لدخول العاملين .

وصلت في السابعة إلا الربع صباحاً . كان سيلٌ من الرجال ذوي البنطلونات المزيّتة يسرعون في الدخول ، ويتولى ضبطهم بوّابٌ جلس في مكتب صغير . انتظرت إلى أن جاء رئيس العاملين وهو من نمط نائب مدير ، وشرع يستجوبني . كان إيطالياً ، ذا وجه مستدير شاحب ، مرهق من كثرة العمل . استفسر مني عما إذا كنت غاسل صحون محترفاً ، أجبت بنعم ، فنظر إلى يديّ ووجد أني أكذب ، لكن ما أن عرف أني إنجليزي حتى غيّر نغمته وشغّلني .

قال : «كنا نبحث عمّن نطبّق إنجليزيتنا عليه . زبائننا أميركيون كلهم ، وكل ما نعرفه من اللغة الإنجليزية هو ـــــ» ثم ذكر شيئاً يكتبه الصبيان على جدران لندن . «قد تكون مفيداً ، تعال إلى تحت» . هبط بي في سلّم حلزوني إلى ممر ضيّق ، عميقاً تحت الأرض ، وكان الممر ذا سقف خفيضٍ حتى تعيّن عليّ أحياناً أن أنحني . كان الممر ساخناً حدَّ الاختناق ، ومعتماً لا تضيئه إلا مصابيح صفر متباعدة عن بعضها بعدة ياردات . وبدا لي أن ثمت أميالاً من متاهة ممرات معتمة ـ وهي بالفعل بضع مئات من الياردات كما أعتقد ـ تُذكِّر بالطوابق السفلى لسفينة ركّاب . هناك الحرارة نفسها ،

والاكتظاظ ذاته ، والرائحة الدافئة للطعام ، والضجة (آتية من أفران المطبخ) تشبه ضجيج المكائن . اجتزنا ممراتٍ تطلق أحياناً شتائم ، وأحياناً توقُّداً أحمر للنار ، أحياناً القعقعة المرتجفة من غرفة الثلج . وبينما نحن سائران ضربني شيءٌ على ظهري بعنف . كان قالب ثلج زنة مائة رطل يرفعه حمّال ذو صدرية زرقاء . وبعده جاء صبيّ يحمل قطعة ضخمة من لحم العجل على كتفه ، وخده مضغوط على اللحم الطري الإسفنجي . دفعاني جانباً بصيحة «تَنحَّ ، يا أبله! » وتقدّما مسرعين . على الجدار ، وتحت أحد الأضواء ، كتب بعضهم بخطٍ أنيق جداً : «سرعان ما ستعرف أن رؤية سماء بلا غيوم في الشتاء هي أسهل من رؤية امرأةٍ في فندق س محتفظة ببكارتها » . يبدو أنه مكان عجيب . أحد الممرات يتفرع إلى محل غسيل ملابس ، حيث قدّمت لي امرأةٌ ذات وجه كالجمجمة مئزراً أزرق ، وكومة من قماش مسح الصحون . ثم أخذني رئيس العاملين إلى زنزانة صغيرة ، قبوٍ أسفل قبو ، كما هي بالفعل ـ حيث كان هناك مغطسٌ وعددٌ من مواقد الغاز . كان المكان جد منخفض بحيث لا أستطيع الوقوف منتصب القامة ، أما درجة الحرارة فربما كانت ١١٠ فهرنهايت . شرح لي رئيس العاملين طبيعة شغلي ، إذ عليّ أن أنقل وجبات الطعام إلى كبار المستخدمين في الفندق الذين يأكلون في غرفة طعام صغيرة ، في الأعلى ، وأن أنظف غرفتهم ، وأغسل صحونهم . وعندما ذهب ، مدّ النادل ، وهو إيطالي أيضاً ، رأساً أزغب ، إلى الممر ، ونظر إليّ باحتقار . قال : «إنجليزي ، إيه ؟ حسناً ، أنا المسؤول هنا . إن اشتغلتَ جيداً ـ قام بحركة فتح قنينة ومصّ بصوت مرتفع ـ وإلاّ ـ رفس قائمة الباب عدة رفسات شديدة ـ فإن قصف عنقك سيكون أهون من بصقة على الأرض . وإن حدثت مشكلة ، فإنهم سيصدقونني أنا ، لا أنت . لذا كن حذراً » .

بعد هذا ، بدأت العمل بسرعة . باستثناء حوالي الساعة ، كنت أعمل من الساعة السابعة صباحاً ، حتى التاسعة والربع مساءً ، أولاً في غسل الأواني ، ثم في تنظيف موائد وأرضية غرفة الطعام حيث يأكل

المستخدمون ، ثم في تلميع الكؤوس والسكاكين ، وبعدها في إحضار الوجبات ، فغسل الأواني ثانيةً ، فإحضار وجبات أخرى وتنظيف أوانٍ أخرى . كان عملاً سهلاً انسجمت معه باستثناء ذهابي إلى المطبخ كي آخذ الوجبات . لم يكن المطبخ يشبه أي شيء رأيته أو تخيلته ـ كان قبواً خانقاً ، خفيض السقف ، جحيماً تضيئه النيران بضوء أحمر ، وضجّته تصمّ الآذان سباباً وقعقعة قدور ومقلايات . كان ساخناً جداً حتى أن كلَّ ما هو معدنٌ يغطى بالقماش ، عدا المواقد . في الوسط كانت الأفران حيث يروح ويجيء إثنا عشر طاهياً تقطر وجوههم عرقاً بالرغم من قلانسهم البيض . حول الأفران تمتد طاولات يتكأكأ عليها بصوانيهم حشدٌ من النادلين وغاسلي الأطباق . مساعدو طهاة ، عراة حتى خصورهم يغذّون النيران أو ينظفون مقلايات نحاس ضخمة بالرمل .

كأن كل شخص في حمّى سرعة وغضب . رئيس الطهاة ، وهو شخص لطيف ، قرمزي الوجه ، ذو شاربين ، واقفٌ في الوسط ، يعلن باستمرار : ماشي... بيضتان مخفوقتان! ماشي... شاتوبريان واحد مع بطاطا محمّرة ـ ولا يتوقف إلا حين يشتم أحد غاسلي الصحون . كانت هناك ثلاث طاولات طويلة ، وعندما دخلت المطبخ للمرة الأولى أخذت صينيتي إلى الطاولة الخطأ . جاء إليّ رئيس الطهاة ، وفتل شاربيه ، ونظر إليّ من رأسي إلى قدميّ . ثم استدعى طاهي الفطور وأشار إليّ .

«أترى ذاك ؟ ذاك هو نمط غاسلي الصحون الذين يرسلونهم إلينا هذه الأيام . من أين أتيتَ ، يا أبله ؟ من شارنتون ، كما أظن ؟» (كان في شارنتون مستشفى مجانين كبير) .

قلت : «من إنجلترا» .

«ربما عرفت الأمر . يا سيدي العزيز الإنجليزي ، حسناً... هل لي أن أخبرك بأنك ابن قحبة ؟ والآن ، انقلعْ إلى الطاولة الأخرى ، حيث ترجع» .

لقيت هذا النوع من الاستقبال كلما ذهبت إلى المطبخ ، إذ أني أقع

دائماً في غلطةٍ ما ، كانوا يتوقعون أنني أعرف الشغل ، ولهذا يشتمونني . ولمجرد الفضول عددت المرّات التي دعوني فيها ، طرخور* ، خلال اليوم ، فكانت تسعاً وثلاثين مرة .

في الساعة الرابعة والنصف أخبرني الإيطالي أنني أستطيع التوقف عن العمل . إلا أن فترة التوقف هذه لا تحتمل الخروج ، إذ أننا سنعود إلى العمل في الخامسة .

ذهبت إلى المرحاض لأدخن ، ذلك لأن التدخين ممنوعٌ منعاً باتاً ، وقد نبهني بوريس إلى أن المرحاض هو المكان الآمن الوحيد . بعد ذلك ، اشتغلت ثانيةً ، حتى التاسعة والربع ، حين أخرج النادل رأسه إلى الممر وأخبرني أن أترك بقية الأواني . ولدهشتي أنه صار على نحو مفاجئ ، ودوداً ، بعد أن كان دعاني خنزيراً وطرخوراً ، وأدركت أن شتائمه كانت نوعاً من الاختبار فقط .

قال النادل : «هذا يكفي ، يا صغيري ، أنت لست شاطراً ، لكنك تشتغل جيداً ، تعال وخذ عشاءك . الفندق يسمح لكل منا بليترين من النبيذ ، وقد سرقتُ ثالثاً . تعال نسكر سكرة لطيفة .

تعشينا عشاءً فاخراً من بقايا كبار المستخدمين . النادل الذي صار رائق المزاج حدّثني عن مغامراته الغرامية ، وعن رجلين في إيطاليا كان طعنهما ، وعن هربه من الخدمة العسكرية . كان شخصاً طيباً إن عرفتَه ، ويذكّرني شيئاً ما ببنفنيتو تشليني . كنت متعباً غارقاً في العرق ، لكني أحسست بأني إنسانٌ جديد بعد يوم من الطعام الفعلي . لم يَبدُ العملُ صعباً ، وشعرت بأن هذا العمل يناسبني . ولم يكن من المؤكد أنه سيستمرّ لأنهم شغّلوني إضافياً ، وباليوم ، بخمسة وعشرين فرنكاً . البواب ذو الوجه النكد عدّ النقود ناقصةً خمسين سنتيماً ، للتأمين ، كما قال (تبيّن فيما بعد

---

* نوع من السمك الشائك . (المترجم)

أنها كذبة) . ثم خطا خارج مكتبه إلى الممر ، وجعلني أنزع سترتي ، وفتشني تفتيشاً دقيقاً ، باحثاً عن طعام مسروق . ظهر رئيس المستخدمين ، من بعد ، وكان غدا ، مثل النادل ، لطيفاً ، ومسروراً لأني كنت أريد العمل . قال : «سوف نعطيك عملاً ثابتاً إن أردتَ . يقول رئيس الطهاة إنه سوف يستمتع بشتم شخصٍ إنجليزي . هل توقِّع على شهر ؟» .

ها هو ذا العمل أخيراً ، وكنت مستعداً للوثوب عليه . ثم تذكرت المطعم الروسي المزمع فتحه في أسبوعين . وبدا لي أن من غير الصواب أن أعد بالعمل شهراً ، ثم أترك في المنتصف . قلت إن عملاً آخر ينتظرني ـ أبالإمكان استخدامي لمدة أسبوعين ؟ لكن رئيس المستخدمين هزّ كتفيه وقال إن الفندق لا يشغِّل الناس إلا على أساسٍ شهريّ . واضحٌ أني فقدتُ فرصة عملي .

حسب الاتفاق ، كان بوريس ينتظرني عند رواق شارع ريفولي ، حين أخبرته بما جرى . احتدّ غاضباً ، وللمرة الأولى منذ تعارفنا نسيَ أصوله ودعاني أحمق .

«أبله! أبله البُلهاء ، ما فائدة إيجادي عملاً لك وأنت تتخلى عنه في اللحظة التالية ؟ كيف استطعتَ أن تكون أحمق إلى حد أن تذكر المطعم الآخر ؟ كان عليك أن تعد بالعمل شهراً» .

رددتُ : «بدا لي أن أصدقهم القول بأني سأترك» .

«صادق! صادق! هل سمع أحدٌ بغاسل صحونٍ صادق ؟ يا صديقي ـ أمسك فجأةً بياقتي وتكلم بإخلاص ـ يا صديقي ، لقد عرفت ما عمل الفنادق . أتظن أن لدى غاسل الصحون ترف الإحساس بالشرف ؟» .

«لا . ربما لا» .

«حسناً ، إذاً ، عد سريعاً ، وأخبر رئيس المستخدمين أنك مستعد للعمل شهراً . قل إنك سوف ترفض العمل الآخر . وحين يفتح مطعمنا يمكن أن نترك» .

«لكن ، ماذا عن أجوري ، لو خرقت عقد العمل ؟» .

دقّ بوريس بعصاه على الرصيف ، ذارفاً الدموع على مثل هذا الغباء «أطلب دفع أجورك ، باليوم ، فلا تخسر سنتيماً . أتظن أنهم سيحاكمون غاسل صحون لو أخلّ بعقد ؟ إن غاسل الصحون أحطُّ من أن يحاكَم» .

أسرعتُ عائداً ، وأخبرت رئيس المستخدمين بأني سوف أعمل شهراً ، ووقّعت العقد .

كان هذا درسي الأول في أخلاقيات غاسل الصحون . وأدركت فيما بعد كم كنتُ أحمق في دقّتي ، ذلك لأن الفنادق الكبيرة تعامل مستخدميها بلا رحمة . إنهم يشغلونهم ويصرفونهم حسب ما يقتضي الشغل ، وكل هذه الفنادق تطرد عشرة بالمائة أو أكثر من مستخدميها ، خارج الموسم . وليست لديهم صعوبة في إحلال شخص مكان شخص آخر يترك العمل بدون إشعار . ذلك لأن باريس ملأى بعمال الفنادق العاطلين .

11

تبيّن أني لم أُخلَّ بعقدي ، فها هي ذي ستة أسابيع تمرّ دون أن يبدي أوبرج جيان كوتار أي إشارة إلى أنه سوف يفتح . وفي هذا الوقت كنت أشتغل في فندق س ، أربعة أيام من الأسبوع في الكافتيريا ، ويوماً أساعد النادل في الطابق الرابع ، ويوماً أحلّ محل المرأة التي تتولى الغسيل لصالة الطعام . يوم عطلتي ، لحسن الحظ ، هو يوم الأحد ، لكن يحدث أحياناً أن يمرض شخص فيتعيّن عليّ أن أحلّ محله يوم الأحد أيضاً . كانت ساعات العمل من السابعة صباحاً حتى الثانية عصراً ، ومن الخامسة مساءً حتى الحادية عشرة ، لكن ساعات العمل تبلغ أربع عشرة ساعة حين أتولى غسيل صالة الطعام . هذه الساعات تعتبر قليلة بالقياس إلى المتعارف عليه من ساعات عمل غاسل صحون باريسيّ . مصاعب الحياة الوحيدة كانت في الحرارة الخانقة لهذه الأقبية المتاهات . في ما عدا هذا ، يعتبر الفندق ، وهو واسع وجيد التنظيم ، فندقاً مريحاً .

كانت كافتيريتنا قبواً معتماً ، مساحتها عشرون قدماً في سبعة ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وكانت مزدحمة جداً بجرار البُنّ ، وقطّاعات الخبز وما إلى ذلك حتى ليصعب على المرء أن يتحرك بدون أن يصطدم بشيء ما . كان يضيئها مصباح كهربائي شاحبٌ واحدٌ ، وأربع نيران غاز أو خمس تطلق أنفاساً حُمراً شديدة . كان في الكافتيريا محرار ، ودرجة الحرارة لا تنخفض

عن ١١٠ فهرنهايت ـ أحياناً قاربت الـ١٣٠ نهاراً . في طرف من المكان خمسة مصاعد خدمة ، وفي الطرف الآخر مخزن ثلج لحفظ الحليب والزبدة . وحين تذهب إلى مخزن الثلج تنخفض درجة الحرارة ، فجأةً ، مائة درجة . وكان الأمر يذكّرني بالأغنية التي تتحدث عن جبال جرينلاند الجليدية وساحل الهند المرجاني . رجلان يعملان في الكافتيريا إلى جانب بوريس وجانبي . أحدهما هو ماريو ، إيطاليّ ضخم مستشار ـ والثاني حيوان أشعر غير مهذب ندعوه المجري ، وأعتقد أنه ترانسلفانيّ أو من منبت أبعد . وما عدا المجري كنا جميعاً رجالاً ضخاماً ، وفي ساعات اشتداد العمل نصطدم ببعضنا دائماً .

كان العمل في الكافتيريا متشنجاً . نحن لا نتوقف ، لكن العمل الحقيقي يأتي فقط في فوراتٍ من ساعتين ـ ونحن نسمي كل فورة ، زخّة رصاص . زخّة الرصاص الأولى تأتي في الساعة الثامنة ، حين يبدأ النزلاء في الأعلى يستيقظون ويطلبون الفطور . في الساعة الثامنة ينطلق الدقّ والزعق في الدور الأسفل بأكمله ، الأجراس تدقّ من كل ناحية ، ورجالٌ ذوو صدريّات زرق يندفعون في الممرات ، ومصاعد خدمتنا تهبط في ارتطامات متزامنة ، والنادلون في الطوابق الخمسة كلها يبدأون يشتمون باللغة الإيطالية ويصيحون في مهاوي المصاعد . لا أتذكر كل طلباتنا ، لكنها تتضمن إعداد الشاي والقهوة والشوكولاتا ، إحضار وجبات من المطعم ، وخمورٍ من القبو ، وفاكهة وما إليها من صالة طعام ، وتقطيع الخبز ، وتحميصه ، وتدوير رقائق الزبدة ، وقياس المربّى ، وفتح علب الحليب ، وعدّ قطع السكّر ، وسلق البيض ، وطهي العصيدة ، وهرس الثلج ، وطحن البنّ ـ هذا كله ، لعدد يتراوح بين مائة نزيل ومائتين . يقع المطبخ على مبعدة ثلاثين ياردة ، وصالة الطعام على مبعدة ستين أو سبعين ياردة . وكل ما نرسله في مصاعد الخدمة يجب أن تعلوه قائمة ، والقوائم يجب أن تصنّف بعناية ، وتثور ضجة حتى لو فُقدت قطعة سكّر . وإلى ذلك ، علينا أن نزود

العاملين بالخبز والقهوة ، ونقل الوجبات إلى النادلين في الأعلى . إنه لعملٌ معقد على العموم .

وقد حسَبتُ أن على المرء أن يمشي أو يجري حوالي خمسة عشر ميلاً في اليوم ، لكن توتر العمل يظل عصبياً أكثر منه جسدياً . في الظاهر لا يبدو أن ثمت عملاً أيسر من العمل الغبي لمساعد الطاهي ، لكنه مرهقٌ جداً حين يكون في عجلة . على المرء أن يقفز أماماً ووراءً بين عدد من الأشغال ـ إنه مثل فرز علبة من ورق اللعب مع حركة ثواني الساعة . أنت مثلاً تحمّص الخبز ، وإذا بالدقّة تأتيك! يهبط مصعد الخدمة بطلب شاي ، وفطائر وثلاثة أنوع من المربّى ، وفي الوقت نفسه... دقّة! طلبٌ آخر ببيض مخفوق ، وقهوة ، وجريب فروت ، تركض إلى المطبخ للبيض ، وإلى صالة الطعام للفاكهة ، مندفعاً كالبرق كي تعود قبل أن يحترق خبزك المحمّص ، وعليك أن تتذكر أمر الشاي والقهوة ، بجانب ستة طلبات أخرى تنتظرك ، وفي الوقت نفسه هناك نادل يتبعك ويثير الدنيا بسبب قنينة صودا مفقودة ، وأنت تجادله . العمل يحتاج إلى ذهن أكثر مما هو متصوّر . ولا شك في صحة قول ماريو إنه تلزم سنة كاملة لإعداد عامل كافتيريا .

كان الوقت بين الثامنة والعاشرة والنصف نوعاً من الحمّى الهاذية . أحياناً كنا نبدو وكأنْ لم يتبقّ لدينا من الحياة سوى خمس دقائق . أحياناً تحدث توقفاتٌ مفاجئة حينَ تنقطع الطلبات ، فيبدو كل شيء ساكناً للحظةٍ . ثم نكنس زبالة الأرضية ، ونرشّ نشارة خشب جديدة ، ونشرب كمياتٍ من النبيذ أو القهوة أو الماء ـ أي شيء ، مادام رطباً . وغالباً ما نكسِّر قطع الثلج ونمتصها أثناء العمل . الحرارة من نيران الغاز مقيِّئة ، ونحن نعبّ المشروبات عبّاً خلال النهار ، وبعد بضع ساعات تكون حتى صدرياتنا مبتلة بالعرق . أحياناً لا نستطيع تلبية الطلبات كلها ، فيظل بعض النزلاء بلا فطور ، لكنّ ماريو كان يشدّ من أزرنا دائماً . فقد اشتغل أربع عشرة سنة في الكافتيريا ، ويتمتع بمهارة ألا يضيع ثانيةً واحدة بين الأعمال . المجري كان

في منتهى الغباء ، وأنا لستُ ذا خبرة ، وبوريس كان أميل إلى التهرب أولاً بسبب عرجه ، ثم لأنه كان يشعر بالعار من عمله في الكافتيريا بعد أن كان نادلاً . لكن ماريو كان رائعاً . الطريقة التي يمدّ بها ذراعيه الطويلتين ليملأ دلّة قهوة بيد ويسلق بيضة بالأخرى ، وفي الوقت نفسه يحمّص الخبز ويصيح بتوجيهات إلى المجري ، وبين الحين والآخر يغني مقاطع من ريجوليتو ـ كانت موضع ثناء ليس بعده ثناء . صاحب الفندق يعرف قيمته ، وكان يقبض ألف فرنك شهرياً ، بدلاً من الخمسمائة التي نقبضها نحن .

هرْجة الفطور تتوقف في العاشرة والنصف . آنذاك ننظف طاولات الكافتيريا ، ونكنس الأرضية ، ونلمع النحاسيات ، وفي الصباحات نذهب مرة واحدة إلى المرحاض لندخن . هذا كان وقت تراخينا ـ وإنه لتراخٍ نسبيّ على أي حال ، إذ خُصصت لنا عشر دقائق فقط للغداء ، ولم يحدث أنْ مررنا بها بلا تدخُّل . غداء الزبائن ، بين الثانية عشرة والثانية ، هو فترة غليان ثانية مثل ساعة الفطور . أغلب عملنا كان إحضار الوجبات من المطبخ ، وهذا يعني الشتائم المستمرة من جانب الطهاة . في هذا الوقت يكون الطهاة تصببوا عرقاً أمام أفرانهم ، وغدا مزاجهم مستحراً .

في الساعة الثانية نكون فجأةً أحراراً . نخلع صدرياتنا ونلبس سُتراتنا ، ونسرع خارجين ، وحين تكون لدينا نقود ، نندفع رأساً إلى أول مشرب . إنه لأمرٌ غريبٌ ، خروجنا من تلك الأقبية التي تضيئها النيران ، إلى الشارع . الهواء يبدو صافياً مبهراً وبارداً ، مثل صيفٍ قطبيّ ، وكم تبدو رائحة البترول عذبةً ، بعد عطن العرق والطعام! أحياناً نلتقي بعض طهاتنا ونادلينا في المشرب ، وكانوا ودودين ، يقدمون لنا المشروب . في الداخل كنا مثل العبيد ، لكن من آداب الحياة الفندقية أن الناس أكْفاء في فترات الراحة ، وأن الشتائم ليست في الحساب .

في الخامسة إلا الربع نعود إلى الفندق . حتى السادسة والنصف لن تكون طلبات . وكنا نستخدم هذا الوقت في تلميع الفضيات وتنظيف جِرار

البنّ ، وأعمالٍ أخرى متنوعة . ثم يبدأ الغليان العظيم ـ ساعة العشاء . أود لو كنت «زولا» فترة قصيرةً ، فقط لأصف ساعة العشاء تلك . جوهر الحال ، أن ثمت مائة أو مائتي شخص يطلبون وجبات فردية مختلفة من خمسة صحون أو ستة ، وأن هناك خمسين أو ستين شخصاً يقومون بالطهي والخدمة ، والتنظيف فيما بعد . إن أي شخص ذي معرفة بتزويد الطعام يعرف ماذا يعني ذلك . وفي هذا الوقت حين يتضاعف العمل ، يكون الفريق كله مرهقاً ، وعددٌ منه يكونون سكارى . بمقدوري أن أكتب صفحات عن المشهد بدون إعطاء فكرة حقيقية عنه . الإندفاعات ذهاباً وإياباً في الممرات الضيقة ، الإصطدامات ، الصيحات ، الصراع مع الصناديق والصواني وكتل الثلج ، الحرارة ، العتمة ، المشادّات الحانقة التي لا وقت لإكمالها ـ كل هذا يفوق الوصف . وكل من جاء إلى الدور الأسفل للمرة الأولى يظن نفسه في غرفة مجانين . فيما بعد ، حين فهمت عمل الفندق ، رأيت النظام في كل هذه الفوضى .

في الثامنة والنصف يتوقف العمل بغتةً . لن نكون أحراراً حتى التاسعة . لكننا اعتدنا أن نلقي بأنفسنا على الأرض ، ونتمدد هناك ، مريحين أرجلنا ، كسالى بحيث لا نستطيع حتى الذهاب إلى مخزن الثلج كي نشرب . أحياناً كان رئيس المستخدمين يأتي مع قناني بيرة ، ذلك لأن الفندق يقدم لنا بيرة إضافية حين يكون يوم عملنا شاقاً . أما الطعام الذي يقدم لنا فلم يكن أكثر من مقبول ، لكن صاحب الفندق لم يكن بخيلاً بالمشروب ، كان يسمح لكل واحد منا بليترين من النبيذ يومياً ، عارفاً أن غاسل الصحون إن لم يُعطَ الليترين فإنه سوف يسرق ثلاثة . من حقنا أيضاً بقايا الأشربة في القناني ، ولهذا نشرب كثيراً ـ وهو أمرٌ حسن ، ذلك لأن المرء يبدو أسرع عملاً إن كان ثملاً نوعاً ما .

تمر أربعة أيام من الأسبوع هكذا ، أما اليومان الباقيان ، فأحدهما يوم نعيم ، وثانيهما يوم بؤس . بعد أسبوع من العمل أحسّ بالحاجة إلى عطلة .

إنه مساء السبت ، ولهذا كان الناس في مشربنا مندفعين نحو السكر ، وكنت أندفع معهم ، فالغد يوم عطلة . نذهب جميعاً إلى النوم ، حوالي الساعة الثانية ، سكارى . ومعنى هذا أننا سنظل راقدين حتى الظهيرة . لكنني في الساعة الخامسة والنصف نُبهت من نومي فجأةً ، كان حارسٌ ليلي من الفندق يقف بجانب فراشي . سحب الأغطية وهزّني بعنف .

احتججتُ : «لماذا يجب أن أشتغل ؟ هذا يوم عطلتي» .

«يوم عطلة ، لا شيء! يجب أداء العمل . انهض!» .

نهضت وخرجت ، وبدا كما لو أن ظهري انكسر ، وأن جمجمتي ملأى بالجمر المتّقد . لم أفكر بأنني أستطيع أداء عمل يومٍ . لكنني ، بعد ساعةٍ في الطابق السفلي ، وجدتُني في حالة جيدة . ويبدو لي أن الشخص في هذه الأقبية الساخنة ، سوف يتخلص من كل كحولٍ في جسمه ، كأنه في حمّام تركيّ . غاسلو الصحون يعرفون هذا ، ويعتمدون عليه .

إن القدرة على عبِّ مقادير من النبيذ ، ثم تعرُّقها خارج أجسامهم قبل أن تفعل فعلها الضارّ ، هي من تعويضات حياتهم .

12

أفضل وقت لي في الفندق كان حين ذهبت أساعد النادل في الطابق الرابع . عملنا في حجرة صغيرة تتصل مع الكافتيريا بمصاعد الخدمة . كانت الحجرة باردة لطيفةً بعد الأقبية ، والعمل كان تلميع الفضيات والكؤوس بصورة رئيسة ، وهو عملٌ إنسانيّ . كان فالنتي النادل ، من النمط الجيد ، وكان يعاملني معاملة الندّ للندّ حين نكون وحدنا ، مع أن عليه أن يتكلم بخشونة في حضور أيّ كان ، إذ لم يكن ليليق بالنادل أن يكون ودياً مع غاسلي الصحون . وقد اعتاد أن يهبني ، أحياناً خمسة فرنكات ، أيام العمل الجيد . كان شاباً لامعاً ، في الرابعة والعشرين ، لكنه يبدو في الثامنة عشرة ، ومثل أغلب النادلين ، كان يعتني بمظهره ويتقن ارتداء ملبسه . كان بسترته الطويلة السوداء وربطته البيضاء ووجهه النضر وشعره البني السبط ، يشبه تماماً فتى من كلية إيتون ، إلا أنه خاض مغامرة العيش من عامه الثاني عشر ، وبدأ يرتقي سلّم الحياة ابتداءً من المجاري فعلاً . ومن تجاريبه أنه اجتاز الحدود الإيطالية بلا جواز سفر ، وباع الكستناء على عربة يدوية في شوارع الشمال ، وحُبس خمسين يوماً في لندن لأنه يعمل بدون إجازة ، وفعلت معه الحب عجوزٌ في فندقٍ ، أعطته خاتم ماس ثم اتهمته بسرقته . ألفتُ الاستمتاع بالحديث معه ، في فترات تراخي العمل ، ونحن ندخن عند مهوى المصعد .

أما يوم بؤسي ، فكان حين أتولى الغسل لصالة الطعام . لم أكن أغسل الصحون ، فهذا يتمّ في المطبخ ، لكنني مكلفٌ بالأواني الأخرى ، الفضيات ، الكؤوس ، وكذلك السكاكين . مع هذا ، فالأمر يعني ثلاث عشرة ساعة ، وكنت أستخدم ما بين ثلاثين إلى أربعين قطعة قماش مسحٍ خلال اليوم . الوسائل العتيقة المستخدمة في فرنسا تضاعف وقت الغسل . رفوف الأطباق غير مسموعٍ بها ، وليس ثمت صابون مبروش ، الصابون الناعم فقط الذي لا يرغو في ماء باريس القاسي . أعملُ في جُحرٍ مزدحم صغير ، هو للخزن والتنظيف في آن ، متصل مباشرة بصالة الطعام . إلى جانب الغسل ، عليّ أن آتي بطعام النادلين ، وأن أخدمهم على المائدة ، وكان أغلبهم سفلةً بصورةٍ لا تحتمل ، وتعيّنَ عليّ أن أستخدم قبضتي أكثر من مرة للحصول على قدر من التهذيب . الشخص الذي يقوم عادةً بالغسل كان امرأة ، وقد حوّلوا حياتها إلى جحيم .

كان من الممتع التفرج على الجحر القذر والتفكير بأن باباً مزدوجاً فقط هو الفاصل بيننا وبين صالة الطعام . ثمت يجلس الزبائن بكل بهائهم ـ مفارش مائدة ناصعة البياض ، مزهريات ، مرايا ، وأفاريز مذهبة ، وصور ملائكة . بينما هنا ، على مبعدة أقدام فقط ، نقبع نحن في الوسخ المقرف . وكان وسخاً مقرفاً حقاً . لم يكن لدينا وقت لمسح الأرضية إلا في المساء ، وكنا نتحرك في بقعة من الماء المصوبن وأوراق الخسّ والورق الممزق والطعام المداس . إثنا عشر نادلاً خالعين ستراتهم ، مبدين آباطهم المتعرقة ، يجلسون إلى طاولة وهم يقطعون السلطة ويمدّون أصابعهم في أواني الكُريم .

كان في الغرفة مزيجٌ من رائحة الطعام والعرق . في كل مكان ، في الخِزانات ، وخلف أكداس الأواني ، مذخرٌ من الطعام الذي سرقه النادلون . كان هناك مغطسان فقط ، ولا حوض غسيل ، ولم يكن غريباً أن يغسل نادلٌ وجهه في الماء المستعمل لشطف الأواني . لكن الزبائن لا يرون شيئاً

من هذا .

خارج صالة الطعام كان حصير من السعف ، ومرآة ، حيث يعدّل النادلون من هيآتهم ، ليدخلوا الصالة صورةً للنظافة .

إنه لمشهد ذو دلالة أن ترى نادلاً يدخل في صالة طعام فندق . ما أن يجتاز الباب حتى يعتريه تغيّرٌ مفاجئ . يستقيم وضع كتفيه ، وكل الوسخ والتعجل والإنزعاج انزاح في لحظة . إنه ينزلق على السجادة في جو وقور مثل قسيس . أتذكر مساعد رئيس النادلين ، وهو إيطاليّ ناريّ الطبع ، واقفاً بباب صالة الطعام ، يخاطب متدرباً كسر زجاجة نبيذ . كان يهزّ قبضته على رأسه ويصرخ (كان الباب لحسن الحظ مانعاً للصوت) :

«أتظن نفسك نادلاً ، أيها النغل الفتيّ ؟ أأنت نادل ؟ أنت لا تستحق أن تغسل أرضية الماخور الذي جاءت أمك منه ، يا طرخور!» .

خانته الكلمات ، فاستدار إلى الباب ، وحين فتحها أطلق إهانةً أخيرة في مثل طريقة سكواير ويسترن في توم جونز .

ثم دخل الصالة ، وانزلق عبرها ، والصحن في يده ، مثل بجعة . وبعد عشر ثوانٍ كان ينحني بتوقير أمام زبون . وأنت لا تستطيع إلا أن تفكر ، وأنت تراه ينحني ويبتسم ، تلك الابتسامة الغامضة للنادل المدرَّب ، بأن الزبون سوف يخجل لأن أرستقراطياً مثل هذا ، يخدمه .

إن الغسل عملٌ بغيض ـ ليس شديداً لكنه مضجرٌ وغبيّ . ومن الرهيب التفكير بأن أناساً أمضوا عقوداً من حياتهم في مثل هذه الأعمال .

المرأة التي حللتُ بدلاً منها ، كانت في الستين من عمرها ، وقد وقفت عند المغطس ثلاث عشرة ساعة يومياً ، لستة أيام في الأسبوع ، وطوال العام . وعلاوةً على ذلك كانت تتعرض لمضايقة النادلين الشنيعة . قالت مرةً إنها كانت فنانة يوماً ما ـ وأظنها كانت عاهرةً ـ فمعظم العاهرات ينتهين خادمات . وكان غريباً أن أراها وهي في هذه السن من حياتها تلبس شعراً مستعاراً أشقر زاهياً ، وتكحل عينيها ، وتصبغ وجهها مثل فتاة في العشرين .

واضحٌ أنه حتى الساعات الثماني والسبعون أسبوعياً ، يمكن أن تترك للمرء شيئاً من حيوية .

13

في ثالث يوم لي بالفندق ، استدعاني رئيس المستخدمين ، الذي ألِفَ مخاطبتي بلهجة لطيفة ، ثم قال لي بحدة :

«اسمع ، أنت ، احلقْ تلك الشوارب حالاً! يا إلهي ، مَن سمع بغاسل صحونٍ له شوارب ؟» .

بدأت أحتجَ ، لكنه قاطعني قائلاً : «غاسل صحون له شوارب ـ هراء! إياك أن تأتي غداً وأراك بهذه الشوارب!» .

في عودتنا إلى المسكن ، سألت بوريس عن معنى هذا . هزّ كتفيه : «عليك أن تفعل ما أمرك به ، يا إلهي . لا أحد في الفندق يحتفظ بشواربه إلا الطهاة . كنتُ ظننت أنك لحظتَ الأمر . السبب ؟ لا سبب . إنها العادة» .

رأيت أنها أصولٌ متّبعة ، مثل عدم ارتداء رباط عنق أبيض مع سترة العشاء . وهكذا حلقت شواربي . فيما بعد وجدتُ شرحاً ، وهو أن النادلين في الفنادق الجيدة هم بدون شوارب ، ومن أجل أن يُظهروا أنهم أعلى منزلةً قرروا أن غاسلي الصحون يجب أن يكونوا بلا شوارب أيضاً . أما الطهاة فيحتفظون بشواربهم إظهاراً لاحتقارهم النادلين .

إن هذا يقدم فكرة عن النظام الفئوي الواضح في الفندق . إن مستخدمينا الذين يَرْبون على المائة تتدرج منزلتهم بصورة دقيقة ، مثل

الجنود تماماً . والطباخ أو النادل هما أعلى رتبةً من غاسل الصحون مثلما النقيب أعلى رتبةً من المجند . المدير هو فوق الجميع ، وبمقدوره أن يطرد أي شخص من العمل ، حتى الطهاة . لم نر صاحب الفندق ، البتة . وكل ما نعرفه عنه هو أن وجباته ينبغي أن تنال عنايةً أكثر من وجبات الزبائن . كل الانضباط في الفندق معتمد على المدير . كان شخصاً شديد الانتباه ، يراقب بدقةٍ أي تراخٍ في العمل ، لكننا كنا أشطر منه . في الفندق منظومة أجراس خدمةٍ ، والمستخدمون جميعاً يستعملون هذه الأجراس للإشارة بينهم . رنة جرس طويلة ، تتلوها قصيرة ، متبوعة بطويلتين ، تعني أن المدير قادم . وعندما نسمعها نهتمّ بأن نبدو مشغولين عملاً .

بعد المدير ، يأتي رئيس النادلين . وهو لا يخدم مائدةً ، إلا إذا كان الزبون لورداً ، أو من يماثله ، إلا أنه يوجه النادلين الآخرين ، ويساعد في تزويد الطعام . هِباته ، ونصيبه من شركات الشمبانيا (فرنكان لكل فلّينة يعيدها إلى الشركات) تصل إلى مائتي فرنك في اليوم . إنه في منصب منفصل تماماً عن سائر المستخدمين ، وهو يتناول وجباته في غرفة خاصة ، مع أطباق فضة على المائدة ، ويتولى خدمته متدربان يرتديان سترتين بيضاوين .

وأدنى قليلاً من رئيس النادلين ، يأتي رئيس الطهاة ، وهو يقبض خمسة آلاف فرنك في الشهر ، ويتناول وجباته في المطبخ ، لكن على مائدة خاصة ، ويخدمه طاهٍ متمرن . ثم يجيء رئيس المستخدمين ، الذي يقبض ألفاً وخمسمائة فرنك شهرياً فقط ، لكنه يرتدي سترة سوداء ، ولا يقوم بعمل عضليّ ، وبمقدوره طرد غاسلي الصحون ، وتغريم النادلين .

ثم يأتي الطهاة الآخرون ، ويتراوح مرتَّبهم بين ثلاثة آلاف فرنك وسبعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، وبعدهم النادلون الذين يتقاضون حوالي سبعين فرنكاً يومياً من الهِبات ، إلى جانب أجرٍ قليل مدَّخر ، ثم تأتي الغسّالات والخيّاطات ، فالنادلون المتدربون الذين لا يتسلمون هبات لكنهم

يتقاضون سبعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، فغاسلو الصحون ويتقاضون سبعمائة وخمسين فرنكاً أيضاً ، ثم خادمات الغرف بخمسمائة فرنك أو ستمائة شهرياً . أخيراً ، عمّال الكافتيريا ذوو الخمسمائة فرنك شهرياً . نحن الذين في الكافتيريا ، حثالة الفندق ، الذين يحتقرهم ويهزأ بهم الجميع .

وهناك آخرون متنوعو الأشغال ـ مستخدمو المكتب الذي يُدعَون سُعاةً ، ومدير المخزن ، ومسؤول القبو ، والحمّالون ، والغلمان ، والمكلف بالثلج ، والخبازون ، والحارس الليلي ، والبوّاب . أشغال مختلفة تؤديها أعراقٌ مختلفة .

مستخدمو المكتب والطهاة والخيّاطات ـ فرنسيون . النادلون ـ إيطاليون وألمان (لا تكاد ترى في باريس نادلاً فرنسياً) . غاسلو الصحون ـ من كل جنسية أوروبية مع العرب والزنوج . اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة ، حتى الإيطاليون يتكلمون بها بينهم .

الأقسام كلها لها مستلزماتها الخاصة . اعتادت فنادق باريس أن تبيع بقايا الخبز إلى الخبّازين بثمانية فلوس للرطل ، وفُتات المطبخ إلى الذين يربّون الحمام بسعر تافه ، ويوزع العائد على غاسلي الصحون . هنالك أيضاً كثير من الاختلاس . النادلون جميعاً يسرقون الطعام ـ والواقع أنني لم أرَ إلا نادراً ، نادلاً يأكل الطعام الذي خصصه له الفندق ـ والطهاة يفعلون ذلك على نطاق أوسع في المطبخ ، ونحن الذين في الكافتيريا نعبّ الشاي والقهوة عبّاً . ومسؤول القبو يسرق البراندي . تمنع أنظمة الفندق ، النادلين ، من الاحتفاظ بمخزونٍ من المشروبات الكحولية ، وإنما عليهم أن يراجعوا مسؤول القبو في كل طلبٍ للشراب . وعندما يصبّ مسؤول القبو ، المشروب ، يضع جانباً مقدار ملعقة شاي من كل كأس ، فتتجمع لديه كمياتٌ بهذه الطريقة . ولسوف يبيع لك البراندي المسروق بخمسة فلوس للشربة الواحدة ، إن وثق بك .

ثمت سُرّاقٌ بين العاملين ، ومن المعتاد أن نقودك سوف تُسرق لو تركتها في جيوبك . البوّاب الذي يدفع أجورنا ويفتشنا بحثاً عن الطعام المسروق ، هو اللص الأعظم في الفندق .

من خمسمائة فرنك شهرياً ، استطاع هذا الرجل أن يغشني بمائة وأربعة عشر فرنكاً خلال ستة أسابيع . كنت طلبت أن أتسلّم أجوري باليوم ، ولهذا كان يدفع لي البواب ستة عشر فرنكاً كل مساء ، ولأنه لا يدفع لي يوم الأحد (الأجر مصروفٌ طبعاً) استطاع أن يضع في جيبه أربعة وستين فرنكاً . كما أنني أعمل أحياناً في يوم الأحد ، مما يؤهلني أن أتسلم خمسة وعشرين فرنكاً إضافية ، لكني لم أعرف بهذا إلا فيما بعد . البواب لم يدفع لي هذا قطّ ، وهكذا استولى مني على خمسة وسبعين فرنكاً أخرى .

لم أعرف أنني كنت أُخدَع إلا في الأسبوع الأخير . وأعيدَ لي خمسة وعشرون فرنكاً فقط لأني لم أستطع إثبات دعواي . البوّاب يقوم بخدع مماثلة مع أي شخص أحمق بما يكفي للوقوع في الخدعة . كان يقول إنه يونانيّ ، لكنه في الواقع كان أرمنياً . وبعد أن عرفته أدركت قوة المثل القائل « صدِّق حيّةً قبل يهوديّ ، ويهودياً قبل يونانيّ ، لكنْ لا تصدِّق أرمنياً » .

كان بين النادلين شخصيات غريبة . كان أحدهم سيداً مهذباً ـ شاباً درس في الجامعة ، وعمل في مكتب تجاري بمرتّب جيد . أصيب بمرض تناسلي فقد إثره العمل ، فانجرف في مجرى الحياة ضائعاً ، وهو الآن يعتبر نفسه محظوظاً لأنه نادل .

كثير من النادلين تسللوا إلى فرنسا بلا جوازات سفر ، وكان واحدٌ أو اثنان منهم جواسيس ـ وهي مهنة شائعة للجاسوس . في أحد الأيام ثارت مشادّة مخيفة في غرفة طعام النادلين بين موراندي وهو شخص يبدو خطيراً ، ذو عينين متباعدتين ، وبين إيطاليّ آخر . ظهر أن موراندي أخذ عشيقة الرجل الآخر . والرجل الآخر ، وهو ضعيف البنية ، ويبدو خائفاً من موراندي ، كان يهدده تهديداً غامضاً .

صرخ به موراندي : «حسناً ، ماذا ستفعل ؟ لقد نمت مع فتاتك ، نمت معها ثلاث مرات . وكان الأمر ممتعاً . ماذا بمقدورك أن تفعل ، إيه ؟» .

«أستطيع أن أشي بك عند الشرطة السرية . أنت جاسوس إيطالي» .

لم ينكر موراندي هذا . كل ما فعله أنه أخرج موسى من جيبه وضرب ضربتين سريعتين في الهواء كأنه يشرط خدَّي الرجل مفتوحين . بينما تراجع النادل الثاني .

أعجب من رأيت في الفندق كان «إضافياً» ، استُخدم بخمسة وعشرين فرنكاً في اليوم ، ليحلّ محل المجري الذي كان مريضاً . هذا «الإضافيّ» صربيّ ، متين البنية ، يبلغ الخامسة والعشرين ، ويتحدث بست لغات ، بينها اللغة الإنجليزية . وبدا أنه يعرف كل شيء عن عمل الفنادق ، واشتغل حتى الظهر مثل أحد الأرقّاء . وما أن دقت الساعة الثانية عشرة حتى تجهّم وجهه ، وامتنع عن عمله ، وسرق نبيذاً ، وتوّج هذا كله بإشعال غليونه ، والتجول في كل مكان ، والغليون في فمه . التدخين ممنوع بالطبع ، تحت طائلة العقوبة . المدير نفسه سمع بالخبر ونزل ليستجوب الصربيّ متميّزاً غيظاً .

صرخ به : «بحق الشيطان ، ماذا تعني بتدخينك هنا ؟» .

أجاب الصربي هادئاً : «بحق الشيطان ، ماذا تعني بوجهٍ كهذا ؟» .

أنا عاجز عن نقل مدى الكفر في ملحوظة كهذه . إن رئيس الطهاة ، لو قال له غاسل صحون ، قولاً كهذا ، لدلق على وجهه قِدراً من الحساء الساخن . قال المدير على الفور : «أنت مطرود!» . وفي الساعة الثانية ، أعطي الصربيّ خمسة وعشرين فرنكاً وصُرف من العمل . وقبل أن يغادر سأله بوريس باللغة الروسية عن اللعبة التي كان يلعبها . قال إن الصربيّ أجاب : «انتبه ، يا عجوزي ، عليهم أن يدفعوا لي أجرة يوم إذا اشتغلت حتى منتصف النهار ، ألم يدفعوا ؟ ها هو ذا القانون . إذاً ، ما معنى أن أشتغل بعد أن حصلت على أجرتي ؟ لهذا ، أُخبرك بما أفعل . أذهبُ إلى

فندق وأجد عملاً باعتباري إضافياً ، وأشتغل بجدٍ حتى منتصف النهار . وحالما تدق الساعة الثانية عشرة ، أبدأ أثير الجحيم ، حتى يطردوني . مليح ، إيه ؟ معظم الأيام يتم طردي في الثانية عشرة والنصف ، اليوم ، تمّ طردي في الساعة الثانية ، لكني لا أهتم . لقد وفّرت أربع ساعات عمل . المشكلة الوحيدة أن المرء لا يستطيع أن يفعل هذا في الفندق نفسه مرتين » .

وظهر أنه أدّى هذه اللعبة في نصف عدد فنادق باريس ومطاعمها . قد تكون اللعبة سهلة جداً في الصيف ، مع أن الفنادق تحمي نفسها ضد هذه اللعبة ، قدر المستطاع ، بوساطة قائمة سوداء .

14

في بضعة أيام عرفت المبادئ الرئيسة التي يتم بموجبها تسيير شؤون الفندق . إن القادم لأول مرة إلى أقسام الخدمة في فندق ، سوف يدهش للضجة المخيفة والفوضى خلال ساعات اشتداد وتيرة العمل . وهو أمرٌ مختلفٌ تماماً عن العمل المنتظم في مخزن أو معمل ، مما يبدو للوهلة الأولى سوءَ إدارة . لكن هذا شيء لا يمكن تجنُّبه ، ولهذا السبب .

إن العمل الفندقي ليس شاقاً ، لكنه بطبيعته يأتي في اندفاعات ولا يمكن تقنينه . أنت مثلاً لا يمكن لك أن تشوي شريحة لحم قبل ساعتين من طلبها . عليك الانتظار حتى اللحظة الأخيرة ، حين تكون أعمال كثيرة أخرى تراكمت ، فتؤديها ، كلها ، في وقت واحد ، وبسرعة جنونية . والنتيجة أن الشخص في موعد الوجبة يؤدي عمل شخصين ، وهذا غير ممكن إلا مع الضجة والعراك . والحقّ أن العراك جزء ضروري من العملية ، إذ أن الوتيرة لا يمكن أن تظل عالية إلا إذا اتهم كلُ واحدٍ ، غيرَه ، بالتكاسل . ولهذا السبب ، خلال اشتداد العمل ، يكون العاملون كلهم غاضبين شاتمين كالشياطين . وفي تلك الأوقات لا يكاد يستعمل في الفندق إلا الفعل : فَعَلَ . فتاة في السادسة عشرة ، تعمل في المخبز ، تطلق شتائم تُخجل سائق عربة . (ألم يقل هاملت «يشتم مثل مساعد طاهٍ» ؟ . لا شك في أن شكسبير راقب مساعدي الطهاة يعملون) . لكننا لم نكن لنفقد صوابنا أو

نضيع وقتنا ، كنا نحثّ بعضنا ، حسبُ ، لبذل جهدٍ يركّزُ الساعات الأربع في اثنتين .

إن ما يجعل عمل فندقٍ ما مستمراً ، هو أن المستخدمين يشعرون باعتزاز أصيل بعملهم ، مع أنه حيوانيّ وغبيّ . ما أن يتكاسل رجلٌ حتى يعرف الآخرون بتكاسله ، فيتآمرون ضده كي يُطرد . الطهاة والنادلون وغاسلو الصحون يختلفون في نظرتهم اختلافاً شديداً ، لكنهم متماثلون في الاعتزاز بكفاءتهم .

لا شك في أن الطهاة هم الفئة الأكثر عملاً ، والأقل ذلاً . إنهم لا يكسبون بقدر النادلين ، لكن مكانتهم أرفع ، وعملهم أكثر استمراراً وانتظاماً . الطباخ لا ينظر إلى نفسه باعتباره خادماً ، بل يرى نفسه عاملاً ماهراً ، ويُطلق عليه عموماً صفة عامل ، Un ouvrier ، وهي صفة لا تطلق على النادل . الطاهي يعرف قوّته ـ يعرف أنه هو وحده القادر على تكوين مطعم أو هدمه ، وأنه لو تأخّر خمس دقائق لفسد كل شيء . وهو يحتقر كل من لا يعمل في الطهي ، ويرى في شتم الجميع ـ عدا رئيس النادلين ـ ميزة شرف لديه . وهو يعتزّ اعتزازاً فنياً أصيلاً بعمله الذي يتطلب مهارة عظيمة جداً . الطهي ليس هو الصعب جداً ، لكن عمل كل شيء في وقته . بين الفطور والغداء يتلقى رئيس الطهاة في فندق س طلبات بعدة مئاتٍ من الأطباق ، تقدّم في أوقات مختلفة ، وهو يطهي القليل منها ، لكنه يعطي توجيهاته لها ، كلها ، ويفحصها قبل أن ترسل إلى أعلى . كانت ذاكرته رائعة . القوائم مثبتة بالدبابيس إلى لوحة ، لكن رئيس الطهاة نادراً ما ينظر إليها ، كل شيء محفوظ في رأسه ، وفي الدقيقة اللازمة ، حين يحين موعد كل طبق ، كان ينادي : «ماشي... كتليت عجل» (أو أي طبق آخر) بدون أن يخطئ . إنه فظٌّ غليظ ، لكنه فنان أيضاً . وبسبب الدقة ، لا بسبب التفوق في الحرفة ، يفضل الطهاة على الطاهيات .

نظرة النادل مختلفة تماماً . هو أيضاً يعتز اعتزازاً ما بمهارته ، لكن مهارته ، عموماً ، هي في أن يكون ذليلاً . إن عمله لا يمنحه ذهنية العامل ،

وإنمـا ذهنيـة النفّـاج . إنـه يعـيش دومـاً مع مـشـهـد الأغنيـاء ، يقف عند موائدهم ، ويستمع إلى أحاديثهم ، ويتقرب إليهم بالابتسامات والدعابات الصغيرة . إن له متعة إنفاق المال بالوكالة . ثم أن هناك فرصة أن يصبح هو نفسه غنياً ، ومع أن معظم النادلين يموتون فقراء ، إلا أن ثمت قصصاً كثيرة عن حظوظٍ تحدث .

في بعض مقاهي الگران بوليفار يمكن أن يحصل النادلون على مال كثير ، حتى أن النادلين يدفعون ، فعلاً ، لصاحب المقهى ، لقاء عملهم . والنتيجة أنه بين الرؤية المستمرة للمال ، وبين أمل الحصول عليه ، يصل النادل إلى التماهي ، نوعاً ما ، مع مستخدِمه . وهو يتألم إذ يقدِّم وجبة حسب الأصول ، وذلك لشعوره بأنه يشترك هو نفسه في الوجبة . أتذكر فالنتي يخبرني عن حفلة في نيس ، خدمَ فيها مرةً ، وكيف أنها كلّفت مائتي ألف فرنك ، وظلت مدار الحديث شهوراً . « كانت فاخرة ، يا صغيري ، رائعة ، بحق المسيح! الشمبانيا ، الفضة ، زهور الأوركيد ـ لم أر شيئاً مثلها ، أنا الذي رأى أشياء . آه... كانت مجيدة! » .

قلت : « لكنك كنت هناك فقط لتخدم ؟ » .

« أوه ، طبعاً ، لكنها تظل فاخرة » .

والحكمة ، لا تحزنْ لنادلٍ . أحياناً ، عندما تجلس في مطعم ، ولاتزال تحشو معدتك بالطعام ، بعد نصف ساعة من موعد الإغلاق ، تشعر بأن النادل المتعب ، الواقف بجانبك ، ممتعضٌ منك بالتأكيد . لكنه ليس كذلك . إنه لا يفكر وهو ينظر إليك ، « أي وغدٍ نهمٍ » . بل هو يفكر « يوماً ما ، حين أوفر نقوداً كافية ، سأكون قادراً على تقليدِ ذلك الرجل » . إنه يغدو نوعاً من السرور يفهمه ويهواه . ولهذا نادراً ما يكون النادلون إشتراكيين ، وليست لديهم نقابات فاعلة ، وسوف يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ـ يعملون خمس عشرة ساعة لسبعة أيام في الأسبوع ، في مقاهٍ عدة . إنهم نفّاجون ، ويجدون طبيعة عملهم الذليلة ، مناسبةً لهم .

غاسلو الصحون ، هم أيضاً ، لهم نظرتهم المختلفة . إن لديهم عملاً بلا آفاق ، مرهقاً جداً ، وفي الوقت نفسه نراه خالياً من أي أثر لخبرة ومهارة أو اهتمام ، إنه عملٌ تقوم به النساء عادةً لو كنّ قوياتٍ كفايةً . كل ما هو مطلوبٌ منهم ، أن يجْروا على الدوام ، وأن يتحملوا ساعات طوالاً في جو خانق . ليس لهم مخرجٌ من هذه الحياة ، إذ لا يستطيعون توفير قرش من أجورهم ، كما أن العمل بين ستين ساعة ومائة ساعة أسبوعياً لا يترك لديهم وقتاً للتدرب على عمل آخر . وأفضل ما يمكن تمنّيه أن يجدوا عملاً أسهل ، كأن يكون أحدهم حارساً ليلياً ، أو مشرف مرحاض .

بالرغم من هذا ، بالرغم من وضاعة شأنهم ، يشعر غاسلو الصحون بنوع من الفخر . إنها كبرياء الكادح ـ الرجل المؤهل لأي قدْرٍ من العمل . وعلى هذا المستوى تكون الفضيلة المكتسبة هي القدرة على المضيّ في العمل مثل ثور . يحب كل غاسل صحون أن يدعى شاطراً . والشاطر هو الرجل الذي يدعى لعمل المستحيل ، يعمله بشطارة ، أي يدبِّره بصورة ما . أحد غاسلي الصحون في مطبخ فندق س ، وهو ألمانيّ ، كان مشهوراً بأنه شاطر . في إحدى الليالي جاء إلى الفندق لورد إنجليزي . وقد أصاب النادلين اليأسُ ، لأن اللورد طلب خوخاً ، ولم يكن في المستودع خوخ ، كان الوقت متأخراً في الليل ، والمخازن مغلقة . قال الألمانيّ : «اتركوا الأمر لي » . خرج ، وعاد بعد عشر دقائق يحمل أربع خوخات . كان ذهب إلى مطعم مجاور ، وسرقها . ودفع اللورد الإنجليزي عشرين فرنكاً لكل خوخة .

ماريو ، المسؤول عن الكافتيريا ، كانت له ذهنية الكادح الأنموذجية . كل ما يفكر به هو إتقان العمل ، ويتحدّاك إن وجدتَ في عمله منقصة . إن أربع عشرة سنة من العمل تحت الأرض منحته نوعاً من الكسل الطبيعي مثل قضيب الكبّاس . «عليك أن تكون شديداً» كان هذا ما يقوله لمن يشكو . وأنت تسمع غاسلي الصحون يرددون ، غالباً ، «أنا شديد» ، كأنهم جنود ، لا خادمات من الذكور .

وهكذا يتمتع كل من في الفندق بإحساسه من الشرف . وعندما يأتي ضغط العمل نكون جميعاً مستعدين لجهد عظيم منسَّق ، كي نؤديه . كما أن الحرب المستمرة بين مختلف الأقسام هي سببٌ للكفاءة ، إذ يتشبث كل واحدٍ بامتيازاته ويحاول إيقاف تكاسل الآخرين واختلاساتهم .

هذا هو الجانب الحسن في العمل الفندقيّ . في الفندق يتم تسيير ماكنة هائلة معقدة بعدد من المستخدمين غير كاف ، لأن كل شخص له عمل محدّد يعمله بإتقان . لكن هناك نقطة ضعف ، ذلك لأن العمل الذي يؤديه المستخدمون ليس بالضرورة العمل الذي يدفع الزبون لقاءه . الزبون يدفع ، للخدمة الجيدة ، كما يراها . المستخدَم يُدفع له ، من أجل العمل ، كما يراه ـ وهذا يعني ، كقاعدة ، تقليد الخدمات الجيدة . والنتيجة ، أن الفنادق مع أنها في دقتها كالمعجزة ، أسوأ من أسوأ المنازل الخاصة ، في الأمور الأساس .

خذ النظافة مثلاً . في فندق س ، آن يدخل المرء في أقسام الخدمة ، يجد القذارة مقززة . وفي الكافتيريا ، حيث نعمل ، أوساخٌ متراكمة منذ عامٍ في الزوايا المظلمة ، وسلة الخبز ملأى بالصراصير . اقترحت على ماريو ، مرة ، قتلها . قال هادئاً : «لماذا نقتل الحيوانات المسكينة ؟» . وقد ضحك الآخرون لأني أردت غسل يديّ قبل أن ألمس الزبدة . غير أننا كنا نظيفين حين نرى النظافة جزءاً من العمل . نحن ننظف الموائد ، ونلمّع النحاس بانتظام ، لأن لدينا أوامر بذلك ، لكن ليس لدينا أوامر بأن نكون نظيفين حقاً ، وعلى أي حال ، ليس لدينا الوقت لذلك .

كنا ، ببساطة ، ننفذ واجباتنا ، ولأن واجبنا الأول هو الدقّة ، فإننا نوفر الوقت فنكون قذرين .

القذارة أسوأ في المطبخ . لستُ أقول كلاماً ، بل أذكر حقيقةً حين أقول إن الطاهي الفرنسي سوف يبصق في الحساء إن لم يكن سيشربه هو . إنه فنان ، لكن فنه ليس النظافة . إنه قذرٌ إلى حد معين ، لأنه فنان . ولكي

يبدو الطعام ممتازاً ينبغي أن يعامل معاملةً قذرة . حين يؤتى إلى الطاهي بشريحة لحم كي يتفحصها ، فإنه لا يستخدم الشوكة . يتناول الشريحة بأصابعه ويبسطها على الصحن ، ثم يمرر إبهامه حول الصحن ويلعقه ليتذوق الصلصة ، يمرره ثانية ويلعقه من جديد ، ثم يتراجع إلى الوراء ، ويتأمل قطعة اللحم ، مثل ما يتأمل فنانٌ صورةً ، بعدها يضغط القطعة في موضعها بحبٍ ، مستعملاً أصابعه السمينة الوردية ، وكل إصبع منها لُعِقَ مائة مرة ، ذلك الصباح . وعندما يرضى عن الأمر ، يتناول قطعة قماش ، ويمسح آثار أصابعه عن الصحن ، ويسلِّمه إلى النادل . والنادل ، بالطبع ، يغمس أصابعه في الصلصة ، أصابعه المقرفة المدهَّنة التي يفرُق بها على الدوام شعره ذا البرليانتين . وعلى كل من يدفع أكثر من عشرة فرنكات ، مثلاً ، لصحن لحم في باريس ، أن يتأكد من أن صحنه نالته الأصابع على هذا النحو . في المطاعم الرخيصة جداً يختلف الأمر ، حيث لا يتعرض الطعام لمثل هذا ، بل يؤخذ من المقلاة بالشوكة ويوضع في الصحن رأساً ، بدون استعمال اليد . ويمكن القول إنك إن دفعت لطعامك أكثر ، أكلتَ معه عرقاً وبصاقاً أكثر .

القذارة شائعة في الفنادق والمطاعم ، لأن الطعام الصالح يضحَّى به من أجل الدقة والأناقة . إن مستخدَم الفندق أكثر انشغالاً بتجهيز الطعام من أن يتذكر أن الطعام مقصودٌ به أن يؤكل . الوجبة ، هي ، ببساطةٍ ، «طلبٌ» له ، مثل ما أن الإنسان الذي يموت من السرطان هو «حالة» عند الطبيب . أحد الزبائن يطلب ، على سبيل المثال ، خبزاً محمصاً . وعلى شخص ما ، أرهقه العمل ، في قبو عميق تحت الأرض ، أن يجهزه . كيف يستطيع هذا الشخص أن يتوقف ويفكر قائلاً لنفسه «هذا الخبز المحمص سوف يؤكل ـ يجب أن أجعله صالحاً للأكل» ؟ كل ما يعرفه أن هذا الخبز يجب أن يبدو جيداً ، وأن يهيَأ في ثلاث دقائق . قطرات عرق كبيرة تنحدر من جبهته على الخبز . لماذا يهتم ؟ ثم يسقط الخبز على النشارة الوسخة بأرضية المكان . لماذا يهتم بتجهيز قطعة أخرى ؟ الأسرع أن يمسح النشارة عن القطعة . في

الطريق إلى الأعلى يسقط الخبز ثانية ، والزبدة تنقلب . مَسحةٌ أخرى هي كل ما يحتاجه الأمر . وهكذا ، مع كل شيء . الطعام الوحيد في فندق س ، الذي يهيّأ بنظافة هو طعام الموظفين ، وصاحب الفندق . والقول الشائع هو : «فتش عن صاحب الفندق» ، أما عن الزبائن فهو «ليس شيئاً» . في كل مكان من أقسام الخدمة تعشعش القذارة ـ عِرقٌ سريّ للقذارة يتغلغل في الفندق العظيم ، مثل الأمعاء في جسم الإنسان .

إلى جانب القذارة ، نجد صاحب الفندق يغش الزبائن غشّاً كاملاً . غالبية مواد الطعام سيئة جداً ، مع أن الطهاة يعرفون كيف يتدبرونها حسب الأصول . اللحم من نوعية عاديةٍ في أفضل الأحوال ، وكذلك الخضروات التي لا يمكن لربّة منزل أن تنظر إليها في السوق . والقشطة تخلط بالحليب حسب الأوامر النافذة . والشاي والقهوة من نوعية متدنية ، والمربّى مادة مركّبة تؤخذ من علب كبيرة بدون علامات تجارية . وكل الخمور الرخيصة توضع عليها علامة «خمر عاديّ» . ثمت تعليمات تقضي بأن يدفع المستخدَمون ثمن ما يخربونه ، وبالنتيجة لا تكاد ترمى الأشياء المتضررة . مرةً أسقط نادلٌ دجاجةً مشوية من الطابق الثالث ، في مهوى مصعد خدمتنا ، حيث سقطت في سلّة لبقايا الخبز ومِزَق الورق وما إلى ذلك ، في القاع . مسحنا الدجاجة بقطعة قماش ، وأرسلناها إليه ، ثانيةً . وفي الأعلى تدور أحاديث قذرة عن شراشف استعملت مرةً ، فلم تغسَل ، بل نُقعت فقط ، وكُويت ، ووضعت على الأسرّة ثانيةً . كان صاحب الفندق شحيحاً علينا ، بقدر شُحّته على الزبائن . على امتداد الفندق الواسع كله ، لا توجد ، على سبيل المثال ، فرشاة ومجرف ، وعلى المرء تدبير أمره بمكنسة وقطعة من الورق المقوّى . ومرحاض العاملين يليق بآسيا الوسطى ، وليس من مكان تُغسَل فيه اليدان ، ما عدا المغاطس المستعملة لغسل الأواني .

بالرغم من هذا كله ، كان فندق س واحداً من الفنادق الإثني عشر ، الأكثر غلاءً في باريس . والنزلاء يدفعون مبالغ باهظة . كان سعر المنام ،

ليلةً ، بدون فطور ، مائتي فرنك . والخمر والتبغ يباعان بضعف سعرهما في الدكاكين ، مع أن صاحب الفندق يشتريهما ، طبعاً ، بسعر الجملة . ولو حدث أن للزبون لقباً ، أو كان مليونيراً ، فإن ما يدفعه يرتفع أوتوماتيكياً . في صباحٍ ما ، وفي الطابق الرابع ، أراد أحد الأميركيين ، وكان في حِمْيةٍ ، ملحاً وماءً ساخناً فقط لفطوره . اهتاج فالنتي غضباً . وقال : «بحق المسيح! وماذا عن العشرة بالمائة العائدة لي ؟ عشرة بالمائة عن الماء والملح! » . وجعل سعر الفطور خمسة وعشرين فرنكاً . الزبون دفع بدون أي همهمة .

في رأي بوريس ، أن الشأن ذاته ينطبق على فنادق باريس كلها . لكني أتصور أن زبائن فندق س كانوا أسهل على الغشّ ، ذلك لأن معظمهم أميركيون ، ذوو إنجليزية متعثرة ـ ليس من فرنسية ـ وأنهم يجهلون أي شيء عن المأكل الجيد . كانوا يحشون مِعَدهم بـ«الحبوب» الأميركية ، ويأكلون المربّى مع الشاي ، ويشربون الفرموث بعد العشاء ، ويطلبون «دجاج الملكة» بمائة فرنك ليطيّبوه بصلصلة وورشستر . نزيلٌ من بتسبرغ كان يتعشى كل ليلة ، في غرفة نومه ، زبيباً ، وبيضاً مخفوقاً ، وكاكاو . قد لا يكون هاماً ، أن يُغَشَّ هؤلاء القوم أو ألاّ يُغَشُّوا .

15

سمعت أحاديث عجباً في الفندق . أحاديث عن مدمني مخدرات ، عن شيوخ فاسقين يرتادون الفنادق بحثاً عن صبيان جميلين ، عن سرقات وابتزازات . حدّثني ماريو عن فندقٍ كان فيه ، حيث سرقت خادمة غرفة خاتَم ماسٍ لا يقدَّر بثمن من سيدة أميركية . لعدة أيام كان المستخدَمون يفتَّشون عندما يغادرون العمل ، وفتّش مُخبران سريان الفندق من أعلاه إلى سافله ، لكن الخاتم لم يُعثر عليه .

كان للخادمة عاشقٌ في المخبز ، وقد خبز هذا العاشقُ الخاتمَ في رغيف ، وظل الخاتم في مكانه إلى أن انتهى التفتيش .

ومرةً ، في وقت راحة ، أخبرني فالنتي قصةً عنه .

«أنت تعرف ، يا صغيري ، أن حياة الفندق هذه لا بأس بها . إلا أنك حين تكون عاطلاً عن العمل سوف ترى النكد بعينه . أظنك تعرف معنى أن يظل المرء جائعاً ، إيه ؟ بالتأكيد ، وإلاّ فإنك ما كنت لتأتي هنا كي تغسل الصحون . حسناً ، أنا لستُ شيطاناً بائساً ، غاسلَ صحون ، أنا نادلٌ ، ومع هذا أمضيت مرةً ، خمسة أيام ، بلا أكل . خمسة أيام حتى بدون كسرة خبز ـ يا يسوع المسيح!

أقول لك إن تلك الأيام الخمسة كانت النكد . الأمر الوحيد الجيد هو أنني كنت دفعت الإيجار مقدماً . كنت أسكن نُزلاً قذراً رخيصاً في درب

القديسة إيلواز ، بالحي اللاتيني . كان المكان يسمى «نزل سوزان ماي» تيمناً بعاهرة شهيرة من أيام الإمبراطورية . كنت أتضور جوعاً ، ولا شيء لديّ أفعله ، بل إنني لا أستطيع الذهاب إلى المقاهي التي يرتادها أصحاب الفنادق ليشغّلوا نادلين ، بسبب أني لا أملك ثمن مشروب . كل ما أستطيع فعله البقاء متمدداً في الفراش ، معرَّضاً للوهن المستمر ، ومراقباً الصراصير تركض عند السقف . أقول لك إنني لا أريد أن أمرّ بذلك ثانيةً .

عصر اليوم الخامس ، كدت أُجَنُّ ، أو هكذا تراءى لي الأمر الآن ، في الأقل . كانت طبعةٌ ناصلة اللون لرأس امرأة معلقة على جدار غرفتي ، وظللت أتساءل عمّن تراها تكون ، وبعد حوالي الساعة اعتقدت أنها يجب أن تكون القديسة إيلواز ، التي كانت حامية الحيّ . لم أكن لحظتُ هذا ، من قبل ، أما الآن فصرت أحدِّق فيها ، حتى داهمتني فكرة غريبة . قلت لنفسي : اسمع يا عزيزي ، ستجوع حتى الموت إن استمرّ حالك هكذا . عليك أن تفعل شيئاً . لمَ لا تجرّب الصلاة للقديسة إيلواز ؟ اركعْ واطلب منها أن تبعث إليك ببعض المال . ثم أن المسألة لن تضرّ . جرب!

مجنون ، إيه ؟ لكن الجائع يُقْدم على أي شيء ، إلى جانب أن المسألة لن تلحق بي ضرراً كما قلت . تركت فراشي ، وشرعت أصلّي . قلت :

يا عزيزتي القديسة إيلواز ، إن كنت موجودةً ، فأرجوك أن تبعثي لي ببعض المال . أنا لا أسألك الكثير ـ فقط ما يكفي لشراء خبز وزجاجة نبيذ ولإعادة عافيتي إليّ . ستكفيني ثلاثة فرنكات أو أربعة . أنتِ لا تعرفين ، أيتها القديسة إيلواز ، كم سأكون لكِ ممتناً . لو أرسلتِ لي شيئاً ، فإن أول ما أفعله أن أوقد شمعة لكِ ، في كنيستك بالشارع . آمين .

حسناً ، عدت إلى الفراش ثانية ، وبعد خمس دقائق سمعت دقاً على الباب . كانت الفتاة ماريا ، وهي فلاحة سمينة تسكن نزلنا . كانت غبية جداً ، لكنها طيبة ، ولم يكن يهمني أن تراني في الحالة التي أنا فيها .

صرختْ لمرآي : يا إلهي! ما بك ؟ ماذا تفعل في الفراش هذه الساعة

من اليوم ؟ أي هيأة لك! أنت تبدو جثة لا إنساناً .

ربما كان منظري شنيعاً . إذ أمضيت في الفراش خمسة أيام وأنا جائع ، ومرّت عليّ ثلاثة أيام بلا حلاقة أو اغتسال . كما أن الغرفة كانت منتنةً أيضاً .

سألتني ماريا ثانية : ما الأمر ؟

قلت : الأمر! يا يسوع المسيح ، أنا جائع . لم آكل منذ خمسة أيام . هذا هو الأمر .

قالت ماريا مرتعبة : لم تأكل منذ خمسة أيام ؟ لكن لماذا ؟ إذاً ، ليست لديك نقود ؟

قلت : نقود! أتظنين أني سأجوع لو كان عندي نقود ؟ عندي خمسة فلوس فقط ، وقد رهنت كل شيء . فتشي الغرفة وانظري إن بقي فيها ما أرهنه أو أبيعه . لو استطعتِ أن تجدي شيئاً يأتيني بخمسين سنتيماً ، فسوف تكونين أشطر مني .

شرعت ماريا تنظر في أرجاء الغرفة ، ونقّبتْ هنا وهناك في سِقط المتاع ، وفجأة علاها الاهتياج . وفغرت فمها الثخين الضخم دهشةً ، وصاحت : «أيها الغبي ، الأبله ، ما هذا ، إذاً ؟» .

شاهدت ما كانت تحمله ، كان سطل زيت فارغاً ملقىً في الزاوية ، وكنت اشتريته قبل أسابيع لمصباح زيتيّ كان لديّ قبل أن أبيع كل شيء .

قلت : «ذلك ؟ إنه سطل زيت . ماذا عنه ؟» .

«أيها الأبله! ألم تدفع ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيماً ضماناً له ؟» .

«طبعاً ، دفعت ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيماً . هم يفرضون عليك أن تدفع ضماناً للسطل ، ويعيدون الضمان حين تعيد السطل . لكني نسيت كل شيء عنه . نعم...» .

صاحت ماريا ثانية : «أبله!» واهتاجت حتى أخذت ترقص فظننت أن قبقابها سوف يغور في الأرضية . «أيها الأبله! أنت مجنون! كل ما عليك أن

تفعله هو أن تعيده إلى الدكان ، وتستعيد مبلغ الضمان... كيف تجوع ، ولديك ثلاثة فرنكات وخمسون سنتيماً تنظر في وجهك! أيها الأبله! » .

لم أكد أصدق ، أنني طوال الأيام الخمسة ، لم أفكر بإعادة السطل إلى الدكان . خمسة فرنكات وخمسون سنتيماً بالتمام والكمال ، ولم يخطر الأمر ببالي! جلست في الفراش ، وقلت لماريا صائحاً : « أسرعي ، خذيه ، اذهبي به إلى البقال الذي في الركن ـ أسرعي كالشيطان ، وجيئيني بطعام! » .

لم تكن ماريا بحاجة إلى أوامر . خطفت السطل ، ونزلت السلّم مقعقعةً مثل قطيع أفيال ، وعادت بعد ثلاث دقائق برطلي خبز تحت ذراع ، ونصف ليتر نبيذ تحت الأخرى . لم أتوقف برهة لأشكرها . أمسكت الخبز وغرزت أسناني فيه . هل لحظتَ أي طعم للخبز بعد جوع أيام ؟ كان الخبز بارداً ، رطباً ، عجينياً ، مصفراً ، لكنه ، بحق يسوع المسيح ، كان لذيذاً! أما النبيذ فقد عببتُه رأساً ، وبدا لي أنه يدخل في عروقي مباشرة ، ويجري في جسدي مثل دم جديد . آه... لقد اختلف الأمر!

نهشت رطلي الخبز كاملين ، بلا توقّفٍ لاسترداد أنفاسي . ووقفت ماريا تنظر إليّ ، وقد وضعت يديها على عجيزتها . قالت بعد أن أتممت الأكل : « حسناً ، أنت الآن أحسن ، إيه ؟ » .

قلت : « أحسن! إنني في غاية ما أكون! لم أعد ذلك الرجل الذي كنته قبل خمس دقائق . مايزال لديّ شيء واحد أريده من العالم ـ سجارة » .

وضعت ماريا يدها في جيب صدريتها وقالت : « لن تحصل عليها . ليس لديّ نقود ، وهذا كل ما تبقّى من الفرنكات الثلاثة والسنتيمات الخمسين ، سبعة فلوس . لن تفيدك ، فأرخص علبة سجائر هي باثني عشر فلساً » .

قلت : « إذاً ، أستطيع الحصول عليها . لديّ خمسة فلوس ، أي حظّ! المبلغ كافٍ! » .

أخذت ماريا الإثني عشر فلساً ، وكانت توشك أن تخرج إلى بائع التبغ . وفجأة ، خطر لي ما كنت نسيته هذا الوقت كله . كانت تلك الملعونة ، القديسة إيلواز! لقد وعدتها بشمعة لو أرسلت إليّ مالاً . والحق أن لا أحد بمقدوره التساؤل عن مردود صلاتي . كنت قلت : ثلاثة فرنكات أو أربعة . وبعد لحظة جاءت ثلاثة فرنكات وخمسون سنتيماً . لا فكاك من الأمر . كان عليّ أن أنفق فلوسي الإثني عشر على شمعة .

ناديت ماريا : «لا فائدة . هناك القديسة إيلواز ، وقد وعدتها بشمعة . استجابت لصلاتي . المال جاء ، على أي حال . الأمر يبعث على الغثيان ، لكن يبدو لي أن عليّ الوفاء بوعدي» .

قالت ماريا : «لكن كيف جاءت القديسة إيلواز إلى رأسك ؟» .

قلت شارحاً القصة كلها : «إنها صورتها . ها هي ذي هناك ، أنتِ ترينها» وأشرتُ إلى الحائط .

نظرت ماريا إلى الصورة ، ولدهشتي انفجرت في سلسلة صيحات وضحكات . واستمرت تضحك ، وهي تدبك على الأرض ، وتمسك خاصرتها كأنها توشك أن تنفجر . ظننت أنها جُنّتْ . لم تستطع الكلام إلا بعد دقيقتين .

صاحت أخيراً : «أيها الأبله! أنت مجنون! مجنون! أتقصد أن تخبرني أنك ركعت حقاً ، وصلّيتَ لتلك الصورة ؟ من أخبرك أنها القديسة إيلواز ؟» .

قلت : «لكنني تأكدت من أنها القديسة إيلواز» .

«أيها الأبله ، إنها ليست القديسة إيلواز بأي حال من الأحوال . من تظنها ؟» .

قلت : «من ؟» .

«إنها سوزان ماي ، المرأة التي أخذ النُزل اسمه منها» .

«كنت أصلّي لسوزان ماي ، العاهرة الشهيرة للإمبراطورية...» .

لكني ، بعد هذا كله ، لم أكن بآسف . لقد ضحكنا ، أنا وماريا ، من

أعماق قلبينا ، ثم تحدثنا في الموضوع من جديد ، وخلُصت بأني لست مديناً بشيء إلى القديسة إيلواز . واضحٌ أنها لم تكن تلك التي استجابت لصلاتي ، فلا حاجة إلى أن أشتري شمعة لها .

هكذا ، حصلت على علبة سجائري ، أخيراً .

16

مضت الأيام ، وأوبرج جيان كوتار لا يبدي أي إشارة لافتتاح . بوريس وأنا ذهبنا في أحد الأيام ، إلى هناك ، أثناء استراحة بعد الظهر ، ووجدنا أن أياً من التعديلات لم تجرِ ، باستثناء الصور غير المحتشمة ، وكان هناك ثلاثة دائنين بدلاً من الدائنين الإثنين . رحّب بنا صاحب المطعم ، بطريقته الصريحة ، وفي اللحظة الثانية استدار إليّ (أنا غاسل صحونه المرتقب) واستدان خمسة فرنكات . بعدها ، أيقنت تماماً أن المطعم لن يمضي أبعد من الكلام . ومن جديد ، عيّنَ صاحب المطعم موعد الافتتاح (بعد أسبوعين بالضبط من اليوم) ، وقدّمنا إلى المرأة التي ستتولى الطهي ، وهي روسيّة من البلطيق ، يبلغ طولها خمسة أقدام ، وعرضها عند العجيزة ياردةً . أخبرتنا بأنها كانت مغنّية ، قبل أن تتحول إلى الطهي ، وأنها كانت محبة جداً للفن ، وتهوى الأدب الإنجليزي ، وبخاصة « كوخ العم توم » .

خلال أسبوعين اعتدتُ رتابة حياة الغاسل ، حتى أني لم أعد قادراً على أن أتخيل شيئاً مختلفاً . كانت حياة بلا تنوّع . في السادسة إلا الربع يستيقظ المرء بغتةً ، يحشر نفسه في ملابس صلّبها الشحم ، ويسرع خارجاً بوجه قذر وعضلاتٍ غير راضية . إنه الفجر ، والنوافذ كلها معتمة ، عدا مقاهي العمال . والسماء مثل جدار كوبالت هائلٍ مستوٍ ، مع سقوف وملتويات ورق ملصقة عليه . رجالٌ أثقلهم النعاس يكنسون الأرصفة بمقشّات

تبلغ الواحدة منها عشرة أقدام طولاً ، وعوائل ترتدي أسمالها وتنبش سلال القمامة . عمال وفتيات ، مع قطعة شوكولاتا بيد ، وهلال خبز بيد ، يتدفقون في محطات المترو . حافلات الترام ، الملأى بمزيد من العمال ، تمرّ كئيبةً . المرء يتعجل الهبوط في المحطة ، يناضل للحصول على مكان ـ على المرء أن يناضل حقاً في مترو باريس ، الساعة السادسة صباحاً ـ ويقف محشوراً مع الحشد المتمايل للمسافرين ، أنفاً لأنف ، مع وجه فرنسيٍّ فظيع ، يطلق أنفاساً من النبيذ الحامض والثوم . ثم يهبط المرء إلى متاهة الطابق السفليّ للفندق ، وينسى ضوء النهار حتى الساعة الثانية ، حين تكون الشمس ساخنة ، والمدينة سوداء بالناس والعربات .

بعد أسبوعي الأول من العمل في الفندق ، صرت أقضي استراحة بعد الظهر ، في النوم ، دائماً ، أو في الذهاب إلى «المشرب» حين أملك نقوداً . وباستثناء عدد من النادلين الطموحين الذين يحضرون دروساً في اللغة الإنجليزية ، فإن المستخدمين كلهم يقضون راحتهم بهذه الطريقة ، ويبدو المرء بعد عمل الصباح أشد كسلاً من أن يفعل شيئاً أفضل . أحياناً يشكل خمسة أو ستة من غاسلي الصحون فريقاً ويذهبون إلى مبغى سيّء في شارع سِيّيه ، حيث السعر خمسة فرنكات وخمسة وعشرون سنتيماً . أطلق على المبغى لقب «السعر المحدد» ، وقد اعتادوا وصف ما فعلوه هناك باعتباره مزحةً كبيرة . إنه ملتقى مفضل لعمال الفنادق . إن أجور غاسلي الصحون لا تسمح لهم بالزواج ، ولا شك في أن العمل بالطابق السفلي لا يشجع المشاعر الرقيقة .

لأربع ساعات أخرى يكون الشخص في الأقبية ، ثم يخرج ، وهو ينزّ عرقاً ، إلى الشارع البارد . إنه ضوء المصابيح ـ ذلك الوهج الأرجواني الغريب لمصابيح باريس ـ ووراء النهر ، برج إيفل ، مضاء من أعلاه إلى قاعدته بعلامات ضوئية متعرجة ، مثل أفاعي نار هائلة . سيولٌ من السيارات تنزلق ، صامتة ، جيئةً وذهاباً ، والنساء ذوات المنظر الغريب في الضوء

الشاحب ، يَرُحن ويغدون تحت الأروقة . أحياناً تنظر امرأة إلى بوريس أو إليّ ، ثم تشيح ببصرها عنّا بعد رؤية ملابسنا المشحّمة . معركةٌ أخرى تُخاض في المترو ، والوصول إلى المسكن في العاشرة . عموماً ، بين العاشرة ومنتصف الليل ، أذهبُ إلى مشرب صغير في شارعنا ، وهو مكان تحت الأرض يؤمّه الشغّالون العرب . إنه مكان سيّء بسبب المشاجرات ، وقد رأيت أحياناً زجاجات تلقى ، بأثرٍ مخيف مرةً ، لكن القاعدة أن العرب يتشاجرون بينهم ، ويتركون المسيحيين لشأنهم . العرق ، وهو مشروب العرب ، كان رخيصاً جداً ، والمشرب مفتوح طوال الساعات كلها ، ذلك لأن للعرب ـ وهذا من حسن حظهم ـ القدرة على العمل ، النهار كله ، وعلى الشرب ، الليل كله .

إنها الحياة الأنموذجية لغاسل الصحون ، وهي لم تبدُ سيئةً ، حينَها . لم يكن لديّ إحساسٌ بالبؤس ، فحتى بعد دفع إيجاري ، ورصد مبلغ كافٍ للتبغ والتنقل ولطعامي أيام الآحاد ، يتبقّى لديّ أربعة فرنكات في اليوم للمشروب ، وكانت الفرنكات الأربعة ثروة . كان هناك ـ وهذا مما يصعب التعبير عنه ـ نوع من الرضا الثقيل ، الرضا الذي قد يشعر به حيوانٌ أُطعِمَ جيداً ، الرضا بحياةٍ غدت جدّ بسيطة ، إذ لا حياة أبسط من حياة غاسل الصحون . إنه يعيش في وتيرةٍ بين العمل والنوم ، بلا وقت للتفكير ، وبلا وعي بالعالم الخارجي . لقد انكمشت باريسُه إلى الفندق ، المترو ، المشارب القليلة . الفراش . أما إذا خرج أبعدَ ، فلشوارع قليلة فقط ، في جولة مع فتاةٍ خادمةٍ تجلس على ركبتيه وتزدرد المحار والبيرة . في يوم عطلته يظل في الفراش حتى الظهيرة ، يلبس قميصاً نظيفاً ، يلعب النرد للمشروب ، وبعد الغداء يعود إلى الفراش ثانيةً . لا شيء حقيقيّاً لديه إلا الشغل ، والشرب ، والنوم ، ومن بين هذه الأمور تكون للنوم المنزلة الأولى .

في ليلة ما ، قبيل الفجر ، حدثت جريمة قتل تحت نافذتنا مباشَرةً . أيقظتني ضجة شديدة ، وعندما ذهبت إلى النافذة ، رأيت رجلاً ممتداً على

الأحجار هناك . استطعت أن أرى القتلة ، وهم ثلاثة ، يهربون مبتعدين ، عند نهاية الشارع . نزل عددٌ منا ، ووجدوا الرجل ميتاً تماماً ، وقد هشّم جمجمته أنبوبُ رصاص . أتذكر لون دمه ، ومن الغريب أنه كان أرجوانياً ، مثل النبيذ ، هذا الرجل الميت كان لايزال على الأحجار حين عدت إلى المسكن ذلك المساء . وقيل إن تلاميذ المدارس جاؤوا لرؤيته ، قاطعين أميالاً . لكن ما صدمني ، وأنا أستعيد الأمر ، أنني كنت نائماً في فراشي ، بعد ثلاث دقائق من حدوث الجريمة . وهكذا كان أغلب الناس في شارعنا . لقد تأكدنا فقط من أن الرجل انتهى ، فعدنا إلى الفراش . نحن كنا عمّالاً ، ومن أين لنا الإحساس بإضاعة الوقت على جريمة قتل ؟

علّمني العمل في الفندق القيمة الحقيقية للنوم ، تماماً مثل ما علّمني الجوع القيمة الحقيقية للطعام . لم يعد النوم محض ضرورة جسدية ، إنه لشيءٌ شهواني ، مفسد ، أكثر منه مريحاً . لم أعد أهتم بالبقّ . أخبرني ماريو بعلاجٍ ناجعٍ له ، هو الفلفل فقط ، يُرَشُّ بكثافة على أغطية الفراش . الفلفل يجعلني أعطس ، لكن البق كله يكرهه ، فيهاجر إلى الغرف الأخرى .

17

مع ثلاثين فرنكاً في الأسبوع ، مخصصة للشراب ، صار بإمكاني المشاركة في الحياة الاجتماعية للحيّ . كانت لنا ليالٍ مرحة ، أيام السبت ، في المشرب الصغير أسفل «نُزل العصافير الثلاثة» .

الحجرة المرصوفة بالطابوق ، ذات الخمسة عشر قدماً مربعاً ، مكتظة بعشرين شخصاً ، والهواء مشبعٌ حتى العتمة بالدخان . الضجة تصمّ الآذان ، فالكل كانوا بين متكلم بأعلى صوته ، ومُغَنٍّ . أحياناً لا تسمع سوى غماغم ، وأحياناً ينفجر الحضور ، جميعاً ، في الأغنية ذاتها ـ المارسييز ، أو النشيد الأممي ، أو مادلون ، أو الكرز والتوت البري . آزايا ، وهي فلاحة مكتنزة تعمل أربع عشرة ساعة في مصنع زجاج ، تغني : «أضاع البنطلون ، في رقصة الشارلستون» . أما صديقتها مارينين ، الكورسيكية السمراء النحيلة ، المتشدّدة في فضيلتها ، فكانت تعقد ركبتيها وترقص «رقصة الصدر» . أما آل روجيه العجوزان ، فكانا داخلين خارجين ، يتسوّلان الأشربة ، ويحاولان رواية قصة طويلة عن شخصٍ غشهما ، يوماً ، في أمر سرير . ر ، يجلس ، هيكلاً عظمياً صامتاً ، وهو يشرب بكل هدوء . وشارلي ، سكران ، كان نصف راقصٍ ، نصف مترنح ، وفي راحته يتوازن كأس ابسنث مغشوش ، يقرص النساء ، ويقرأ الأشعار . الناس يلعبون لعبة السهام ، ويغامرون على الأشربة بالنرد . مانويل الإسباني يجرّ الفتيات إلى البار ويخضّ علبة النرد على بطونهنّ ، طلباً للحظّ .

أما مدام ف ، فواقفة عند البار تصبّ ، بسرعة ، أنصافَ ليترات نبيذ ، عبر قمع من البيوتر ، وفي متناولها قطعة قماش غسيل مبتلة ، ذلك لأن كل رجل في الحجرة يحاول أن يمارس معها الحب . طفلان ، هما نغلا لويس الضخم راصف البلاط ، يجلسان في ركن وهما يشربان العصير . كان كل من في الحجرة سعيداً ، واثقاً تماماً ، بأن العالم مكان جميل ، وأننا نفرٌ مرموقٌ من الناس .

لمدة ساعة ، لم تكد الضجة تخفت . وفي حوالي منتصف الليل ، يرتفع صوتٌ ثاقبٌ : «أيها المواطنون!» يليه صوت كرسيّ يهوي . عاملٌ أشقر ، محمرّ الوجه ، وقف وشرع يدق قنينةً على الطاولة . توقّف الجميع عن الغناء . وانتقلت الكلمة من واحد إلى آخر «شـ... شـ... فوركس بدأ!» . كان فوركس شخصاً غريباً ، حجّاراً يعمل بانتظام طيلة الأسبوع ، ويشرب حدَّ السقوط في نوبة أيام السبت . كان فقد ذاكرته ، ولا يستطيع أن يتذكر أي شيء قبل الحرب ، وكان يمكن للشرب أن يحطمه تحطيماً لولا عناية مدام ف . في ليالي السبت ، حوالي الساعة الخامسة ، كانت تقول لأحدهم : «أمسكْ فوركس قبل أن يصرف أجوره» ، وعندما يمسكونه تأخذ منه نقوده . في أحد الأسابيع أفلتَ ، وبينما كان يتدحرج أعمى من السكر في ساحة مونج ، دهسته سيارةٌ عابرة ، فأصيب بأذىً شديد .

العجيب في فوركس ، أنه ، بالرغم من كونه شيوعياً في الصحو ، يتحول إلى شوفينيّ في السكر . يفتتح أمسيته بمبادئ شيوعية جيدة ، لكنه بعد أربعة ليترات أو خمسة يكون شوفينياً قُحّاً ، يسبّ الجواسيس ، ويتحدى كل الأجانب للقتال ، وإن لم يمنعه أحد يقذف الناس بالقناني . في هذه المرحلة يلقي خطبته - إذ أنه يلقي خطبة وطنية كل مساء سبت . والخطبة تظل هي هي ، كلمة بكلمة :

«يا مواطني الجمهورية ، هل من فرنسيين هنا ؟ إن كان هنا فرنسيون ، فأنا أقف لأُذكّرهم - أذكّرهم في الواقع ، بالأيام المجيدة للحرب . حين يلتفت المرء إلى ذلك الزمن من الرفقة والبطولة - المرء يلتفت ، في الواقع ، إلى ذلك الزمن من الرفقة والبطولة . عندما يتذكر المرء الأبطال الموتى ، فإنه يتذكر ، في

الواقع الأبطال الموتى . يا مواطني الجمهورية . لقد جُرحت في فردان ــــ» .

هنا ، يخلع بعض ملبسه ، ويكشف عن الجرح الذي أصابه في فردان . تتعالى صيحات الهتاف . ونفكر أن لا أمر في العالم أكثر تسليةً من خطبة فوركس . كان مشهداً شهيراً في الحيّ ، وقد اعتاد الناس المجيء من المشارب الأخرى ليشاهدوه في بدء نوبته . وتنتقل الكلمة من واحدٍ إلى آخر بإغراء فوركس . أحدهم يغمز للآخرين طلباً للصمت ، ويسأله أن يغني المارسييز . وإنه ليغنيها ، جيداً ، بصوتٍ جهير رفيع ، مع غرغرات وطنية ، تتعمق في صدره حين يبلغ : « إلى السلاح ، يا مواطنون ، كوِّنوا كتائبكم! » . تنحدر دموع حقيقية على خديه ، وهو من السكر بحيث لا يعرف أن الجميع كانوا يضحكون منه . لكنْ ، قبل أن ينتهي ، يمسك به عاملان قويان من كلتا ذراعيه ، ويرغمانه على الجلوس ، بينما تهتف آزايا : « تعيش ألمانيا! » وهي على مبعدة . يكسو الأرجوان وجه فوركس لهذا العار . ويبدأ كل من في المشرب يهتف : « تعيش ألمانيا! ، تسقط فرنسا! » ، بينما يجاهد فوركس كي يبلغهم . لكنه فجأةً يفسد التسلية ، إذ يشحب وجهه ويتغضّن ، وتتيبس أطرافه ، ويمرض على الطاولة ، قبل أن يتمكن أحدٌ من إيقافه . آنذاك ، ترفعه مدام ف مثل كيس ، وتحمله إلى الفراش . يعاود الظهور في الصباح ، هادئاً مهذباً ، ويشتري نسخة من صحيفة لومانيتيه .

الطاولة مُسحتْ بقطعة قماش ، وجاءت مدام ف بمزيد من قناني الليتر وأرغفة الخبز ، وانكببنا ، ثانيةً ، على الشرب الجدّي . يتعالى مزيدٌ من الأغاني . يدخل مغنٍّ جوال مع آلة البانجو ويؤدي وصلاتٍ بخمسة فلوس للوصلة الواحدة .

عربي وفتاةٌ من المشرب أسفل الشارع يرقصان رقصةً ، والرجل يلوّح بقضيب خشبٍ مصبوغ في حجم دبّوس شعر . ثمت فراغات في الضجة الآن . شرع الناس يتحدثون عن شؤونهم الغرامية ، والحرب ، واصطياد سمك البُني في نهر السين ، وعن الطريقة المثلى للقيام بالثورة ، والحكايات . شارلي صحا من سكره ، التقط الحديث ، وتكلم عن نفسه خمس دقائق . الأبواب والنوافذ فُتحت كي تبرد الحجرة . كان الشارع يخلو ، وفي البعيد يمكن

سماع قطار الحليب الوحيد مرعداً في بوليفار سان ميشيل . الهواء يهب بارداً على جباهنا ، والنبيذ الإفريقي الرديء لا يزال جيد المذاق . نحن لانزال سعداء ، إطلاقاً . نحسّ ببهجة الأمسية تتضاءل ، فنطلب قناني أخرى ، لكن مدام ف كانت تغش النبيذ الآن ، بالماء ، فلم يعد طعمه مثل ما كان . الرجال صاروا ميّالين إلى العراك ، والفتيات كنّ يتعرضن للتقبيل العنيف ، ولمدِّ الأيدي في صدورهن ، ولولا مغادرتهنّ لحدثَ الأسوأ .

لويس الضخم ، الحجّار ، كان سكران ، يزحف على الأرض ، نابحاً ، متظاهراً بأنه كلب . سئمه الآخرون ، وأخذوا يركلونه وهو يمرّ بهم . أمسك الناس بأذرعة بعضهم ، وبدأوا اعترافات طويلة صاخبة ، وكانوا يغضبون إن لم يُنصَتْ إليهم جيداً .

الحشد يخفّ . مانويل وشخص آخر ، والإثنان مغامران ، ذهبا إلى مشرب عربي ، حيث لعب الورق يستمرّ حتى مطلع الفجر . فجأة ، استدان شارلي ثلاثين فرنكاً من مدام ف ، واختفى ، ربما ذاهباً إلى مبغى . شرع الرجال يفرغون كؤوسهم ، ويقولون : « يا سادة ، يا سيدات! » ثم يغادرون إلى الفراش .

في الواحدة والنصف تتبخر آخر قطرات السرور ، غير مخلفةٍ وراءها إلا الصداع . وندرك أننا لسنا السكان الرائعين لعالمٍ رائع ، بل نحن جمعٌ من العمال قليلي الأجور ، وقد صرنا سكارى بصورة سيئة . نظل نعبّ النبيذ ، لكن بقوة العادة ، وبدا الشراب مقيِّئاً ، فجأةً . انتفخت رأس أحدنا ، مثل بالون ، وتلطخت الشفاه والألسنة بالأرجوان .

أخيراً ، لم تعد أي جدوى في الاستمرار . ذهب عددٌ من الرجال إلى الباحة خلف المشرب ، وكانوا مرضى . ونزحف نحن إلى الفراش ، لننهار عليه أنصاف عراة ، ونظل فيه عشر ساعات .

معظم أماسيَّ في السبت تمضي هكذا . وعلى العموم ، تستحق ساعتا السعادة الجامحة ، ما يأتي بعدها من صداع .

للكثير من رجال الحيّ ، وهم غير متزوجين ، ولا مستقبل لهم كي يفكروا فيه ، تأتي السكرة الأسبوعية لتجعل الحياة تستحق أن تعاش .

18

روى لنا شارلي ، في إحدى أمسيات السبت ، بالمشرب ، حكايةً بديعة . حاولْ أن تتصوره ـ سكران ، لكنه صاحٍ بما يكفي للحديث المستمر . دقّ على البار المعدني ، وصرخ يطلب السكوت :

«سكوتاً ، يا سادة ، يا سيدات ، سكوتاً . أتوسلُ إليكم! استمعوا إلى هذه الحكاية ، التي سأرويها لكم . حكاية تُذكَر ، حكاية ذات مغزى . إحدى مأثورات حياةٍ مهذّبة متحضرة . سكوتاً ، يا سادة ، يا سيدات!

حدث الأمر ، عندما كنت في شدّة . أنتم تعرفون ذلك ، وكيف هو ملعونٌ أن يقع رجلٌ مهذبٌ في ورطة كهذه . النقود لم تصل من البيت ، وقد رهنت كل شيء ، ولم يعد أمامي إلا العمل ، وهو ما لن أفعله . كنت أعيش آنذاك مع فتاة ـ كان اسمها إيفون ـ وهي فتاة ضخمة فلاّحة نصف بلهاء ، مثل آزايا ، ذات شعر أصفر ، وساقين سمينتين . لم نأكل نحن الإثنان شيئاً ، لثلاثة أيام . يا إلهي! أي عذاب! كانت الفتاة تقطع الحجرة ، جيئة وذهاباً ، ويداها على بطنها ، عاويةً مثل كلب ، خشية الموت جوعاً . كان الأمر رهيباً .

لكن الذكي لا يعرف المستحيل . طرحت على نفسي السؤال : ما أسهل طريقة للحصول على المال بدون عمل ؟ وفوراً جاء الجواب : للحصول بطريقة أسهل ، على المال ، يجب أن يكون المرء امرأة . أليس لكل امرأةٍ

ما تبيع ؟ وبينما كنت أتأمل في ما يمكن أن أفعله لو كنت امرأةً ، خطرتْ لي فكرة . تذكرت مستشفيات الولادة الحكومية ـ أنتم تعرفون مستشفيات الولادة الحكومية ؟ إنها أماكن تعطى فيها المرأة الحامل وجبات مجانية ، بدون أسئلة تُسأل . وذلك تشجيعاً للإنجاب . بمقدور أي امرأة الذهاب إلى هناك وطلب وجبة . وسوف تتلقّاها فوراً .

فكّرتُ : يا إلهي! آهٍ لو كنت امرأة! إذاً لأكلت في أحد هذه الأماكن يومياً . ترى ، من يستطيع الجزم بأن هذه المرأة حاملٌ أو غير حامل ، بدون فحص ؟

التفتُّ إلى إيفون ، وقلت لها : أوقفي هذا العواء الذي لا يطاق . لديّ فكرة للحصول على الطعام .

قالت : كيف ؟

قلت : بسيطة . اذهبي إلى مستشفى الولادة الحكومي ، أخبريهم أنك حاملٌ ، واطلبي طعاماً .

امتعضت إيفون ، وصاحت : لكنْ ، يا إلهي! أنا لستُ حاملاً!

قلت : مَن يهتم ؟ سهلٌ أن نتدبّر الأمر . ماذا تحتاجين أكثر من مخدّة... مخدتين في حال الضرورة ؟ الفكرة إلهامٌ سماويّ ، يا عزيزتي ، لا تضيعيها .

حسناً ، أقنعتُها في النهاية ، فاستعرنا مخدة ، وأكملتُ استعدادها ، وصحبتها إلى مستشفى الولادة . استقبلوها بأذرع مفتوحة ، وأعطوها حساء ملفوف ، ويخنة بقر ، وبطاطا مهروسة ، وخبزاً وجبناً وبيرة ، وكل أنواع النصائح عن طفلها . التهمت إيفون الطعام حتى كاد جلدها ينفجر ، ودبّرتْ أن تخبئ لي في جيوبها خبزاً وجبناً . وصرت آخذها إلى هناك كل يوم حتى جاءت نقودي . لقد أنقذنا ذكائي .

استمر كل شيء جيداً ، حتى العام المقبل . كنت مع إيفون ثانيةً ، وفي أحد الأيام كنا نتمشى في بوليفار بور رويال ، قرب الثكنات . فجأة فغرت إيفون فاها ، واحمرّت وابيضّت واحمرّت .

صاحت : «يا إلهي! أنظر إلى تلك القادمة! إنها الممرضة المسؤولة عن مستشفى الولادة . لقد حلّ بي الخراب!» .

قلت : «أسرعي! اركضي!» .

لكن بعد فوات الأوان... فلقد عرفت الممرضة ، إيفون ، وجاءت إلينا مباشرة ، وهي تبتسم . كانت امرأة ضخمة ، سمينة ، مع نظارة ذهب ، وخدين محمرّين كالتفاح . إنها امرأة ، ذات طبيعة أمومية متدخِّلة .

قالت بصوت رقيق : «آملُ في أن تكوني بحالة جيدة ، يا صغيرتي ؟ وطفلك ؟ أليس جيداً أيضاً ؟ أكان ولداً كما أردتِ ؟» .

أخذت إيفون ترتجف بشدة ، حتى اضطررت أن أمسك بذراعها . أخيراً قالت : «لا» .

«آه ، إذاً ، هي بنت ؟» .

لكنّ إيفون البلهاء ، فقدت رشدها كاملاً ، وقالت من جديد : «لا» .

أجفلت الممرضة ، وهتفت : «كيف ؟ لا ولد ، ولا بنت! كيف يحدث هذا ؟» .

تصوّروا هذه اللحظة ، أيها السادة والسيدات . كانت لحظة خطرة . صار لون إيفون مثل الشمندر ، وأوشكت أن تنفجر باكيةً . ثانية واحدة فقط لتعترف بكل شيء . السماء وحدها تعلم ما كان سيحدث . أما أنا فقد احتفظت برباطة جأشي ، وتقدمتُ لأنقذ الوضع .

قلت بهدوء : «كانا توأمين» .

هتفت الممرضة : «توأمان!» . وسُرَّتْ سروراً بالغاً ، وربتت على كتفي إيفون ، وقبلتها من كلا خديها ، أمام الناس .

«نعم ، توأمان...» .

19

في أحد الأيام ، ونحن في فندق س ، لخمسة أسابيع أو ستة ، اختفى بوريس بلا إشعار مسبق . وفي المساء رأيته ينتظرني في شارع ريفولي . ضرب كتفي مبتهجاً .

«صرنا أحراراً في النهاية ، يا صديقي! بإمكانك تقديم إشعار في الصباح . الأوبرج سيفتح غداً» .

«غداً ؟» .

«حسناً ، قد نحتاج يوماً أو يومين لتدبير الأشياء . لكن ، لا كافتيريا بعد اليوم ، على أي حال! لقد انطلقنا يا صديقي! واستعدت منذ الآن سترتي الطويلة من الرهن» .

كانت طريقة تصرفه جدّ عاطفية حتى لقد أحسست بأن ثمت شيئاً خطأً بالتأكيد ، ولهذا لم أشأ أن أترك عملي المضمون والمريح في الفندق . لكني كنت وعدتُ بوريس ، وهكذا أشعرتُ الفندق بتركي العمل ، وذهبت صباح اليوم التالي إلى أوبرج جيان كوتار . كان مغلقاً . مضيت أبحث عن بوريس ، الذي انسلّ ثانيةً من مسكنه ، وأخذ غرفة في شارع لاكروا نيفر . وجدته نائماً مع فتاة التقطها الليلَ الفائت ، فتاةٍ ذات «مزاج عاطفي جداً» كما كان أخبرني . أما بصدد المطعم فقد قال إن كل شيء مرتَّبٌ ، ولم تبقَ إلا أشياء قليلة صغيرة ، وبعدها نفتح المطعم .

في الساعة العاشرة استطعت أن أُخرج بوريس من الفراش ، ثم فتحنا باب المطعم . وبنظرة واحدة أدركت ما تعني «الأشياء القليلة الصغيرة» . كانت ، باختصار ، الآتية : التحويرات لم تُمسّ منذ زيارتنا الأخيرة . مواقد المطبخ لم تصل . الماء والكهرباء لم يوصَلا . وثمت أعمالٌ عدة لم تجرِ ، من صبغٍ وتلميع ونجارة . المعجزة فقط بمقدورها أن تفتح المطعم خلال عشرة أيام . بل أن مرأى الأشياء يجعل الشخص يميل إلى فكرة أن المطعم قد ينهار حتى قبل أن يُفتح . كان صاحب المطعم يعاني من ضيق اليد ، وقد شغَّلَ المستخدمين (نحن أربعة) كي يستخدمنا بدلاً من العمال . كان سيحصل على خدماتنا بالمجّان تقريباً ، إذ أن النادلين لا يتقاضون أجوراً ، ومع أنه سيدفع لي ، إلا أنني لن آكل قبل افتتاح المطعم . والحقُّ أنه غشّنا بعدة مئات من الفرنكات حين استدعانا من عملنا قبل أن يفتح المطعم . لقد تخلينا عن عمل جيدٍ ، مقابل لا شيء .

بالرغم من هذا ، كان بوريس مفعماً بالأمل . والفكرة الوحيدة التي تدور في رأسه ، هي أن في هذا المكان فرصته الأخيرة ليغدو من جديد نادلاً ذا سترة طويلة . ووصولاً إلى هذا كان مستعداً للعمل عشرة أيام بدون أجور ، مع إمكان أن يُترك عاطلاً في النهاية . كان يظل يردد : «صبراً! سيترتّب الأمر . انتظرْ حتى يفتح المطعم ، ولسوف نستعيد كل شيء . صبراً ، يا صديقي!» .

ولقد كنا بحاجة إلى الصبر ، إذ مرّت الأيام والمطعم لم يخطُ حتى خطوةً نحو الافتتاح . نظفنا الأقبية ، وثبّتنا الرفوف ، وصبغنا الجدران ، ولوّنّا الأرضية ، وصقلنا الأعمال الخشبية ، وغسلنا السقف ، لكن العمل الرئيس لم يتمّ بعدُ ، وهو مدّ الأنابيب ووصل الغاز والكهرباء ، ذلك لأن صاحب المطعم عاجزٌ عن دفع القوائم . والواضح أنه مفلسٌ تماماً ، فهو يرفض أدنى التكاليف ، ويتمتع بقدرة الاختفاء السريع حين يطالَب بنقود . كما أن مراوغته وأرستقراطيته تجعلان التعامل معه بالغ العُسر . الدائنون

المكتئبون يجيئون على مدى الساعات يسألون عنه ، وكنا ، حسب التعليمات ، نخبرهم بأنه في فونتينبلو ، أو سان كلو ، أو أي مكان آخر بعيد بما فيه الأمان .

في هذه الأثناء ، كنت أجوع ، أكثر فأكثر . تركت الفندق وفي جيبي ثلاثون فرنكاً ، وعليَ العودة ، فوراً ، إلى قوت يومي من الخبز اليابس . دبّرَ بوريس ، منذ البداية ، استلال ستين فرنكاً من صاحب المطعم ، كتسبيقة ، لكنه أنفق نصفها على استعادة ملابس النادل من الرهن ، والنصف الآخر على الفتاة ذات المزاج العاطفي . استدان ، كل يوم ، ثلاثة فرنكات من جول ، وهو نادل آخر ، لتصرف على الخبز . ولأيامٍ لم نكن نملك نقوداً للتبغ .

أحياناً ، كانت الطاهية تأتي لترى كيف تسير الأمور ، وعندما تشاهد المطبخ خالياً من القدور والمقلايات كانت تبكي عادةً . جول ، النادل الثاني ، رفض رفضاً باتاً المشاركة في العمل . كان مجرياً ، ذا سمرة خفيفة ، وملامح حادّة ، ونظارات ، وكان لبق الحديث ، طالب طب سابقاً ، ترك دراسته بسبب قلة المال . كان يتلذذ بالحديث حين الآخرون يعملون ، وقد أخبرني كل شيء عنه وعن أفكاره . ظهرَ أنه شيوعي ، له عدة نظريات غريبة (بإمكانه البرهنة بالأرقام أن من الخطأ أن نعمل) ، وكان أيضاً ، مثل معظم المجريين ، ذا اعتزازٍ بالنفس ، وإباء . الرجال الأباة الكسالى لا يصيرون نادلين جيدين . أعزُّ ما يتباهى به جول ، أن زبوناً في مطعم أهانه مرةً ، فما كان من جول إلا أن يسكب صحناً من الحساء الساخن أسفل عنق الزبون ، ويغادر المطعم رأساً بدون أن ينتظر حتى أمر طرده من العمل .

مع كل يوم يمرّ ، كان جول يغدو أكثر حنقاً على خديعة صاحب المطعم لنا . كانت لديه طريقة خطابية متقطعة في الكلام . واعتاد المسير جيئة وذهاباً ، ملوِّحاً بقبضته ، محاولاً تحريضي ضد العمل :

«ضع هذه الفرشاة على الأرض ، أيها الأحمق! أنت وأنا من أقوامٍ أبيّةٍ ، نحن لا نعمل مقابل لا شيء ، مثل هؤلاء الأقنان الروس . أقول لك إن

الاحتيال علينا بهذه الطريقة هو عذابٌ لي . مرّت عليّ أوقاتٌ من حياتي ، تقيّأتُ فيها لأن شخصاً احتال عليّ بخمسة فلوس . نعم تقيّأتُ من غضبي .

وإلى جانب ذلك ، يا عجوزي ، لا تنس أنني شيوعي . تسقط البورجوازية! هل رآني أحدٌ في عملٍ إن استطعت تجنّبه ؟ لا . وأنا لا أكتفي بألاّ أرهق نفسي في العمل ، مثلكم ، أيها الحمقى ، لكني أسرق أيضاً ، فقط لأدلّلَ على استقلالي .

مرةً كنت في مطعم حاول صاحبه أن يعاملني معاملة كلب . وانتقاماً لنفسي اكتشفت طريقة لسرقة الحليب من عُلبه ، وختمها ثانية ، فلا يعرف أحدٌ بما جرى . أقول لك إنني ظللت أعبّ من ذلك الحليب ليل نهار . أشرب ، يومياً ، أربعة ليترات حليب ، مع نصف ليتر قشدة . كاد صاحب المطعم يفقد صوابه من تبدّد الحليب الذي لا يعرف له سبباً . أنا لم أفعل هذا لأني أحب الحليب ، أنت تفهم ، وإنما لأني أكره الحليب . المسألة مسألة مبدأ ، مبدأ فقط .

حسناً . في اليوم التالي ضبطني صاحب المطعم أسرق الحليب . قال : « أنت مطرود . تترك العمل في نهاية الأسبوع » . قلت : « عفواً ، يا سيدي ، سوف أترك هذا الصباح » . قال : « لا . لن تترك . فأنا لا أستغني عنك حتى السبت » . قلت : « حسنٌ جداً ، يا مولاي » . وفكرتُ مع نفسي : « دعنا نرى من سيتعب أولاً » ، وشرعت أكسر الأواني . كسرت تسعة أطباق في اليوم الأول ، وثلاثة عشر في الثاني . بعدها كان صاحب المطعم مبتهجاً لمغادرتي .

آه ، أنا لستُ واحداً من رُوسِكَ الموجيك... » .

مرت عشرة أيام . كان وقتاً سيئاً . كنت بلا نقود تماماً ، واستحقَ إيجاري منذ سبعة أيام . كنا ندور في المطعم الفارغ البغيض ، أشد جوعاً من أن نكمل العمل المتبقي . الآن ، بوريس وحده ، هو الذي يعتقد بأن المطعم سوف يُفتح .

لقد وضع نصب عينيه أن يكون رئيس نادلين ، واخترع نظرية تقول إن أموال المالك مربوطة في أسهم وإنه ينتظر اللحظة المناسبة لبيع الأسهم . في اليوم العاشر لم أجد ما آكله أو أدخِّنه ، وأخبرتُ المالك أنني لا أستطيع الاستمرار بدون تسبيقةٍ يدفعها ، وبمثل خفّته المعتادة وعدني بدفع التسبيقة ، لكنه اختفى ، حسب طريقته . مشيت بعضاً من الطريق إلى المسكن ، لكني لم أكن مستعداً لمشهدٍ مع مدام ف حول الإيجار ، هكذا أمضيت الليل على مصطبة البوليفار . كانت وضعية غير مريحة بالكامل ـ ذراع المصطبة يحفر ظَهرك ـ والليل أشد برداً مما توقعت . والوقت متطاولٌ في الساعات المضجرة المديدة بين الفجر والعمل ، مهيّأً للتفكير بمبلغ حماقتي حين أسلمت أمري إلى أيدي هؤلاء الروس .

فجأةً ، تبدّل الحظّ ، صباحاً ، واضحٌ أن المالك توصّل إلى تفاهم مع دائنيه ، فقد جاء والمالُ في جيوبه ، وجعل التحويرات تستأنف ، وأعطاني تسبيقةً . اشترينا ، أنا وبوريس ، معكرونا ، وقطعة من كبد حصان ، وأكلنا أول وجبة ساخنة لنا في عشرة أيام .

جيء بالعمال ، وأجريت التعديلات بسرعة ورداءة لا تصدَّقان . مثلاً ، كان ينبغي أن تغطى الموائد بنسيج البيز الأخضر ، لكن المالك حين وجد البيز غالياً ، اشترى بدلاً منه بطانيات عسكرية مستعملة ، تطلق رائحة عرقٍ لا تطاق . مفارش الموائد (كانت ذات مربعات ، كي تتماشى مع الديكورات «النورماندية») سوف تغطيها بالطبع .

في الليلة الأخيرة ، استمررنا نعمل حتى الثانية صباحاً ، كي نجعل الأشياء جاهزة . الأواني لم تصل إلا في الثامنة ، وينبغي غسلها لأنها جديدة . السكاكين والملاعق والشوكات لم تصل إلا في الصباح التالي ، وكذلك قطع القماش ، ولهذا كان علينا أن ننشف الأواني بقميص المالك وبغطاء وسادة من البوّاب . بوريس وأنا ، قمنا بالعمل كله . كان جول يتكاسل ، والمالك وزوجته يجلسان في البار مع أحد الدائنين ونفرٍ من

الأصدقاء الروس ، يشربون احتفالاً بالمطعم . الطاهية في المطبخ ورأسها على الطاولة ، تبكي ، لأنها توقعت أنها سوف تطهي لخمسين شخصاً ، بينما القدور والمقلايات تكفي لعشرة فقط . حوالي منتصف الليل حدثت مشادة مخيفة بين عدد من الدائنين الذين جاؤوا لأخذ ثمانية قدور حساء نحاسية كان المالك حصل عليها دَيناً . وقد استُرضي هؤلاء بنصف زجاجة براندي .

جول وأنا لم نستطع أخذ المترو الأخير إلى المسكن ، وكان علينا النوم على أرضية المطعم . أول ما شاهدناه في الصباح فأران كبيران جالسان على طاولة المطبخ ، يأكلان لحم خنزير هناك . إنها لعلامةُ شؤم . وتأكدتُ أكثر من السابق أن أوبرج جيان كوتار سوف يكون عملاً فاشلاً .

20

شـغّلني المـالك ، غاسـلَ صحـون في المطبخ ، وهذا يعني أن عـملي هو غسـل الصحون ، وتـنظيف المطبخ ، وإعداد الخضروات ، والشاي ، والقـهوة والشطائـر ، والقيـام بالطهي البـسيط ، وأداء مـهـمات مـثل إيصال رسـائل... الخ . والشـروط كانت ، كالمعتاد ، خمسـمائة فرنك في الشـهر ، والطعام ، لكن لم يكن لي يوم عطلة ، ولا ساعات عمل محدَّدة . في فندق س ، عرفت تزويد الطعام Catering كأفـضل ما يكون ، مع مالٍ غيـر محدود ، وتـنظيم جيد . أما الآن ، في الأوبرج ، فقد عرفـت كيف تؤدَى الأمور في مطعم بالغ الرداءة . المـسألة تسـتحق الوصف ، ففي بـاريس مئات المطاعم المـماثلة ، وكل زائر يأكل في أحدها بين حين وآخر .

عليّ أن أضـيف ، أن الأوبرج لم يـكن محلَّ أكلٍ عـادياً رخيـصاً يرتاده الطلبة والعمال . فنحن لا نقدم وجبة كافيةً بأقل من خمسـة وعشرين فرنكاً ، كـمـا أن مطعـمنا ذو منظر حـسـن ، ومظهـر فني ، مـمـا يـرفع مكانتنا الاجتمـاعية . ثمت الصور غيـر المحتشمة في البـار ، والديكورات النورماندية ـ عوارض مـزيفة على الجدار ، ومصابيح كـهرباء في هيأة شـمـوع ، وفخّار « فـلاحي » ، وحـتى وَضَمٌ عـالٍ عند البـاب ـ والمـالك ورئيس النادلين كـانا ضابطين روسـيين ، والعديد من الزبائن لاجئون روس ذوو ألقاب . وباختـصار كان مطعمنا رفيعاً .

بالرغم من هذا ، كـانت الأحـوال خلف باب المطبخ تليق بـزريبــة خنازير . فهذه كانت ترتيبات خدمتنا .

طول المطبخ خمسة عشر قدماً ، وعرضه ثمانية . نصف هذه المساحة تحتله المواقد والطاولات . وينبغي وضع القدور كلها على رفوف بعيدة عن التناول ، ولا مكان إلا لسلّة قمامة واحدة . هذه السلّة تمتلئ حتى أعلاها في الظهر عادةً ، والأرضية مغطاة بعمق بوصةٍ من الأكل الموطوء بالأقدام .

لدينا ثلاثة مواقد غازية فقط بدون أفران مما يقتضي إرسال قطع اللحم الكبيرة إلى المخبز كي تشوى .

ليس لدينا مكان لحفظ المؤونة . وبدلاً منه هناك ظلّةٌ نصف مسقوفة في الباحة ، تتوسطها شجرة . واللحوم والخضروات وما إليها ملقاة على الأرض العارية ، معرّضة لغزو الفئران والقطط .

لا ماء ساخناً يُعتمد عليه بصورة مستمرة . ولهذا يسخَّن الماء بالقدور لغرض الغسيل ، وليس من موضعٍ لهذه القدور حين تطهى الوجبات ، فنضطر إلى غسل الصحون بالماء البارد . إن هذا يعني مع الصابون الناعم وماء باريس القاسي مسحَ الشحوم بمزق من ورق الصحف . كما أن لدينا نقصاً في القدور بحيث أُضطرُ إلى غسل القدر حال الانتهاء منه ، بدلاً من تركه حتى المساء . إن هذا كله قد يهدر ساعة كاملة يومياً . وبسبب التقتير في الإنفاق ، كان المالك يطفئ المصابيح الكهربائية في الساعة الثامنة مساءً ، ولا يسمح لنا إلا بثلاث شموع في المطبخ . وعندما قالت الطاهية إن رقم ثلاثة لا يجلب الحظ ، بقيت لدينا شمعتان فقط .

مطحنة قهوتنا مستعارة من مشرب قريب ، وسلّة قمامتنا ومكانسنا من البوّاب .

بعد الأسبوع الأول ، لم تعد كمية غسيل من محل التنظيف ، بسبب عدم دفع القائمة . وكانت لنا متاعب مع مفتش العمل حين اكتشف أن ليس بين المستخدمين فرنسيون ، والتقى بالمالك عدة مرات ، وأظن أن المالك

قدّم له رشوة . مازلنا مدينين لشركة الكهرباء ، وعندما عرف الدائنون أننا نسترضيهم بالمشروبات فاتحة الشهية ، صاروا يجيئوننا كل صباح . نحن مدينون للبقال أيضاً ، وكان بالإمكان توقف البيع دَيناً لولا أن زوجة البقال (امرأة في الستين ذات شاربين) كانت معجبةً بجول الذي يُرسل كل صباحٍ ليتملّقها . وعليّ أيضاً أن أصرف ساعة ، كل يوم ، أساومُ على الخضروات في شارع كوميرس ، كي أوفر بضعة سنتيمات .

هذه نتائج فتح مطعم برأسمال غير كاف . في هذه الظروف ، كان عليّ ، مع الطاهية ، أن نتوقع إعداد ما بين ثلاثين وجبة إلى أربعين يومياً ، كي نجد أنفسنا نعدّ مائة . منذ اليوم الأول كان الأمر شديداً علينا . ساعات عمل الطاهية بين الثامنة صباحاً حتى منتصف الليل . وأنا أعمل من السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف من الصباح التالي - سبع عشرة ساعة ونصف ، بدون انقطاع ، تقريباً . لم نكن لنستطيع الجلوس حتى الخامسة مساء ، وآنذاك أيضاً لم نكن لنجد كرسياً إلا سلّة القمامة . أما بوريس الساكن قرب المطعم ، وغير المحتاج إلى العودة بالمترو الأخير إلى المسكن ، فقد كان يعمل من الثامنة صباحاً حتى الثانية من صباح اليوم التالي - ثماني عشرة ساعة يومياً ، سبعة أيام في الأسبوع . مثل هذه الساعات ، مع أنها غير عادية ، ليست استثنائية في باريس .

لقد استقرت الحياة على رتابة جعلت فندق س يبدو مثل عطلة عيد . كل يوم في الساعة السادسة أجبرُ نفسي على ترك الفراش ، بلا حلاقة ، وأحياناً بلا استحمام ، وأُسرع إلى ساحة إيطاليا ، مناضلاً للحصول على مكان في المترو . في الساعة السابعة أكون في منعزَلِ المطبخ البارد القذر ، مع قشور البطاطا والعظام وذيول السمك التي تغطي الأرضية ، وأكوام الصحون الملتصقة ببعضها وهي في شحومها تنتظرني طوال الليل . لكن ليس بمقدوري بعدُ ، أن أبدأ أغسلُ الصحون ، إذ عليّ أن أحضر الحليب وأعدّ القهوة ، فقد وصل الآخرون في الثامنة وهم ينتظرون أن يجدوا القهوة

جاهزة . كما أن ثمت ، دائماً ، عدداً من الصواني النحاس للغسل . هذه الصواني النحاس هي جحيم غاسل الصحون . إذ ينبغي أن تجلى بالرمل والليف المسلسل ، كل واحدة منها ، لعشر دقائق ، ثم يُلمَّع خارجها بالبراسّو . ومن حسن الحظ أن فن صنعتها أخذ يختفي تدريجاً من المطابخ الفرنسية ، وإن ظل بإمكان المرء شراؤها مستعملةً .

حين أشرع أغسل الصحون ، تقول لي الطاهية أن أشرع أقشر البصل ، وحين أبدأ أقشر البصل يأتي المالك ويرسلني خارج المطعم لأشتري الملفوف . وإذ أعود مع الملفوف ترسلني زوجة المالك إلى دكان يبعد نصف ميل لأشتري أحمر شفاه . ما أن أعود حتى أرى أمامي المزيد من الخضروات المنتظِرة ، ومن الصحون اللازم غسلُها . وبهذه الطريقة تكدَّسُ لاكفاءاتُنا عملاً على سواه ، طوال اليوم ، فلا نظفر من ذلك بشيء .

حتى العاشرة ، تسير الأمور يسيرةً ، بالمقارنة . ومع أننا نعمل بسرعة إلا أن الواحد منا لا يفقد السيطرة على أعصابه . الطاهية تجد وقتاً للحديث عن ميولها الفنية ، وتسأل إن كنت أظن تولستوي رائعاً ، وتغني بصوت سوبرانو بديع وهي تفرم لحم البقر على اللوحة .

لكن ، في الساعة العاشرة يبدأ النادلون يطالبون بغدائهم الذي يتناولونه مبكراً ، وفي الحادية عشرة يأتي أول الزبائن . فجأةً يغدو كل شيء عجلةً وسوء مزاج . لم تكن في الأوبرج تلك الصيحات والاندفاعات الهائجة التي في فندق س ، إلا أنه جوٌّ من الاختلاط والحسد الواطئ والسخط . اللارضا كان في قرارة هذا كله . المطبخ مكتظ إلى حدٍ لا يطاق ، والأطباق ينبغي وضعها على الأرض ، وعلى المرء أن يحاذر المشي فوقها . ردفا الطاهية الفارهان يرتطمان بي إذ تتحرك جيئةً وذهاباً . وينطلق منها سيلُ أوامر لا ينقطع :

«أيها الأبله الفضيحة! كم مرةً أخبرتك ألا تجرح الشمندر ؟ عجِّلْ ، دعني أصل إلى المغطس! أبعِدْ تلك السكاكين . اشتغلْ بالبطاطا . ماذا فعلتَ بمصفاتي ؟ أوه ، اتركْ حبّات البطاطا هذه . ألم أقل لك أن تصفّي ماء اللحم ؟

ارفعْ إناء الماء ذاك عن الموقد . لا تهتم بالغسل . قطِّعْ هذا الكرفس . لا . ليس هكذا ، أيها الأحمق ، بل هكذا . آ! انتبه ، لا تدع البازلاء تغلي أكثر من اللازم! الآن ، اشتغلْ وأزِلْ صَدف أسماك الرنجة هذه . أنظر! أتظن هذا الصحن نظيفاً ؟ امسحْهُ بصدريتك . ضع تلك السلطة على الأرض ، تماماً حيث يمكن أن أسير عليها! انتبه ، ذلك القدر يغلي أكثر مما يلزم! أنزِلْ تلك المقلاة . لا... الأخرى . ضع هذه على المشواة . ارمِ تلك البطاطا . لا تضع وقتك ، ارمها على الأرض . ادعسْ عليها . الآن ، انثر بعض النشارة . هذه الأرضية مثل ساحة تزلّج . انتبه أيها الأحمق ، ذلك الستيك يحترق! يا إلهي... لماذا أرسلوا إليّ أبله باعتباره غاسل صحون ؟ مع من تتكلم ؟ أتعرف أن عمتي كانت كونتيسة روسية ؟ إلخ . إلخ . إلخ .

يظل الحال على هذا المنوال حتى الساعة الثالثة ، بلا أي تنويع ، سوى أنه في حوالي الساعة الحادية عشرة تصاب الطاهية ، عادةً ، بنوبة عصبية ، وبانهمار دموعٍ . الوقت بين الثالثة والخامسة راحةٌ للنادلين ، لكن الطاهية تظل منهمكة ، وأنا أشتغل بأقصى سرعة ، فثمت أكداسٌ من الصحون تنتظر ، وعليّ أن أسابق الزمن لأغسلها كلها ، أو أكاد ، قبل أن يبدأ العشاء . وكان الغسل جهداً مضاعفاً بسبب الظروف البدائية ـ لوح تنشيف متمعج ، ماء فاتر ، قماشات منقّعة ، ومغطس ينحبس كلّ ساعة ، مرةً .

في الساعة الخامسة ، نغدو أنا والطاهية نترنّح ، فنحن لم نجلس ، ولم نرتح ، ولم نأكل ، منذ السابعة . وقد ألِفْنا أن ننهار ، هي على سلّة القمامة ، وأنا على الأرض ، نشرب زجاجة بيرة ، ونعتذر عما قيل في الصباح . الشاي هو ما يبقينا متوازنين . وكنا حريصين على أن يظل الشاي في متناولنا دائماً ، لنشرب منه الكثير طوال اليوم .

في الخامسة والنصف تبدأ العجلة والجلبة من جديد ، أسوأ من قبل ، ذلك لأن الجميع منهكون . للطاهية نوبة عصبية في السادسة ، وأخرى في التاسعة . وتأتي النوبتان منتظمتين ، حتى صار بالإمكان معرفة الوقت بهما .

كانت تنهار على سلّة القمامة ، وتبدأ تنشج في حالة هستيريّة ، وتعلن صارخةً أنها لم تفكر ، البتة ، في أن تعيش حياة كهذه ، لا يمكن أن تتحملها أعصابها ، لقد درست الموسيقى في فيينا ، وعندها زوجٌ مُقعدٌ ترعاه ، إلخ . إلخ . في وقت غير الذي نحن فيه كان المرء سيأسف لها ، لكننا ، نحن المتعبين ، لم نكن نحسُّ إلا بالانزعاج من صوتها المفعم بالنشيج . وقد اعتاد جول الوقوف في المدخل ومحاكاة صوتها . زوجة المالك تنقّ ، وبوريس وجول يتعاركان طيلة اليوم ، لأن جول تهرّب من عمله ، فاستولى بوريس ، باعتباره رئيس النادلين ، على حصة الأسد من الهِبات . في اليوم الثاني فقط لافتتاح المطعم ، تضاربا في المطبخ على هِبةٍ بخمسة فرنكات ، وقد فصلنا أنا والطاهية بينهما . الشخص الوحيد الذي يظل محتفظاً بهدوئه هو المالك . إنه يداوم الساعات التي نداومها ، لكنه لا يعمل ، إذ أن زوجته هي التي تدير الشؤون . عمله الوحيد ، إلى جانب طلب التجهيزات ، كان الجلوس في البار ، وتدخين السجائر ، والحفاظ على وضعية الشخص المهذَّب ، وكان يفعل ذلك حتى الكمال .

كنا ، أنا والطاهية ، نجد وقتاً لنتعشى بين العاشرة والحادية عشرة . في منتصف الليل تسرق الطاهية علبة طعام لزوجها ، وتخبئها تحت ثيابها ، وتغادر المكان ، مغمغمةً أن هذه الساعات سوف تقتلها ، وأنها ستقدم إشعاراً في الصباح . جول أيضاً يغادر في منتصف الليل ، عادةً بعد اختصام مع بوريس الذي عليه الاهتمام بالبار حتى الساعة الثانية . بين الساعة الثانية عشرة ، والثانية عشرة والنصف ، أفعلُ أنا ما أستطيعه من غسل الصحون . لا وقت لديّ كي أحاول أن أقوم بعملي خير قيام ، وقد اعتدتُ ، ببساطة ، أن أمسح الشحوم عن الصحون بمناديل المائدة . أما عن أوساخ الأرضية ، فإني أتركها في مكانها ، أو أُبعدها عن النظر ، تحت المواقد . في الساعة الثانية عشرة والنصف ، أرتدي سترتي ، وأسرع خارجاً .

المالك ، لطيفاً كعادته ، كان يستوقفني وأنا أقطع الممر عبر البار ،

ويقول لي : «كم تبدو متعباً ، يا سيدي العزيز! أرجوك أن تتفضّل عليّ ، بقبول كأس البراندي هذا» .

كان يناولني كأس البراندي ، باحترام ، حتى كأنني دوقٌ روسيٌ ، لا غاسل صحون . إنه يعاملنا ، جميعاً ، هذه المعاملة . وهي تعويضٌ عن عملنا سبع عشرة ساعة في اليوم .

المترو الأخير ، يكون كالمعتاد ، شبه فارغ . وهذا أمرٌ ذو نفع عظيم ، إذ بإمكان المرء أن يجلس وينام ، ربع ساعة . على العموم ، أكون في الفراش ، الساعة الواحدة والنصف . أحياناً لا أستطيع أن أدرك القطار ، فأنام على أرضية المطعم ، لكنّ هذا لا يهمني ، إذ بمقدوري النوم على الحجارة ، آنذاك .

21

استمرت الحياة هكذا ، حوالي أسبوعين ، مع زيادة طفيفة في العمل ، ناتجة عن الازدياد في عدد زبائن المطعم . كنت أستطيع أن أكسب ساعة في اليوم ، لو سكنتُ في غرفةٍ قرب المطعم ، لكن بدا من المستحيل أن أجد وقتاً لتغيير المسكن ـ أو ، لذلك السبب ، أن أحلق شعري ، وأنظر إلى صحيفة ، أو حتى أن أخلع ملابسي بالكامل . بعد عشرة أيام استطعت أن أجد ربع ساعة ، فكتبت إلى صديقي ب ، في لندن ، أسأله إن كان بمقدوره إيجاد عملٍ لي ، أياً كان ـ أي شيء ، يسمح لي بالنوم أكثر من خمس ساعات . أنا ، بكل بساطة ، لم أعد قادراً على الاستمرار في العمل سبع عشرة ساعة يومياً ، مع أن ثمت أناساً كثيرين لا يهمّهم هذا . حين يكون المرء منهكاً ، يجد مواساتَه في التفكُّر في آلاف الناس الذين يعملون في مطاعم باريس ، هذه الساعات كلها ، والذين يظلون يعملون ، لا لبضعة أسابيع ، بل لسنين وسنين . في مشربٍ قرب نُزلي ، فتاةٌ تشتغل من الساعة السابعة صباحاً حتى منتصف الليل ، لمدة عام كامل ، ولا تجلس إلا لتناول وجباتها . أتذكر أنني عرضتُ عليها أن تذهب معي للرقص ، فضحكت وقالت إنها لم تصل إلى أبعد من ركن الشارع منذ عدة شهور . كانت مسلولة ، وماتت حوالي وقت مغادرتي باريس .

بعد أسبوع واحد ، كنا جميعاً مرهقين عصبياً بسبب العمل ، ما عدا

جول الذي كان يتهرب باستمرار . المشادات التي كانت متقطعة في البداية ، أمست الآن دائمة . ولساعات كان أحدهم يتابع النقّ الذي يتصاعد في عاصفة شتائم كل بضع دقائق . تصرخ الطاهية «أعطني تلك القِدرة ، أيها الأبله!» (كانت أقصر من أن تطال الرفوف حيث القدور) . وأجيبها «أنزليها بنفسك ، أيتها العاهرة العجوز» . يبدو أن تعابير كهذه تولد تلقائياً من جو المطبخ .

نحن نختصم لأتفه الأشياء . سلّة القمامة مثلاً صارت مصدراً للمشادات لا ينتهي ـ أتوضعُ حيث أريد أنا فتكون في طريق الطاهية ، أم كما تريد هي فتكون بيني وبين المغطس ؟ في أحد الأيام ظلت تنقّ وتنقّ حتى بلغ بي الغضب مبلغه فرفعت سلة القمامة ووضعتها وسط الأرضية ، تماماً في ممشى الطاهية المألوف .

قلت : «الآن ، أيتها البقرة ، انقليها بنفسك» .

كانت السلة أثقل من أن تستطيع المرأة العجوز المسكينة رفعها . فجلست ، ووضعت رأسها على الطاولة وانفجرت تبكي ، وأنا أسخر منها . إنه تأثير الإعياء في سلوك الشخص .

بعد أيام قليلة كفّت الطاهية عن الكلام على تولستوي وميولها الفنية ، ولم نعد نتحدث مع بعضنا إلا في أمور العمل . بوريس وجول لم يعودا يتكلمان مع بعضهما ، كما أنهما كليهما لا يتكلمان مع الطاهية . حتى أنا وبوريس لم نعد نتكلم مع بعضنا إلا لماماً . كنا اتفقنا من قبل على أن شتائم ساعات العمل تُنسى بانتهاء العمل ، لكننا تشاتمنا بألفاظ أقبح من أن تُنسى ـ إلى جانب أنه لم يكن ثمت انتهاء عمل أو توقّف . صار جول أكثر كسلاً مع الأيام ، وكان يسرق الطعام باستمرار ـ من إحساسٍ بالواجب ، كما يقول . وكان يسمّي بقيّتنا ، الصُفر ، حين لا نشاركه السرقة . إن له نفساً ماكرة غريبة . وأخبرني متباهياً أنه عصَرَ في أحد الأيام خرقة غسيل قذرة في صحن حساء زبون ، قبل أن يقدم الصحن ، لسبب واحد فقط ، هو الانتقام من أحد أبناء البورجوازية .

صار المطبخ أقذر ، والفئران أجسر ، مع أننا نصيد بعضها . أدور ببصري في الحجرة القذرة ، وأرى اللحم الطري الملقى على الأرض المزبلة ، والقدور الباردة الملطخة المتناثرة في كل مكان ، والمغطس المحتبس المغطى بالشحوم ، فأتساءل إن كان في العالم مطعمٌ رديء مثل مطعمنا . لكن الثلاثة الآخرين كلهم قالوا إنهم كانوا في أماكن أشدّ قذارة . كان جول يسعد برؤية الأشياء قذرةً . وبعد الظهر ، حين لا يكون عنده مزيدٌ من العمل ، اعتاد أن يقف في مدخل المطبخ ، ويهزأ بنا لأننا نجهد أنفسنا في الشغل :

« أيها الأحمق! لمَ تغسل ذلك الصحن ؟ امسحه ببنطلونك . من يهتم بالزبائن ؟ هم لا يعرفون ما يجري . ما هو عمل المطعم ؟ أنت تقطّعُ دجاجةً لزبون ، الدجاجة تسقط على الأرض . أنت تعتذر ، تنحني ، وتخرج . وتعود بعد خمس دقائق ، عبر باب آخر ـ بالدجاجة نفسها . ها هو ذا عمل المطعم »... الخ .

والعجيب ، أن أوبرج جيان كوتار كان مطعماً ناجحاً ، بالرغم من كل القذارة والخَرَق . في الأيام القليلة الأولى ، كان كل زبائننا من الروس ، أصدقاء المالك ، وجاء بعدهم الأميركيون وأجانب آخرون ـ ليس من فرنسيين . وفي إحدى الليالي حدث اهتياجٌ كبير لأن أول فرنسيَ جاء . للحظةٍ ، نسينا خصوماتنا ، واتحدنا في جهودنا لتقديم عشاء جيد . بوريس انسلَّ إلى المطبخ ، وأشار بإبهامه فوق كتفه ، وهمس في جوٍ تآمريّ : « شـ ـ شـ! انتباه! فرنسيّ! » .

بعد دقيقة جاءت زوجة المالك وهمست : « انتباه! فرنسيّ! احرصوا على تقديم حصة مضاعفة من الخضروات له » .

بينما الفرنسي يأكل ، وقفت زوجة المالك خلف شبكة باب المطبخ ، تراقب تعابير وجهه . في الليلة التالية ، عاد الفرنسي مع فرنسيين إثنين . وهذا يعني أن سمعة مطعمنا تتحسن ، إذ أن أوضح علامة على المطعم السيء أن يرتاده الأجانب فقط . وقد يعود سبب نجاح المطعم ، جزئياً ،

إلى أن المالك ، بالتماعة ذكاءٍ ، جهّزه بسكاكين مائدة ، حادّة جداً . والسكاكين الحادة ، بالطبع ، سر المطعم الناجح . وقد ابتهجت لهذا ، إذ أنه أجهزَ على أحد أوهامي ، وهو أن الفرنسيين يعرفون جودة الطعام بمجرد رؤيته . ومن يدري ، فربما كنا مطعماً فائق الجودة بمقاييس باريس ، حيث يعجز المرء عن تصوّر المطاعم الرديئة .

بعد أيام قليلة من كتابتي إلى ب ، ردّ قائلاً إن هناك عملاً لي بمقدوره الحصول عليه . هذا العمل هو العناية بشخص مصاب ببَلَهٍ خَلْقيّ ، مما رأيته علاج راحة بعد أوبرج جيان كوتار . تخيلت نفسي أطوف الدروب الريفية ، وأضرب بعصاي الأشواك ، وآكل حَمَلاً مشوياً ، وكعكة دبس السكّر ، وأنام عشر ساعات ليلاً في أغطية معطرة باللافندر . أرسل لي ب ورقة بخمسة جنيهات لدفع أجرة سفري واستعادة ملابسي من الرهن ، وبمجرد وصول المال ، قدّمت إلى المطعم إشعاراً ليوم واحد ، وتركت . تأثّر المالك لمغادرتي بهذه السرعة ، فهو مفلسٌ كالعادة ، وعليه أن يدفع أجوري ناقصةً ثلاثين فرنكاً . قدّم لي ، على أي حال ، كأس براندي كورفوازييه ٤٨ ، واعتقدَ بهذا أنه سدّد ما عليه . شغّلوا تشيكياً ، غاسل صحون ماهراً ، بدلاً مني ، وطردوا الطاهية العجوز المسكينة بعد أسابيع قليلة . علمت فيما بعد ، أن ساعات غاسل الصحون خُفضت إلى خمس عشرة ساعة ، إذ صار في المطعم شخصان ماهران . هذه الساعات الخمس عشرة لا يمكن لأي أحد تخفيضها ثانيةً ، إلا إذا تمّ تحديث المطبخ .

22

مهما كانت قيمة آرائي في حياة غاسل صحون باريسيّ ، فإني أريد أن أبيّنها . حين يفكر المرء بها ، يجد من الغريب ، أن آلاف الناس في مدينة حديثة عظيمة ، عليهم أن يُمضوا ساعات يقظتهم في غسل الصحون داخل جحورٍ ساخنة . السؤال الذي أقدِّمه هو : لماذا تستمر هذه الحياة ـ ما غايتها ، ومن يريد استمرارها ، ولماذا ؟ أنا لا أتخذُ مجرد الموقف المتمرد الكسول . بل أحاول أن أتفكرَ في الأهمية الاجتماعية لحياة غاسل الصحون . أعتقدُ ، بدءاً ، بالقول إن غاسل الصحون هو أحد عبيد العالم الحديث . لا حاجة إلى التوجع كثيراً عليه ، إذ أن حالته أفضل من عمالٍ يدويين عديدين ، غير أنه يظل بلا حرية أكثر مما لو كان يشترى ويباع . عمله ذليل وبلا فن . والأجور التي يتقاضاها لا تتيح له أكثر من البقاء حياً . عطلته الوحيدة هي الطرد . إنه محروم من الزواج ، فإن تزوّج كان على زوجته أن تعمل أيضاً . وباستثناء ضربة حظ سعيدة ، لا منجاة له من هذه الحياة ، إلا في السجن . في هذه اللحظة ، هناك في باريس أناسٌ ذوو شهادات جامعية يغسلون الصحون مقابل عشرة فرنكات أو خمسة عشر فرنكاً في اليوم . ليس بالمقدور القول إن هذا بسبب كسلهم ، فالعاطل لا يمكن أن يصير غاسل صحون . غير أن الرتابة أطبقت عليهم ، حتى غدا التفكير مستحيلاً . ولو فكر غاسلو الصحون قليلاً لشكّلوا نقابة ، منذ أمد بعيد ، وأضربوا عن

العمل ، مطالبين بمعاملة فضلى . لكنهم لا يفكرون ، لأنهم لا يملكون هذا الترف ، فقد حوّلتهم حياتهم إلى عبيد .

السؤال هو ، لماذا تستمر هذه العبودية ؟ يتفق الناس على أن لكل عمل غايةً سليمة . يرون شخصاً سواهم يؤدي عملاً غير مقبول ، فيظنون أنهم حلوا الإشكال بالقول إن العمل ضروري . استخراج الفحم ، على سبيل المثال ، عملٌ شاقٌ ، لكنه ضروري ـ يجب أن يكون لدينا فحم . العمل في المجاري غير لطيف ، لكن يجب أن يعمل شخص ما في المجاري . والأمر مماثلٌ في عمل غاسل صحون . يجب أن يأكل أناسٌ في المطاعم ، ولهذا يجب على أناسٍ آخرين أن يغسلوا الصحون لثمانين ساعة في الأسبوع . إنه عمل حضارة ، ولهذا لا يخضع للمُساءلة . هذه النقطة ينبغي التفكير فيها .

هل عمل الغاسل ضروري للحضارة ؟

لدينا شعور بأنه يجب أن يكون عملاً «شريفاً» ، لأنه شاقّ ، وكريهٌ ، ولأننا جعلنا من العمل اليدوي نوعاً من الصنم . نشاهد رجلاً يقطع شجرة ، فنقول إنه يسدُّ حاجة اجتماعية ، لمجرد أنه استعمل عضلاته ، ولا يخطر ببالنا أنه قطع شجرة جميلة ، فقط ليهيّء مكاناً لتمثالٍ شنيع . أظن الأمر ينطبق على غاسل الصحون . إنه يكسب خبزه بعرق جبينه ، لكن لا يستتبع ذلك أنه كان يؤدي عملاً نافعاً . ربما كان يُديم ترفاً هو في الغالب ليس ترفاً .

وكمثال على ما أعنيه بالترف الذي هو ليس ترفاً ، آخذُ حالةً متطرفة ، لا يراها المرء في أوروبا : عامل الريكشو الهندي ، وحصان العربة . في كل بلدة بالشرق الأقصى مئاتٌ من عمال الريكشو ، وهم سود تعساء ، يزن واحدهم حوالي خمسين كيلو ، ويلبسون الوزْرات . بعضهم مريض ، وبعضهم في الخمسين من العمر . أميالاً بعد أميالٍ يركضون ، تحت الشمس والمطر ، خافضين رؤوسهم ، يجرّون ، ويجرون ، والعرق يتحدّر من شواربهم الشائبة . وحين يبطئون يحثهم الراكب على السرعة .

إنهم يكسبون ثلاثين أو أربعين روبية في الشهر ، ويقذفون رناتهم مع سعالهم بعد سنين قلائل . خيول عربات الجاري الهندية ، هزيلة متداعية ، بيعت رخيصةً ، بعد أن لم يتبقّ لديها سوى بضع سنوات من العمل . سائق العربة يعتبر السوط بديلاً من العلف . يعبِّر عملها عن نفسه في نوع من المعادلة ـ السوط زائداً الطعام يساوي الطاقة ، وعلى العموم هناك ستون بالمائة سوط ، وأربعون بالمائة علف . أحياناً تكون رقابها محاطة بتقرُّحٍ كبير ، فتظل طوال اليوم تجري على اللحم العاري . لكن لايزال بالإمكان جعلها تعمل ، على أي حال ، المسألة فقط هي تسويطها بحيث يكون الألم من الخلف أشد من الألم من الأمام . بعد بضع سنوات يفقد حتى السوط فعله ، فيذهب الحصان إلى مشتري الحيوانات الفانية . هذه أمثلة على العمل غير الضروري ، فالواقع أنْ ليس ثمت حاجة حقيقية إلى الجاري أو الريكشو ، وهي موجودة فقط لأن الشرقيين يأنفون السير . إنها ترف ، لكن من ركبها يعرف أنها ترفٌ بائسٌ . إنها تقدم قدراً ضئيلاً من الراحة ، لا يمكن أن يوازي عذاب البشر والحيوان .

الأمر ينطبق على غاسل الصحون . إنه ملكٌ مقارنة بمن يجرّ الريكشو ، وحصان الجاري ، لكن حالته مماثلة . إنه عبد فندق أو مطعم ، وعبوديته لا فائدة منها في كثير أو قليل . فما الحاجة الفعلية إلى الفنادق الضخمة والمطاعم الفاخرة ؟ المفترض فيها أن تقدم ترفاً ، لكنها في الواقع تقدم محاكاة رخيصة للترف . يكاد الجميع يكرهون الفنادق . ثمت فنادق أفضل من سواها ، لكن من المستحيل الحصول على وجبة جيدة في مطعم ، بالسعر نفسه ، أفضل مما يجدها في منزل خاص . لا شك في أنه يجب وجود المطاعم ، لكن لا حاجة إلى أن تستعبد مئات الناس . عمل الفنادق ليس في الأمور الجوهرية ، وإنما في الأمور المزيفة المفترض فيها أن تقدم ترفاً ، والأناقة ، كما تسمّى ، تعني أن يعمل المستخدمون أكثر ، ويدفع الزبائن أكثر ، ولا أحد يستفيد إلا المالك ، الذي سيشتري لنفسه دارةً في دوفيل . الفندق «الأنيق» هو ، أساساً ، مكان

يكدح فيه مائة إنسان كالشياطين ، حتى يدفع مائتا شخصٍ مبالغ كبيرة لأشياء لا يريدونها حقاً . لو انتهت السخافة من الفنادق والمطاعم ، وجرى العمل بكفاءة بسيطة ، فإن غاسلي الصحون سوف يعملون بين ست ساعات وثماني ساعات في اليوم ، بدلاً من عشر أو خمس عشرة .

لنفترض حصول اتفاق على أن عمل غاسل الصحون غير ذي فائدة ، في قليل أو كثير . آنذاك يأتي السؤال : لمَ يراد منه أن يظل يعمل ؟ أحاول أن أذهب إلى ماوراء القضية الاقتصادية المباشرة ، وأفكر... تُرى أي سرور يناله شخص ما حين يفكر بأناسٍ يظلون يغسلون الصحون طوال الحياة ؟ فلا شك في أن نفراً ـ من المرتاحين جداً ـ يجدون سروراً في مثل هذه الأفكار . قال ماركوس كاتو ، على العبد أن يعمل إن لم يكن نائماً . لا يهم إن كان عمله يسد حاجةً أم لا . المهم أن يعمل ، لأن العمل ذاته جيد ـ للعبيد في الأقل . هذا الشعور لايزال حياً ، وقد راكمَ جبالاً من الكدح غير المفيد .

أعتقد أن غريزة تخليد عمل غير نافع ، تعني ، في العمق ، الخوف من العامة . فالعامة (هكذا تمضي الفكرة) هم حيوانات وضيعة إلى حد أنهم يكونون خطرين لو أتيح لهم وقت الفراغ ، والأكثر مدعاةً للأمان أن يظلوا منشغلين إلى حدٍ يمنعهم من التفكير . والغني ، الذي قد يكون صادق الثقافة ، لو سئل عن تحسين العمل ، فسوف يقول عادةً ، كالآتي :

«نحن نعرف أن البؤس غير مفرح . والواقع أن البؤس مادام بعيداً عنا ، فإننا نتسلح بفكرة أنه غير مفرح . لكنْ لا تتوقع منا أن نفعل أي شيء بصدده . نحن آسفون لطبقاتكم الدنيا ، مثل ما نحن آسفون لقطةٍ جرباء ، غير أننا سنقاتل كالمردة ضد أي تحسين لظرفكم . نحن نشعر أنكم مأمونون أكثر وأنتم في حالكم هذا . إن الواقع الراهن يناسبنا ، ولسنا مستعدين لمخاطرة تحريركم ، حتى بساعة إضافية في اليوم . هكذا ، يا إخوتي الأعزاء ، إن كان عليكم أن تعرقوا لدفع رحلاتنا إلى إيطاليا ، فلتعرقوا ، ولتحلَّ عليكم اللعنة» .

هذا ، بخاصة ، هو موقف الناس الأذكياء المهذبين ، وبالإمكان قراءة جوهر الموقف في مائة مقال . قليلٌ جداً من الناس المثقفين يكسبون أقل من أربعمائة باوند مثلاً في العام ، ومن الطبيعي أنهم يقفون في صف الأغنياء ، لأنهم يتصورون أن أي حرية يُتنازل عنها للفقراء هي تهديدٌ لحريتهم . ولأن الرجل المثقف يرى اليوتوبيا الماركسية البغيضة بديلاً من هذا ، فهو يفضل الإبقاء على الأمور كما هي . قد لا يودّ كثيراً أصحابه الأغنياء ، لكنه يفترض أن أشد أصحابه ابتذالاً هو أقل عداءً لمسرّاته ، وللناس الذين هم على شاكلته ، من الفقير ، وأن الخير في أن يقف بجانبهم . هذا الخوف المفترض من العامّة الخطرين هو الذي يجعل معظم المثقفينَ قوماً محافظين في آرائهم .

الخوف من العامّة ، خوفٌ خرافيّ . مستند إلى فكرة وجود فرقٍ غامض أساسيّ بين الأغنياء والفقراء ، كأنهما من رِسَّينِ مختلفين ، كالسود والبيض . وفي الحقيقة لا يوجد مثل هذا الفرق . إن جمهرة الأغنياء والفقراء يتمايزون بدخولهم وليس بأي شيء آخر ، والمليونير العادي هو غاسل الصحون العادي مرتدياً بدلة جديدة . بَدِّلْ المواقع ، واقلب الأشياء : مَن القاضي ؟ من اللص ؟ كل من اختلط مع الفقراء على قدم المساواة يعرف هذا جيداً . لكن المشكلة أن الناس المثقفين المهذبين أنفسهم ، المتوقع منهم أن يحملوا آراء ليبرالية ، لا يختلطون بالفقراء . ماذا يعرف غالب المثقفين عن الفقر ؟ في نسختي من قصائد فيّون* ، وجد الناشر ضرورة أن يشرح البيت : « لا نرى الخبز إلا مثقوباً » في هامشٍ ، بحيث بدا حتى الجوع جدّ غريب على تجربة المثقف . من هذا الجهل ينبع الخوف الخرافي من العامّة ، بصورة طبيعية تماماً . يتصور المثقف قطيعاً من أشباه البشر ، ينتظرون يوم حريةٍ فقط ، كي ينهبوا بيته ، ويحرقوا كتبه ، ويجعلوه يشتغل في إصلاح ماكنة ، أو تنظيف مراحيض . ويفكر : «ليأتِ أي شيء ، ليأت الظلم ، فلا

* فرانسوا فيّون (١٤٣١ ـ ١٤٦٣) شاعر فرنسي صعلوك . (المترجم)

ينطلق العامة» . وهو لا يرى ، مادام الفرق غير قائم بين جمهرة الفقراء والأغنياء ، أن لا موضع لإطلاق العامّة . إن العامة هم مُطْلقون الآن ، فعلاً ، وهم ـ في صورة الأغنياء ـ يستعملون سلطتهم لإقامة آلات الضجر ، مثل الفنادق «الأنيقة» . باختصار أقول إن غاسل الصحون عبدٌ ، عبدٌ مُضاعٌ ، يؤدي عملاً غبياً ليست له ضرورة تقريباً ، وهو محتجز في العمل ، إلى ما لا نهاية ، بسبب شعور غامض حول أنه سيكون خطراً لو أُطلق سراحه . والمثقفون الذين يجب أن يقفوا إلى جانبه ، مذعنون ، ذلك لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً ، وبالنتيجة يخشونه . أقول هذا عن غاسل الصحون لأني كنت أدرس حالته هو ، التي تنطبق تماماً على المئات من الأعمال ، وأنماط العمال . هذه هي آرائي في الحقائق الأساسية لحياة غاسل الصحون ، قدّمتُها بدون رجوع إلى القضايا الاقتصادية المباشرة ، وربما كانت آراء عادية . إنني أقدمها ، نماذج للأفكار التي تخطر ببال المرء حين يعمل في فندق .

23

ما أن تركت أوبرج جيان كوتار حتى دخلت في الفراش ، ونمت على مدار الساعة ، إلا ساعة واحدة . ونظفتُ أسناني لأول مرة خلال أسبوعين ، استحممت ، وذهبت لأحلق شعري ، واستردت ملابسي من الرهن . وتسكعت يومين مجيدين . بل ذهبت في أبهى حللي إلى الأوبرج ، وجلست عند البار ، وصرفت خمسة فرنكات على زجاجة من البيرة الإنجليزية . ينتابك إحساسٌ غريب ، أن تكون زبوناً ، حيث كنتَ عبداً لعبدٍ .

كان بوريس آسفاً لأني تركت الفندق وقتَ انطلاقتنا ، وفرصة أن نكون ذوي مال . وصلتني أخباره ، وهو يقول إنه يكسب مائة فرنك في اليوم ، ويصاحب فتاة ، جادّة تماماً ، ولا تنبعث من فمها رائحة الثوم .

أمضيت اليوم أتجول في حيّنا ، وأودّع الجميع . ذلك اليوم أخبرني شارلي بموت روكول البائس ، الذي كان يعيش في الحيّ . على الأكثر ، كان شارلي يكذب كعادته ، غير أن قصته كانت جيدة .

مات روكول ، في سن الرابعة والسبعين ، قبل حلولي في باريس بعامٍ أو عامين ، لكنّ أهل الحيّ كانوا لايزالون يتحدثون عنه وأنا هناك . لم يكن في مصافّ دانييل دانسيه أو من على شاكلته ، لكنه كان شخصية مثيرة للاهتمام . كان يذهب كل صباح إلى سوق الهال ليلتقط الخضروات الفاسدة ، ويأكل لحم القطط ، ويلبس ورق الصحف بدلاً من الملابس

الداخلية ، ويستعمل خشب تغليف حجرته وقوداً ، ويصنع لنفسه نعلين من الخيش - هذا كله مع نصف مليون فرنك مستثمرة . وددتُ كثيراً لو كنت عرفته .

ومثل بؤساء عديدين ، وضع روكول ماله في صفقة متهوِّرة . في أحد الأيام جاء إلى الحي يهوديّ ، شابٌ ، يقظ ، في ذهنه خطة من الدرجة الأولى تقضي بتهريب الكوكايين إلى إنجلترا . من السهل ، طبعاً ، شراء الكوكايين في باريس ، والتهريب بحد ذاته سيكون جدَّ سهل ، فقط ثمت دائماً جاسوسٌ ما ، سوف يشي بالخطة إلى الجمارك أو الشرطة . ويقال إن هذا يقوم به أولئك الناس أنفسهم الذين يبيعون الكوكايين ، لأن تجارة التهريب هي في أيدي شبكة واسعة لا تريد منافسةً من أحد . لكن اليهودي أقسمَ أنْ لا خطر ، وأنه يعرف طريقة للحصول على الكوكايين مباشرة من فيينا ، وليس عبر القنوات المعتادة ، وأنه لن تدفع أموالٌ لمبتزّين . اتصلَ بروكول عن طريق شابٍّ بولندي ، طالبٍ في السوربون ، كان سيضع في المشروع أربعة آلاف فرنك إذا وضع روكول ستة آلاف . هكذا يستطيعون شراء عشرة أرطال من الكوكايين الذي سيساوي ثروةً صغيرة في إنجلترا .

جاهد اليهودي والبولندي جهاداً مريراً للحصول على المال من بين مخالب روكول العجوز . ستة آلاف فرنك ليست كثيرة ـ لديه أكثر من ذلك ، مخيطاً في الحشيّة بحجرته ـ لكنه كان يعاني مُرَّ العذاب لو فارقَ فلسٌ كفَّه . ظل البولندي واليهودي أسابيع معه ، يشرحان ، ويلحّان ، ويدّعيان ، ويجادلان ، ويركعان أمامه على رُكبهم ، يتوسلانه إخراج مالِه . كان الرجل العجوز نصف مجنون ، بين الطمع والخوف . إنه ليتوق توقاً شديداً إلى المال ، ويلين لفكرة أنه قد يربح خمسين ألف فرنك ، لكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يخاطر بماله . صار يجلس في زاوية ورأسه بين كفّيه ، يئنّ ، ويصيح أحياناً ، من فرط العذاب ، وغالباً ما كان يركع (كان ورِعاً) ويصلي طالباً القوّة . إلا أنه لايزال غير قادرٍ . وأخيراً ، بسبب الإرهاق ، وليس

بسبب آخر ، رضخ فجأةً ، وفتح حشيّته ، حيث المال مخبّأ ، وسلّم اليهودي حوالي ستة آلاف فرنك .

اليهوديّ سلّم الكوكايين في اليوم نفسه ، واختفى فجأةً . وفي الوقت نفسه ، وبدون استغراب ، ونظراً للضجة التي أثارها روكول ، عرف الحيُّ كله بالخبر . وفي الصباح التالي أغارت الشرطة على النُزل وفتشته .

روكول والبولندي في محنة شديدة . كانت الشرطة في أسفل النزل ، يتابعون طريقهم ، وهم يفتشون المكان غرفةً غرفة . في الغرفة كانت علبة كوكايين كبيرة على الطاولة ، ولا سبيل لإخفائها ، ولا فرصة للنجاة عبر نزول السلّم . البولندي يؤيد إلقاء الكوكايين من النافذة ، لكن روكول لم يوافق البتة . أخبرني شارلي أنه كان حاضراً في المشهد . قال إنهم حين حاولوا أخذ العلبة شدّها روكول إلى صدره وظل يصارع مثل مجنون ، مع أنه في الرابعة والسبعين . كان متوحشاً من الخوف ، إلا أنه كان يفضل السجن على ضياع ماله .

أخيراً ، حين كان رجال الشرطة يفتشون الطابق الأدنى مباشرة ، خطرت لبعضهم فكرة . كان في طابق روكول رجل عنده اثنتا عشرة علبة من مسحوق الوجه ، يبيعها لقاء نسبة ، وقد اقترح وضع الكوكايين في العلب ، باعتباره مسحوق وجه . وسرعان ما أُلقي بالمسحوق من النافذة ، ووضع الكوكايين موضعه ، وعُرضت العلب بصورة مكشوفة على طاولة روكول ، كأن لا شيء يستحق الإخفاء . بعد بضع دقائق جاء رجال الشرطة ليفتشوا غرفة روكول . دقّوا على الجدران ، ونظروا في المدخنة ، وأخرجوا الأدراج ، وفحصوا ألواح الأرضية ، وقبل أن يغادروا ، خائبين ، لاحظ المفتش العلب على الطاولة . قال : «هاكُم ، أنظروا في هذه العلب . أنا لم أرها من قبل . ماذا فيها ؟» .

قال البولندي هادئاً قدر استطاعته : «مسحوق وجه» . لكن روكول ، في اللحظة ذاتها ، أطلق أنّةً عالية ، من شدة ذعره ، فشكّ الشرطة في الأمر فوراً . فتحوا إحدى العلب ، وأفرغوا محتوياتها ، وبعد أن شمّوها قال

المفتش إنه يشك في أنها تحتوى كوكايين . أخذ روكول والبولندي يقسمان بالقدّيسين على أنه مسحوق وجه ، لكن لا فائدة ، فبقدر احتجاجهما كان الشرطة يزدادون شكّاً . قُبض على الإثنين ، واقتيدا إلى مركز الشرطة ، متبوعين بنصف سكان الحيّ .

في مركز الشرطة ، استجوب المفوضُ روكول والبولندي ، بينما أُرسلت إحدى العلب للتحليل . قال شارلي إن المشهد الذي فعله روكول لا يمكن أن يوصف ، إذ بكى ، وتوسل ، وأدلى بإفادات متناقضة ، واعترف على البولندي فوراً ، كل هذا بصوت عالٍ يمكن سماعه على مبعدة شارع . وكان رجال الشرطة ينفجرون ضحكاً عليه .

بعد ساعة عاد الشرطي بعلبة الكوكايين ، وبتقرير من المختبر . كان يضحك .

قال : «هذا ليس كوكايين ، يا سيدي» .

قال المفوض : «ماذا ؟ ليس كوكايين ؟ إذاً ، ماذا فيها ؟» .

«مسحوق وجه» .

أُطلق سراح روكول والبولندي ، في الحال ، بريئين تماماً ، لكنهما غاضبان جداً . لقد خدعهما اليهودي . فيما بعد ، عندما انتهى الهياج ، تبيّن أنه لعب اللعبة ذاتها على اثنين من سكان الحي .

كان البولندي جدّ مسرور لنجاته ، بالرغم من خسارته أربعة آلاف فرنك . أما روكول المسكين فقد انهار فجأةً ، ولازم فراشه ، وظل الناس يسمعونه طوال ذلك اليوم ، وحتى منتصف الليل ، يشتم ويدمدم ، ويصرخ أحياناً بأعلى صوته :

«ستة آلاف فرنك! باسم يسوع المسيح! ستة آلاف فرنك!» .

بعد ثلاثة أيام ، أصابته سكتةٌ ما ، ومات بعد أسبوعين ، كسير القلب ، كما قال شارلي .

24

سافرت إلى إنجلترا بالدرجة الثالثة ، عبر دنكرك وتيلبري ، وهي أرخص ، وليست أسوأ طريق لعبور القنال . عليك أن تدفع أكثر لمقصورة ، ولهذا نمت في الصالون ، مع معظم مسافري الدرجة الثالثة . وقد وجدت في يومياتي ما كتبته ذلك اليوم :

«النوم في الصالون ، سبعة عشر رجلاً ، وست عشرة امرأة . ومن النساء لم تغسل امرأة واحدة وجهها هذا الصباح . أغلب الرجال ذهبوا إلى الحمّام ، أما النساء فاكتفين بإخراج علب التجميل ، وغطّينَ الأوساخ بالمسحوق . سؤال ـ فرقٌ جنسيَ ثانوي ؟

في الرحلة ، تعرّفت على زوجين رومانيين ، يكادان يكونان طفلين . كانا ذاهبين إلى إنجلترا في شهر العسل . سألا أسئلة لا تحصى عن إنجلترا ، وأجبتهما بعدد من الأكاذيب الصارخة . كنت سعيداً بالعودة إلى الوطن بعد شهورٍ قاسية في مدينة أجنبية ، حتى بدت لي إنجلترا كالفردوس . أمورٌ عدة في إنجلترا تجعلك فرحاً بالعودة إلى الوطن . غرف الحمّام . الكراسي ذات المساند ، صلصة النعناع ، البطاطا الصغيرة المهيّأة جيداً ، الخبز الأسمر ، المربّى ، البيرة ذات حشيشة الدينار الحقيقية ـ كلها ممتاز ، إن استطعتَ الدفع . إنجلترا بلادٌ جيدة تماماً ، إن لم تكن فقيراً ؛ وبالطبع لن أكون فقيراً مع معوّقٍ خَلقيَ أرعاه . فكرة ألا أكون فقيراً ملأتني بالروح الوطنية . وكلما

سألني الرومانيون ، مدحتُ إنجلترا أكثر ، الطقس ، المناظر الطبيعية ، الفن ، الأدب ، القوانين ـ كل شيء في إنجلترا كان كاملاً . سألني الرومانيان : «هل فن العمارة في إنجلترا جيد ؟» . أجبتهما : «ممتاز! وعليكما فقط أن تشاهدا تماثيل لندن! باريس مبتذلة . نصفها فخامة ، ونصفها أحياء فقيرة ، لكن لندن...» .

أخيراً صارت السفينة بمحاذاة رصيف تيلبري . أولى بنايات الساحل التي شاهدناها كانت أحد تلك الفنادق الضخمة . كله أبراج وزخارف جصية تبدو من الساحل الإنجليزي مثل بلهاء ينظرون من جدار مستشفى مجاذيب . رأيت الرومانيين ينظران صوب الفندق ، أكثر تهذيباً من أن يقولا شيئاً . أكدتُ لهما : «بناه معماريون فرنسيون» ، وحتى فيما بعد حين كان القطار يزحف في الأحياء الشرقية الفقيرة للندن ، ظللت أتحدث عن جماليات المعمار الإنجليزي . وبدا لي أنه ليس من أشياء كثيرة حسنة تُقال عن إنجلترا ، وبخاصة ، بالنسبة لي ، أنا العائد إلى وطني ، بلا مشقّة سوف أعانيها .

ذهبت إلى مكتب ب ، وقد حطّمت كلماته الأولى كل شيء نثاراً . قال : «أنا آسف . مستخدموك سافروا خارج البلد ، المريض والجميع . إلا أنهم سوف يعودون بعد شهر . أعتقد أن بمقدورك تدبير أمرك حتى ذلك الوقت ؟» .

كنت خارج المكتب ، في الشارع ، حتى قبل أن يخطر لي الاقتراض منه . عليّ الانتظار شهراً ، وليس لديّ سوى تسعة عشر شلناً وستة بنسات . لقد كتمت الأنباء أنفاسي . لفترة طويلة لم أستطع أن أفكر في ما سوف أفعله . تسكعت ، النهار ، في الشوارع . وحين حلّ الليل ، وأنا لا أملك فكرة عن الحصول على مبيت رخيص في لندن ، ذهبت إلى نُزل «عائلي» ، حيث الأجرة سبعة شلنات وبنسان . بعد دفع القائمة بقي لديّ عشرة شلنات وبنسان .

في الصباح أعددتُ خططي . عليَ الذهاب عاجلاً أم آجلاً إلى ب ، للمزيد من النقود ، لكني رأيت من غير اللائق أن أذهب إليه في هذا الوقت ، وفي الوقت نفسه يجب أن أدسَّ نفسي في جحر ما ، وأن أتدبّر شؤوني . تجربتي السابقة جعلتني أرفض رهن بدلتي الجيدة . سوف أترك كل أشيائي في غرفة الأمانات بالمحطة ، ما عدا بدلتي الثانية الجيدة التي سوف أستبدل بها ملابس رخيصةً ، وربما باوناً .

إن كنت أريد العيش بثلاثين شلناً في الشهر ، فينبغي أن ألبس ملابس رديئة ـ حقاً ، الأردأ هو الأفضل . ليست لديّ فكرة عما إذا كانت الشلنات الثلاثون تكفي شهراً ، فأنا لا أعرف لندن قدر معرفتي باريس . ربما أستطيع التسوّل ، أو بيع خيوط الأحذية ، وتذكرت مقالات قرأتها في صحف الأحد عن شحّاذين يمتلكون ألفَي باون ، مخيطةً في بنطلوناتهم . على أي حال ، من المستحيل إلى حدٍ بعيد ، أن يجوع المرء في لندن ، لذا فلا مَدعاة للقلق .

لبيع ملابسي ، ذهبت إلى لامبث ، حيث الناس فقراء ، وحيث دكاكين الألبسة القديمة كثيرة . في أول دكان ، كان المالك مؤدباً لكنه لا يمدّ يد العون . في الثاني كان المالك فظاً . الثالث كان صاحبه أصمّ كالحجر ، أو أنه تظاهر كذلك . أما الدكان الرابع فكان صاحبه شاباً أشقر ، أحمر ، مثل شريحة من لحم الخنزير . نظر إلى الملابس التي أرتديها وتحسسها بين إبهامه وإصبعه .

قال : «قماش رديء . رديء جداً ، (كانت بدلةً جيدة) كم تطلب ؟ » .

بيّنت له أنني أريد ملابس قديمة ، وقدر ما يمكن أن يعطيني من مال . فكّر لحظة ، ثم جمع بضع خرقٍ ، ورماها إليّ ، على النُّضد . قلتُ آملاً في باون : « والمال ؟ » . زمّ شفتيه ، ثم أخرج شلناً ووضعه إلى جانب الخرق . لم أجادل ـ كنت أريد ذلك ، لكن ما أن فتحت فمي حتى مدّ يده كمن يريد أن يستعيد الشلن . وجدتُ أني بلا حَول . سمح لي بتغيير ثيابي في حجرة صغيرة خلف الدكان .

كانت الملابس سترةً (بُنّية غامقة يوماً ما) وبنطلوناً قطنياً ، ولفحة ، وقلنسوة قماش . وكنت احتفظت بقميصي وجواربي وجزمتي ، وفي جيبي مشط وموسى . شعرت شعوراً غريباً وأنا في تلك الثياب . لقد ارتديت ملابس رديئة من قبلُ ، لكني لم أرتد مثل هذه البتة . فهي لم تكن قذرة وبلا شكل فقط ، بل كانت ـ كيف لي أن أعبّر ؟ ـ مخجلةً ، وقذارةً عتيقة ، مختلفة تماماً عن الرثاثة . كانت من نوع الملابس التي ترى بائع خيوط الأحذية يرتديها ، أو المتشرد . بعد ساعة ، رأيت في لامبث شخصاً هو متشرِّدٌ واضحٌ ، يتجه إليّ ، وعندما نظرتُ ثانيةً وجدته أنا نفسي في واجهة مخزن منعكساً . كان الوسخ يغطي وجهي بالفعل . الوسخ يحترم الأشخاص احتراماً عظيماً ، إنه لا يقترب منك حين ترتدي ثياباً جيدة ، لكن ما أن تذهب لياقتك حتى يندفع إليك من مختلف الجهات .

بقيت في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل ، حريصاً على الحركة باستمرار . إذ مع الملابس التي أرتديها ، كنت شبه خائف من أن الشرطة قد يظنونني متشرداً فيقبضون عليّ ، ولم أجرؤ على التحدث مع أحد متصوراً أنهم قد يلحظون الفرق بين لهجتي وملبسي . (أدركت فيما بعد أن هذا لم يحدث) . لقد وضعتني ملابسي الجديدة ، فوراً ، في عالم جديد . وتصرُّف الناس تبدّل فجأةً . ساعدتُ بائعاً متجولاً في جمع محتويات عربته التي انقلبت ، فقال مبتسماً : «شكراً يا صاحبي» . لم يدعني أحدٌ ، «صاحبي» طوال حياتي ـ كان ذلك فعل الملابس . وللمرة الأولى لاحظت ، أيضاً ، كيف يختلف موقف النساء من الملابس . حين يمرّ بهنّ شخص سيئ الهندام يرتجفن منه في حركة احتقار صريحة ، كأنه قطة ميتة . الملابس أشياء قوية . آن تلبس لبوس المتشرد ، يغدو صعباً عليك ، في اليوم الأول ، ألا تشعر بأنك في منزلة أدنى . ربما شعرت بالعار نفسه ، شعوراً لاعقلانياً لكنه حقيقي ، كما لو أنك في ليلتك الأولى بالسجن .

في حوالي الحادية عشرة بدأت أبحث عن منام . كنت قرأت عن بيوت

المنام المؤقت (وبالمناسبة هي لا تدعى كذلك) ، وظننت أن بإمكان المرء الحصول على فراش بأربعة بنسات . رأيت رجلاً ، عاملاً يدوياً ، أو على شاكلته ، يقف في المنعطف بشارع واترلو . توقفت وسألته . قلت إني مفلسٌ تماماً ، وأريد أرخص فراش يمكن الحصول عليه .

قال : «أوه . إذهب إلى ذلك المنزل عبر الشارع ، الذي يحمل لافتة (أفرشة جيدة للعزّاب) ، فهو مكان جيد للنوم . كنت هناك بين وقت وآخر . ستجده رخيصاً ونظيفاً» .

كان منزلاً عالياً متداعياً ، مع أضواء خافتة في كل النوافذ التي رُقّع بعضها بورق بُنّي . دخلت عبر ممر حجري ، فظهر من باب مؤدٍ إلى القبو صبيٌّ عليلٌ ذو عينين مثقلتين بالنعاس . سمعت غمغماتٍ من القبو ، وأحسست بموجة من الهواء الساخن والجبن . تثاءب الصبي ومدّ يده . «تريد فراشاً ؟ سيكون ثمنه كذا...» .

دفعت شلناً ، فصعدت مع الصبي سلّماً مهتزاً معتماً ، إلى غرفة نوم . شممت راحة أفيونٍ مسكّن وشراشف عطنة ، ويبدو أن النوافذ مغلقة بإحكام ، والهواء خانق للوهلة الأولى . ثمت شمعة متقدة ، ورأيت أن مساحة الغرفة خمسة عشر قدماً مربعاً ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وفيها ثمانية أسرّة . هناك ستةٌ نائمون ، منذ الآن . إنهم مكوّمون بأشكال غريبة مع ملابسهم ، وحتى جزماتهم قائمةٌ فوقهم . أحدهم كان يسعل سعالاً رهيباً في إحدى الزوايا .

حين دخلت الفراش وجدته قاسياً مثل لوح ، أما الوسادة فليست سوى إسطوانة قاسية مثل قطعة خشب . كان الأمر أسوأ من النوم على طاولة ، لأن الفراش لم يكن ستة أقدام طولاً ، كما أنه ضيق جداً . والحشيّة كانت حدباء بحيث يتعيّن على المرء الإمساك بها لئلا يسقط . والشراشف تنفث رائحة عرق شنيعة ، لم أحتملها ، فلجأت إلى إبعاد الشراشف عن أنفي . أما الأفرشة فتتألف من الشراشف ومن لحاف قطن فقط . هذا اللحاف لم يكن

مدفئاً ، وإن كان ممتلئاً . ارتفعت في الليل ضجّاتٌ عدة . الشخص الذي ينام إلى يساري ، وأظنه بحّاراً ، كان يستيقظ مرة كل ساعة ، ليشتم شتائم قبيحة ، ويشعل سجارة . شخص آخر ، مصاب بمرض في المثانة ، استيقظ اثنتي عشرة مرة ليستعمل مبولة الغرفة صاخباً . والشخص الذي في الزاوية كان يصاب بنوبة سعال كل عشرين دقيقة ، وبصورة منتظمة ، حتى أن المرء لينصت إليه ، كما ينصت إلى النبحة الثانية لكلبٍ ينبح القمرَ . كان صوتاً مقززاً ، قعقعة شنيعة ، ومحاولة للتقيؤ كأنّ أحشاء الرجل ستخرج . وعندما أشعل عود ثقّاب ، مرةً ، رأيته رجلاً طاعناً في السن ، ذا وجه غائرٍ مُرْبَدّ مثل وجه جثة ، وكان يعتمر بنطلونه ملفوفاً على رأسه مثل قلنسوة ليلية ، وهو أمرٌ امتعضت منه لسبب ما . وكلما سعل هذا ، أو شتم ذاك ، ارتفع صوتٌ نعسان من الناحية الأخرى : «أسكتوا! أوه ، بحق المسيح ، اسكتوا!» .

بالمجموع ، حصلت على ساعة نوم . في الصباح استيقظت على انطباع أن شيئاً بُنّياً عريضاً يتّجه إليّ ، فتحت عيني ، فرأيت إحدى قدمي البحّار خارجةً من الفراش ، قرب وجهي . كانت بنّية غامقة ، بنية غامقة جداً ، مثل قدم هنديّ ، مع أوساخها . الجدران كانت مجذومة ، والأفرشة التي مضت على غسلها ثلاثة أسابيع ذات لون كالعنبر الطازج . قمت ، وارتديت ملابسي ، ونزلت السلّم . كان في القبو عدد من الأحواض ولَفّتان من المناشف الدوّارة . لديّ في جيبي قطعة صابون ، وكنت أعتزم الاستحمام ، حين رأيت كل حوض مغطى بطبقة سوداء ، متصلبة ، من الأوساخ . خرجت بدون أن أغتسل . على أي حال ، يمكن القول إن المنزل لم ينطبق عليه وصف «رخيص ونظيف» ، لكنه كما وجدت لاحقاً ، يمثل تمثيلاً صادقاً ، سواه .

عبرتُ النهر ، ومشيت طويلاً ، شرقاً ، لأصل إلى مقهى في تاور هيل . إنه مقهى لندنيّ عادي ، مثل آلاف المقاهي الأخرى . وبدا لي غريباً وأجنبياً

بعد مقاهي باريس . كان غرفة صغيرة مزدحمة ذات مقاعد عالية الظّهر كانت سائدة في الأربعينيات* ، أما وجبة اليوم فكانت مكتوبة على مرآة بقطعة صابون ، وفتاة في الرابعة عشرة تقدم الصحون .

كان العمال يأكلون من لفّات ورق جرائد ، ويشربون الشاي بأقداح بلا صحون مثل الكؤوس الصينية . وفي إحدى الزوايا جلس يهوديّ ، وحيداً ، وخِطْمُه في صحن ، يأكل البيكون** .

سألتُ الفتاة : «هل بإمكاني أن آخذ شاياً وخبزاً وزبدةً ؟» .

نظرت إليّ ، وقالت مستغربة : «لا زبدة . المرغرين فقط» . وكرّرتْ الطلب ، بالجملة التي تعني في لندن ما تعنيه في باريس جملة «كأس أحمر» : «شاي كبير ، وشريحتان!» .

على الجدار ، إلى جانب مقعدي ، إعلان يقول : «أخذُ السكّر ممنوع» . وتحت الإعلان كتب زبونٌ ذو ميولٍ شعرية :

كلُّ من يأخذُ منّا سكّرا

سوف يُدعى قذرا (. . .)

ويبدو أن أحدهم تعب كثيراً في محو الكلمة الأخيرة .

ها هي ذي إنجلترا . الشاي والشريحتان كلفتني ثلاثة بنسات ونصفاً ، وبقي لديّ شلنان وبنسان .

---

* أربعينيات القرن التاسع عشر . (المترجم)

** نوع من لحم الخنزير . (المترجم)

25

استمرت الشلنات الثمانية معي ، لمدة ثلاثة أيام وأربع ليال . بعد تجربتي السيئة في شارع واترلو* ، اتجهت شرقاً ، وبتُّ الليلة التالية في منزل بـ« بنيفيلدز » . وهو منزل أنموذجي ، كالعشرات من أمثاله في لندن . إنه مهيأ لاستقبال ما بين خمسين رجلاً إلى مائة ، ويديره « نائب » ـ نائبٌ للمالك ، فهذه المنازل مشاريع مربحة يملكها أغنياء . خمسة عشر أو عشرون منّا ينامون في مهجع . الفُرُش باردة قاسية أيضاً ، لكن الشراشف لم يمض على غسلها أكثر من أسبوع ، وهذا يُعَدّ تحسُّناً . والأجر تسعة بنسات أو شلن (في مهجع الشلن تكون المسافة بين سرير وآخر ستة أقدام بدلاً من أربعة) ، وعليك أن تدفع الأجر في السابعة مساءً ، وإلا خرجت .

في الطابق الأسفل مطبخ مشترك لجميع الساكنين ، مع نارٍ بالمجّان ، وعدد من قدور الطبخ ، وأواني الشاي ، وشوكات التحميص . ثمت موقدان بالفحم الحجري يظلان مشتعلين ليل نهار ، طوال العام . أما إدامة النيران ، وكنس المطبخ ، وتهيئة الفُرُش فيقوم بها الساكنون بالتناوب . أحد كبار الساكنين ، وهو مُحَمِّل سفن ، نورماندي الملامح ، لطيف ، اسمه ستيف ، كان يلقَّب « رأس المنزل » ، يتوسط في المنازعات وشؤون الأكل غير المدفوع .

* حقيقة غريبة ، وإن كانت معروفة ، أن البقّ في شرقي لندن أكثر منه في شماليّها . وهو لم يعبر النهر بأعداد كبيرة ، لسبب ما .

أحببتُ المطبخ . إنه قبو ، خفيض السقف ، تحت الأرض ، ساخنٌ جداً ، ويدعو إلى النعاس بسبب أدخنة فحم الكوك ، ومضاءٌ بالنيران فقط التي ترسم ظلالاً مخملية سوداء في الزوايا . أسمالٌ مغسولة تتدلى من حبالٍ بالسقف . رجالٌ أضاءتهم النيران بالحمرة ، محمَّلو سفنٍ في الغالب ، يتحركون بين النيران ، والقدور بين أيديهم . بعضهم كانوا عراةً بالكامل ، إذ كانوا يغسلون ملابسهم ، وهم الآن ينتظرون أن تجفّ . في الليل ألعاب القُرعة ، والأغنية المفضلة هي «أنا الفتى ، الذي صنعه ، خطأً ، والداه» ، وكذلك أغنية أخرى عن تحطم سفينةٍ . أحياناً ، في ساعة متأخرة من الليل ، يأتي رجالٌ بسطلٍ من الحلازين البحرية اشتروها رخيصةً ، ويتقاسمونها . كانت هناك مشاركة عامة في الطعام ، وكان إطعام العاطلين أمراً متفقاً عليه . وكان في المنزل شخصٌ ضئيل ، شاحب ، حكيمٌ ، يُحتَضَر كما هو واضح ، اسمه «براون المسكين» ، وقد ظل تحت علاج الطبيب ، وأجريت له عمليات جراحية ثلاث مرات ، هذا الشخص يطعمه الآخرون بصورة منتظمة .

اثنان من الساكنين أو ثلاثة ، كانوا متقاعدين كبار السنّ . حتى ملاقاتهم لم أكن أعرف البتة أن في إنجلترا أناساً يعيشون على تقاعدٍ مبلغه عشرة شلنات في الأسبوع . ليس لأي من هؤلاء الرجال موردٌ آخر من أي نوع . أحدهم كان يحبّ الكلام ، وقد سألته كيف يدبِّر عيشه . قال :

«حسناً . هناك تسعة بنسات كل ليلة للمبيت ـ أي ثلاثة شلنات وثلاثة بنسات في الأسبوع . ثم هناك ثلاثة بنسات يوم السبت للحلاقة ـ المجموع خمسة شلنات وستة بنسات ـ ثم قل إنك تحلق شعر رأسك مرة في الشهر بستة بنسات ـ وهذه ثلاثة شلنات وبنس أخرى في الأسبوع ، هكذا يكون عندك حوالي أربعة شلنات وأربعة بنسات للأكل وسواه» .

ليس بمقدوره أن يتخيل مصروفات أخرى . طعامه الخبز والمرغرين والشاي ـ وفي أواخر الأسبوع الخبز اليابس والشاي بلا حليب ـ وربما جاءت ملابسه من جمعية خيرية . يبدو راضياً ، مهتماً بفراشه وناره أكثر من

الطعام . لكن أن ينفق نقوداً على الحلاقة ، مع مدخولٍ قدره عشرة شلنات في الأسبوع ـ الأمر مدعاةٌ للعجب .

طوال اليوم تسكعتُ في الشوارع ، شرقاً حتى وابنغ ، وغرباً حتى وايت شابل . كان الأمر مدعاةً للاستغراب بعد باريس ؛ كل شيء كان أنظف وأهدأ وأكثر وحشةً . لقد افتقدت صرخات الترام ، والحياة الضاجة الفاسدة في الشوارع الخلفية ، والرجال المسلحين يقعقعون في الساحات . كان جموع الناس أفضل ملبساً ، والوجوه أكثر بشاشةً ولطفاً وتماثُلاً ، بدون الفردية الصارخة للفرنسيَ وخبثه . السُكْر أقلّ ، وكذلك القذارة والعراك ، أما التبطُّل فأكثر ، حتى أنك لترى عُصَباً من الرجال واقفين في كل الزوايا ، سيئي التغذية قليلاً ، إلا أنهم يظلون واقفين على أرجلهم بسبب الشاي والشريحتين كل ساعتين ، كما ألِفَ اللندنيون . المرء هنا يتنفس هواء ذا شحنةٍ أقل من باريس . هنا بلاد برّاد الشاي وبورصة العمل ، بينما باريس بلاد المشرب ودكان الحلويات .

ممتعٌ أن تراقب الناس . نساء شرقيّ لندن جميلات (ربما بسبب امتزاج الدم) ، واللايمهاوس يعجّ بالشرقيين ، صينيين ، وبحّارة من تشيتاغونيا ، ودرافيديين يبيعون لِفاعات حرير ، وحتى بعض السيخ الذين لا يعرف أحد كيف جاؤوا . اجتماعات شوارع تنعقد هنا وهناك . في وايت شابل شخصٌ يدعى المبشِّر المغنّي يتعهد بإنقاذك من جهنم لقاء ستة بنسات . في طريق رصيف الهند الشرقية كان جيش الخلاص يعقد اجتماعاً . كانوا يغنّون «هل من أحدٍ هنا مثل يهوذا الغدّار ؟» على لحن أغنية «ماذا نفعل لبحّارٍ سكران ؟» . على التاور هِل كان اثنان من المورمون يحاولان مخاطبة اجتماع . وحول منصتهما حشدٌ من الرجال المتصايحين المقاطعين . بعضهم كان يشتمهما بسبب تعدد الزوجات . رجلٌ أعرجُ ، ملتحٍ ، ملحدٌ كما هو واضحٌ ، سمع لفظ الله ، فصار يلحف بأسئلته حانقاً . كان هناك ضجة أصوات مشوّشة .

«يا أصدقائي الأعزاء ، دعونا فقط نُنهِ ما نقوله ـ ! ـ نعم . هذا صحيح . قل لهم ما تريد . لا تناقش! ـ لا ، لا ، أجِبني . أباستطاعتك أن تُريني الله ؟ إن أريتني الله فسوف أُومن به . ـ أوه ، اخرسْ ، امتنعْ عن المقاطعة! ـ قاطعْ نفسَك ـ يا متعددي الزوجات! يمكن أن يقال الكثير عن تعدد الزوجات . خذوا النساء من الصناعة ، على أية حال ـ يا أصدقائي الأعزاء! لو أنكم فقط ـ لا! لا! لا تتهرب! هل رأيتَ الله ؟ هل لمستَه ؟ هل صافحتَه ؟ ـ أوه ، لا تدخلْ في النقاش ، بحقّ الله لا تدخل في النقاش»... الخ . الخ .

استمعت مدة عشرين دقيقة متلهفاً لأن أعرف شيئاً عن مذهب المورمون ، لكن الاجتماع لم يصل إلى أبعد من الصياح ، وهذا هو المآل العامّ لاجتماعات الشوارع .

في شارع ميدل سكس ، بين جموع الناس في السوق ، كانت امرأة مسحوقة تحمل طفلاً ذا خمس سنوات . لوّحت ببوق صفيحٍ في وجهه مهدِّدةً . كان الطفل يصرخ .

صاحت المرأة «متِّعْ نفسك! لماذا تظنني جئت بك إلى هنا ، واشتريت لك بوق الصفيح وكل شيء ؟ أتريد أن تجلس على ركبتيَ ؟ أيها النغل ، ستمتِّعُ نفسك!» .

سقطت قطراتُ بصاقٍ من البوق . اختفت الأم والطفل ، وهما يزعقان . كان المشهد جدّ غريب بعد باريس .

في ليلتي الأخيرة بمنزل بنيفيلدز حدث عراكٌ بين اثنين من ساكنيه ، عراك خسيس . أحد المتقاعدين الشيوخ ، وهو في نحو السبعين ، كان عارياً حتى الخصر (قد كان يكوي ملابسه) يشتم عنيفاً ، مُحمَّلَ سفنٍ قصيراً ثخيناً ، يقف وقد أعطى ظهره للنار . كان بمقدوري أن أرى في ضوء النار وجه الرجل العجوز ، وكان يوشك أن يبكي أسيً وغضباً . واضحٌ أن أمراً جدّياً قد حدث .

المتقاعد العجوز : «أنت ـ !»

مُحمِّلُ السفن : «أغلق فمك ، أيها البوم ـ ، قبل أن أتولاّك!»

المتقاعد العجوز : «لو حاولتَ فقط! ـ أنا أكبرك بثلاثين عاماً ، لكني لن أتعب كثيراً في ضربة تجعلك سطلاً مليناً بالبول!»

محمّل السفن : «آه ، وبعدها قد لا أحطِّمك ، أيها البوم ـ!»

وهكذا ، استمرّ الحال على هذا المنوال ، خمس دقائق ، بينما الساكنون يجلسون تعساء ، منقبضي الأنفس ، محاولين إهمال ما يجري . بدا محمِّلُ السفن منقبضاً ، لكن العجوز ظلّ يزداد غضباً ، وهو يقوم باندفاعات صغيرة إزاء الآخر ، مقرِّباً وجهه ، صائحاً بالمحمّلِ من مبعدة إنشات قليلة ، مثل قطة على جدار ، وهو يبصق . كان يحاول تهييج نفسه ليضرب الآخر ، بدون أن يفلح . أخيراً انفجر صارخاً :

«أنت ـــ هذا هو من أنت ، أنت ـــ! خذ هذا في فمك القذر ومُصَّهُ ، أنت! ـــ وحقِّ ـــ سأهشمك قبل أن أقضي عليك . أنت ـــ هذا هو من أنت ، ابن عاهرة ، إلحسْ ذاك ، أنت ـــ! هذا ما أراك . أنت ـــ أنت ـــ أنت ـــ أيها النغل الأسود!»

وفجأةً انهار على المصطبة ، وضع وجهه بين يديه ، وشرع ينتحب . أما الآخر ، فقد خرج بعد أن رأى مشاعر القوم ضدّه .

بعد ذلك سمعت ستيف يشرح سبب العراك . وقد ظهر أن الأمر يتعلق بما قيمته شلنٌ واحدٌ من الطعام . فلقد أضاع العجوز ، بطريقة ما ، مخزونه من الخبز والمرغرين ، هكذا لن يتبقى لديه ما يأكل لمدة الثلاثة الأيام القادمة ، عدا ما يقدمه إليه الآخرون شفقةً وإحساناً ، ويبدو أن المحمِّل الذي كان يشتغل ويأكل جيداً ، قد سخر منه بصورة مهينة . ومن هنا حدث العراك .

حين تدنّى ما لديَّ إلى شلن واحد وأربعة بنسات ، ذهبت كي أنام في منزل مبيت ، بـ«بو» حيث الأجرة ثمانية بنسات فقط . المرء يهبط إلى

حيّزٍ ، ثم يدخل ، عبر دهليز ، في قبو عميق خانق ، مساحته عشرة أقدام مربعة . كان عشرة رجال ، معظمهم شغّالون ، يجلسون في الوهج الشديد للنار . الوقت منتصف الليل ، إلا أن ابن النائب ، وهو طفل شاحب نحيل في الخامسة ، كان يلعب على رُكَبِ الشغّالين . إيرلنديّ عجوز كان يصفر لعصفور أعمى في قفص صغير . كانت ثمت طيور مغردة أخرى ـ مخلوقات صغيرة متضائلة عاشت حياتها كلها تحت الأرض . الساكنون يبولون عادةً في النار ، كي يوفروا على أنفسهم مشقة الذهاب إلى المرحاض عبر الباحة . عندما جلست إلى الطاولة أحسست بشيء يتحرك عند قدميّ ، وإذ نظرت إلى أسفل ، رأيت موجة سوداء تتحرك ، بطيئةً ، عبر الأرضية . كانت خنافس سوداً .

في المهجع ستة أسِرّة ، والشراشف مُعلَّمةٌ بحروف كبيرة « مسروقة من رقم ـ ، شارع ـ » ، كانت ذات رائحة كريهة . في السرير المجاور يرقد رجلٌ طاعنٌ في السنّ ، فنّان رصيف ، منحني الظهر انحناءً غريباً ، حتى أنّه ليبدو خارج السرير ، وقد صار ظهره غير بعيد عن وجهي إلا بقدم أو اثنين فقط . كان ظهره عارياً ، ارتسمت عليه أشكال عجيبة من الأوساخ ، مثل ظاهر طاولة رخام . خلال الليل ، جاء رجل سكران ، واقتعد الأرضية! مريضاً ، قرب فراشي . كان هناك بقٌّ أيضاً ، ليس سيئاً كما في باريس ، لكنه كافٍ لإبقاء المرء مستيقظاً . إنه لمكانٌ قذرٌ . إلا أن النائب وزوجته كانا طيبين ، مستعدين لتقديم كوب شاي في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل .

26

في الصباح ، بعد أن دفعت ثمن الشاي وشريحتي الخبز ، كالمعتاد ، وبعد شرائي نصف أونصة تبغ ، بقي لديّ نصف بنس . لم أكن مهتماً ، بعدُ ، بالتوجه إلى «ب» طالباً المزيد من النقود . لذا لم يكن لديّ خيارٌ سوى الذهاب إلى ملجأٍ عابرٍ . ليست لديّ أدنى فكرة عن تحقيق ذلك ، لكني أعرف أن في رومتون ملجأً عابراً ، وهكذا سرت إلى هناك ووصلت في حوالي الثالثة أو الرابعة عصراً . رأيت عجوزاً إيرلندياً رزيناً ، متشرداً بصورة واضحة ، يقف مستنداً إلى حظيرة الخنازير في سوق رومتون . مضيت إليه واستندت إلى الحظيرة بجانبه ، وقدّمت له علبة تبغي . فتح العلبة ونظر إلى التبغ مندهشاً :

قال : «يا إلهي! هنا ستة بنسات من التبغ الجيد! بحقّ الجحيم ، كيف حصلت على ذلك ؟ أنت لم تكن متشرداً لوقت طويل ؟» .

قلت : «ماذا ؟ أليس لدى المتشردين تبغ ؟» .

«أوه ، لدينا . أنظر» .

أخرج علبة صفيح صدئة ، كانت لمكعّبات أوكسو . وفي العلبة رأيت عشرين أو ثلاثين من أعقاب السجائر الملتقَطة من الرصيف . قال الإيرلندي إنه لايكاد يعرف أي نوع آخر من التبغ ، مضيفاً أن بمقدور الشخص المهتمّ أن يجمع أونصتي تبغ يومياً من أرصفة لندن .

سألني : «هل خرجتَ من أحد سبايكات لندن (الملاجئ العابرة) إيه ؟»

أجبت بالإيجاب ، ظاناً أنه سيتقبلني زميلاً متشرداً . واستفسرت منه عن سبايك رومتون .

«حسناً ، إنه سبايك كاكاو . هناك سبايكات شاي ، وسبايكات كاكاو ، وسبايكات سْكِلِي . في رومتون ، لحسن الحظ ، لا يقدمون لك سْكِلِي . لم يفعلوا ذلك آخر مرة كنتُ فيها . بعدها كنت في يورك وحول ويلز» .

قلت : «سكلي ؟ أي شيء هو ؟»

«سكلي ؟ علبة ماء ساخن في قاعها شوفانٌ كريه . هذا هو السكلي . إن سبايكات السكلي هي الأسوأ» .

استمررنا نتحدث ، ساعة أو ساعتين . كان الإيرلندي شيخاً ودوداً ، لكن رائحته لا تطاق ، وهو أمرٌ غير مستغرب ، بعد أن عرفت عدد الأمراض التي أصيب بها . وتبيَّنَ (هو يصف أعراضه بدقة) الآتي ، حين تأخذه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه : أعلى رأسه (كان أصلع) مصاب بالأكزيما . كان يعاني من قصر نظر ولا يمتلك نظّارات . يعاني من مرض مزمن في القصبات ، ومن ألم غير مشخَّصٍ في ظهره . عنده عسر هضم . التهاب في الحالب . الدوالي ، تورّمٌ في إبهام القدم . قدم مسطّحة . مع هذه المجموعة من الأمراض ، كان عليه أن يذرع الطرقات ، متشرداً ، طيلة خمس عشرة سنة .

في حوالي الخامسة قال الإيرلندي : «هل تريد كوباً من الشاي ؟ إن السبايك لن يفتح إلا في الساعة السادسة» .

قلت : «أعتقد أنني أريد» .

«حسناً ، ثمت مكان يعطونك فيه شاياً وكعكة بالمجّان . الشاي جيد . وهم يجعلونك تردد كثيراً من الصلوات اللعينة بعد ذلك . لكن بحق الجحيم ، نحن نُمضي الوقت هدراً . تعال معي» .

تقدَّمني إلى ظُلَة صفيح في شارع جانبي ، تشبه بهو كريكت قروياً . وكان حوالي خمسة وعشرين متشرداً ينتظرون . كان القليل منهم صعاليك

مألوفين قذرين ، أما الكثير فكانوا شباناً حسني المنظر من الشمال ، قد يكونون عمال مناجم ، أو في صناعة القطن ، عاطلين عن العمل ، فُتح الباب تواً ، ودعتنا إلى الدخول سيدةٌ ذات ثوب حرير أزرق ، ونظارتين ذهبيتين ، وصليب . في الداخل ثلاثون أو أربعون كرسياً قاسياً ، وأُرغن ، وصورة شنيعة لمشهد الصلب . نزعنا قلانسنا ، غير مرتاحين . وجلسنا . قدَّمت لنا السيدة الشاي ، وكانت تتحرك جيئة وذهاباً ، وتتحدث بدون انقطاع ، بينما نحن نأكل ونشرب . تكلمت في شؤون دينية ـ عن رأفة يسوع المسيح الدائمة بالبؤساء أمثالنا ، وعن الوقت الذي يمرّ سريعاً وأنت في الكنيسة ، وعن التغير الذي سيلحق بالمتشرد لو أدّى صلواته منتظمة . كرهنا ذلك . كنا نجلس إلى الحائط ، ونفرك قلانسنا (يشعر المتشرد أنه مكشوف بصورة غير لائقة إذا خلع قلنسوته) ، ونحمرُ خجلاً ، ونحاول أن نغمغم شيئاً إذا خاطبتنا السيدة . لاشكَّ في نواياها الحسنة ولطفها . حين جاءت إلى أحد شبّان الشمال بصحن من الكعك ، قالت له :

«وأنت ، يا ولدي ، كم مضى عليك منذ أن ركعتَ وتكلمت مع أبينا الذي في السماوات ؟ »

الفتى البائس ، لم ينبس ببنت شفة ، لكنَّ معدته أجابت بقرقعة لمرأى الطعام . وهكذا غلبه الخجل ، حتى لم يكد يبتلع كعكته . شخص واحد فقط استطاع أن يجيب السيدة بطريقتها ، كان نشيطاً أحمر الأنف ، يبدو مثل عريف فقد شَرْطته بسبب السكر . كان بمقدوره أن ينطق كلمات «السيد المسيح العزيز» بخجلٍ أقلّ من أي شخص عرفتُه . ولا ريب في أنه تعلَم ذلك في السجن .

انتهى الشاي ، ورأيت المتشردين يتلاحظون . كانت فكرة مكتومة تسري من واحد إلى آخر ـ هل بإمكاننا الإفلات قبل أن تبدأ الصلوات ؟ تحرك أحدهم في كرسيه ـ لم ينهض فعلياً ، لكنه نظر إلى الباب ، كما لو أنه يقترح فكرة المغادرة . سمَّرته السيدة بنظرةٍ منها ، وقالت بصوت أكثر عذوبةً من قبلُ :

«لا أظنكم تريدون المغادرة منذ الآن . فالملجأ العابر لن يفتح إلا في

السادسة ، ولدينا الوقت كي نركع ونقول بضع كلمات لأبينا أولاً . أعتقد أننا سوف نكون أحسن ، بعد ذلك... أليس كذلك ؟ »

الرجل ذو الأنف الأحمر ، قدَّمَ العون ، ساحباً الأرغن إلى موضعه ، وموزعاً كتب الصلوات . كان ظهره إلى السيدة ، ولعبتُه الساخرة أن يقدم الكتب مثل ورق اللعب ، هامساً لكل شخصٍ وهو يفعل ذلك : « لك ، أيها الزميل ، مفاجأة لك! أربعة آسات وشايب! » الخ .

مكشوفي الرؤوس ، ركعنا بين الفناجين القذرة ، وشرعنا نغمغم أننا لم نفعل ما ينبغي فعله ، وفعلنا ما لا ينبغي فعله ، وأننا لسنا معافَين . كانت السيدة تصلي بحميَّةٍ ، لكن عينيها تلاحقاننا طوال الوقت ، كي تتأكد من أننا مشاركون . حين لا تنظر إلينا نضحك ونتغامز ، ونهمس بنكات بذيئة ، فقط لنبيِّن أننا غير معنيّين . لكنّ الصلوات تنحبس قليلاً في حناجرنا . ذو الأنف الأحمر فقط كان رابط الجأش بحيث يرفع إجاباته فوق مستوى الهمس . تحسَّنَ أمرنا مع الغناء ، باستثناء متشرد عجوز لا يعرف إلا لحن « إلى الأمام ، يا جنود المسيح! » ، فيعود إليه أحياناً ، مفسداً الانسجام .

الصلوات استمرت ساعة ، ثم غادرنا المكان ، بعد مصافحة عند الباب .

قال أحدهم بمجرد ابتعادنا عن إمكان السماع : « حسناً . انتهت متاعبنا . ظننت الصلوات اللعينة لن تنتهي إلى الأبد » .

قال آخر : « أكلتَ كعكتك ، وعليك أن تدفع ثمنها » .

« تعني ، أن أصلّي لها . آه ، أنت لا تحصل على شيء مقابل لاشيء . إنهم لا يعطونك حتى كوب شاي ببنسين بدون أن تركع » .

تعالت غمغمات موافقة . واضحٌ أن المتشردين لم يكونوا ممتنّين لشايهم . ومع هذا ، كان الشاي ممتازاً يختلف عن شاي المقاهي اختلاف نبيذ البوردو عن ذلك الشراب المسمّى كلاريه كولونيال ، وكنا مبتهجين له جميعاً!

كما أنني متأكد ، من أن الشاي قُدِّم إلينا بروح طيبة ، بدون أي مقصدٍ لإذلالنا ، لذا ، فمن العدل أن نكون ممتنّين ـ إلا أننا لم نكن .

27

حوالي السادسة إلا الربع قادني الإيرلنديّ إلى السبايك . كان كعبةً كالحة ، داخنة الصفرة من الطابوق ، ماثلةً في ركن في ساحة الورشة . هذا السبايك ، بصفوف نوافذه الصغيرة ذات القضبان ، وسوره العالي ، وبوّاباته الحديد ، يبدو مثل سجن . منذ الآن كان طابور من الرجال ذوي الأسمال ينتظر فتح البوابات . إنهم من أعمارٍ شتى ، أصغرهم فتى ناضر الوجه في السادسة عشرة ، وأكبرهم شخصٌ مومياءٌ ، منحني الظهر ، أدرد ، في الخامسة والسبعين . بعضهم كان صعلوكاً متمرساً تعرفه من عصاه وهراوته ووجهه المغبرّ ، وبعضهم كان عامل مصنع عاطلاً ، وبعضهم كان عاملاً زراعياً . أحدهم موظف ذو ياقة وربطة عنق ، واثنان معتوهان . كان منظر هذا الجمع المنتظِر مثيراً للاشمئزاز . لا شيء أثيمٌ أو خطرٌ . إنهم حشد بالغ الزراية من البشر المهلهلين ، سيئي التغذية . لكنهم كانوا ودودين ، ولم يسألوا أسئلة . وقد قدّم لي بعضهم التبغ ، أعقابَ سجائر .

استندنا إلى السور ، ندخن ، وشرع المتشردون يتحدثون عن السبايكات التي أمُّوها مؤخراً . وقد ظهر مما قالوه أن كل السبايكات مختلفة ، ولكل سبايك مزاياه ونواقصه ، ومن الضروري معرفة هذه المزايا والنواقص إن كنتَ تذرع فضاء الله . إن متشرداً عريقاً سوف يخبرك عن خصائص كل سبايك في إنجلترا ، مثل : في سبايك « أ » مسموحٌ لك بالتدخين ، لكنَ في الحُجيرات

بقاً . في « ب » الأسرَّة مريحة لكن البوّاب غليظ . في « ج » يُدخلونك مبكراً في الصباح لكن الشاي كريه . في « د » يسرق الموظفون نقودك إن كان لديك شيء منها ـ وهكذا . وثمت دروبٌ مطروقة منتظمة حيث يبعد السبايك عن الآخر مسافة مسيرة يوم . ولقد أُخبرت أن طريق بارنيت سانت ألبانز هو الأفضل ، وأخبروني أن أتجنب بيلاريكي وتشيلمز فورد ، وكذلك آيدهيل في كينت ، وقيل إن تشيلزي هو أفخر سبايك في إنجلترا ، وقال لي أحدهم ممتدحاً إن البطانيات هناك هي أقرب إلى بطانيات السجين منها إلى تلك التي في السبايكات . المتشردون ينتشرون بعيداً في الأرياف صيفاً ، لكنهم في الشتاء يحومون أكثر حول البلدات الكبيرة ، فهي أدفأ وأكثر إحساناً . إلا أن عليهم الترحال المستمر ، فأنت لا تستطيع أن تدخل سبايكاً واحداً ، أو أي سبايكين في لندن ، أكثر من مرة واحدة في الشهر ، خشيةَ أن تُحبس أسبوعاً .

بعد السادسة بقليل فتحت البوّابات ، وأخذنا ننتظم في طابور فرديّ . في الباحة مكتبٌ يدوِّن موظفٌ فيه أسماءنا وأعمارنا في سجلّ ، وكذلك الأماكن التي جئنا منها ، وتلك الذاهبين إليها ـ والمقصود من الأخيرة ضبط تحركات المتشردين . سجّلت مهنتي « رسّاماً » . كنت رسمت بالألوان المائية ـ من لم يفعل ذلك ؟ كما استفسر منا الموظف إن كان لدينا نقود ، والجميع قالوا لا . إن الدخول إلى السبايك بأكثر من ثمانية بنسات مخالفٌ للقانون ، وكل مبلغ يقلّ عن ذلك يجب تسليمه عند البوابة . لكن القاعدة أن المتشردين يفضلون تهريب نقودهم إلى الداخل معقودة في قطعة قماش كي لا ترنّ . وهم يضعونها ، عموماً ، في كيس الشاي أو السكّر الذي يحمله كل متشرد ، أو بين ما لديهم من « أوراق » . « الأوراق » تعتبر مقدَّسةً ، ولا تخضع للتفتيش البتة .

بعد تسجيلنا في المكتب ، يتولى إدخالنا في السبايك موظفٌ يدعى « رائد المتشردين » ، (مهنة الإشراف على العابرين ، وهو في العادة رجل فقير يعيش على نفقة الورشة) ، وبوّابٌ وغدٌ ضخمٌ في بزّة زرقاء ، يعاملنا معاملة القطيع . يتكون السبايك من مجرد حمّام ومرحاض ، والباقي صفوف مزدوجة

من حُجيرات حَجريّة ، يبلغ عددها المائة . إنه مكانٌ عارٍ ، كئيب ، من الحجر والطلاء الأبيض ، نظيفٌ ، ذو رائحة توقّعتُها من مَظهره ، رائحة صابون ناعم ، وسائل جَيز ، ومراحيض ـ رائحة باردة ، محبِطة ، مثل رائحة السجن .

ساقنا البوّاب جميعاً نحو ممرٍّ ، ثم أخبرنا بدخول الحمّام ، كل ستةٍ في دفعة ، كي نفتَّش قبل الاستحمام . التفتيش يتعلق بالنقود والتبغ ، إذ أن سبايك رومتون أحد تلك السبايكات المسموح لك بالتدخين فيها إذا استطعت تهريب تبغك ، لكن هذا التبغ سوف يصادر إذا عُثر عليه عندك . أخبرنا المتشردون العريقون أن البواب لا يفتش أسفل الركبة ، ولهذا ، أخفينا قبل الدخول ، تبغنا في كواحل جزماتنا . في ما بعد ، ونحن نخلع ملابسنا ، نضع التبغ في جيوب ستراتنا التي يسمحون لنا بالاحتفاظ بها ، كي نستعملها مخدّاتٍ .

المشهد في الحمّام منفِّرٌ للغاية . خمسون رجلاً قذراً عارياً يتزاحمون بالمناكب ، في حجرة مساحتها عشرون قدماً مربعاً ، ذات حوضين فقط ، ومنشفتين خفيفتين دوّارتين بينهم جميعاً . لن أنسى عطن الأقدام الوسخة . أقل من نصف المتشردين استحموا بالفعل (سمعتهم يقولون إن الماء الساخن يضعف الجسم) ، لكنهم جميعاً غسلوا وجوههم وأقدامهم ، والمِزَقَ الصغيرة المدهَّنة الفظيعة التي يدعونها قماشات أصابع القدم ، والتي يلفّونها حول أصابع أقدامهم . الماء النظيف مسموحٌ به فقط للرجال الذين يستحمون استحماماً كاملاً ، ولذلك يستحم رجالٌ عديدون في ماءٍ غسل فيه آخرون أقدامهم . البوّاب يُدخلنا ويُخرجنا ، موجِّهاً كلمات قاسية إلى من يضيع الوقت . حين جاء دوري للاستحمام ، استفسرت عمّا إذا كان بإمكاني تغيير ماء الحوض الذي كان قذراً ، قبل أن أستحمَ . أجابني ببساطة : « أغلقْ فمك ، واستحمَّ! » . هكذا عرفت الطبيعة الاجتماعية للمكان ، فلم أفتح فمي ثانيةً .

عندما أنهينا استحمامنا ، عقد البوّابُ ملابسنا في صُررٍ وأعطانا قمصان الورشة ـ وهي قطنيّات مشكوكٌ في نظافتها ، تسبه جلابيات نومٍ مختصرة . أُرسلنا فوراً إلى الحُجيرات ، ثم جلب البواب ورائد المتشردين عشاءنا من

الورشة . كانت أرزاقنا نصف رطل من الخبز الممسوح بالمرغرين ، وباينت من الكاكاو المر ، بدون سكّر ، في إناء صفيح . التهمنا هذا ، في خمس دقائق ، مقتعدين الأرض . وفي حوالي السابعة أُغلقت أبواب الحجيرات من الخارج ، كي نظل محتبسين حتى الثامنة صباحاً .

يُسمح لكل واحد بالنوم مع زميله ، وقد صُممت الحجيرات لينام في كل واحدةٍ منها اثنان . لم يكن لديّ زميل ، ولهذا وُضعت مع شخص آخر منفرد ، ذي وجهٍ محكوكٍ وحَوَلٍ ضئيل . الحجيرة خمسة أقدام × ثمانية ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وهي من الحجر ، وفيها كوَّةٌ عالية في الجدار ذات قضبان ، وعين تجسس في الباب مثل زنزانة سجن . وكان فيها ست بطانيات ، ومبولة ، وأنبوب ماء ساخن ، ولا شيء عدا ذلك . ثم أدركت في صدمة اندهاش ما أنا فيه ، فهتفت :

«اللعنة! لكن أين الفراش ؟ »

قال الرجل الآخر مستغرباً : « الفراش ؟ ليس من فراش! ماذا تتوقع ؟ إن هذا من السبايكات التي تنام فيها على الأرض . بحق المسيح! ألم تعتَدْ ذلك بعدُ ؟ » .

ظهر أن غياب الفراش أمرٌ عاديّ في السبايك . لففنا ستراتنا ووضعناها لصق أنبوب الماء الساخن ، وحاولنا أن نرتاح قدر المستطاع . صارت الحجيرة فاسدة الهواء ، إلا أنها لم تكن من الدفء بحيث يكون باستطاعتنا أن نضع كل البطانيات تحتنا ، وهكذا تعيَّنَ علينا أن نكتفي ببطانية واحدة تخفف من قسوة الأرضية . نمنا على مبعدة قدم من الآخر ، والواحد منا يتنفس في وجه الثاني ، وأطرافنا العارية تتلامس باستمرار ، متدحرجين إزاء بعضنا كلما غرقنا في النوم . كان واحدنا ينقلب من جنب إلى آخر بدون جدوى ، وكيفما انقلبت داهمك شعورٌ بالكآبة ، ثم وجعٌ حادٌ من قسوة الأرضية التي تبلغك عبر البطانية . بإمكان المرء أن ينام ، لكن ليس أكثر من عشر دقائق لكل رقدةٍ .

حوالي منتصف الليل ، بدأ الرجل الآخر محاولاتٍ لواطيةً معي . وهي تجربة عجيبة في حجيرة مغلقة ، مطبقة الظلام . كان شخصاً ضعيفاً ، وبإمكاني

تدبير أمره بسهولة ، لكن النوم صار مستحيلاً بالطبع . أمضينا بقية الليل ندخن ونتحدث . أخبرني الرجل بقصة حياته . كان مصلّحَ آلاتٍ عاطلاً مدة ثلاث سنوات عن العمل ، وقد هجرته زوجته بعد أن فقد عمله ، ومُذّاك انقطع عن النساء حتى كاد ينساهنّ . قال إن اللواط شائع بين المتشردين العريقين .

في الساعة الثامنة ، اجتاز البوّاب الممرَّ وهو يفتح الأبواب ، هاتفاً : «الجميع ، إلى الخارج! » . انفتحت الأبواب مُصدرةً عطناً حامضاً . وبغتةً امتلأ الممر بهيئات زريّة ترتدي قمصاناً رمادية ، وكل واحدٍ يحمل مبولته ، متجهاً إلى الحمّام . وظهر أن حوض ماءٍ واحداً ، يخصص لنا جميعاً ، في الصباح ، وعندما وصلتُ كان عشرون متشرداً غسلوا وجوههم . ألقيت نظرة واحدة على الأوساخ السوداء الطافية على وجه الماء ، فلم أغسل وجهي . بعد ذلك قُدّم لنا طعام فطور مثل طعام العشاء ، وأعيدت ملابسنا إلينا ، وأُمرنا بالخروج إلى الباحة كي نشتغل . وكان شغلنا تقشير البطاطا لغداء رائد المتشردين ، لكنه عملٌ شكليّ يُقصد به إشغالُنا حتى مجيء الطبيب الذي سوف يفحصنا . معظم المتشردين تكاسلوا بصورة بيّنةٍ . حضر الطبيب في حوالي الساعة العاشرة ، وأُمرنا بالعودة إلى حجيراتنا ، وخلع ملابسنا ، وانتظار الفحص في الممر .

عراةً ، مرتجفين ، اصطففنا في الممر . ليس بمقدورك أن تتصوّر أيّ مخاليق بائسة منحطّة كنا نبدو ، واقفين هناك في ضوء الصباح الذي لا يرحم . إن ملابس المتشرد رديئة ، لكنها تخفي أشياء أردأ . ولكي ترى المتشرد ، كما هو ، غير مستتر ، عليك أن تراه عارياً . أقدامٌ مسطّحة ، بطونٌ منتفخة ، صدورٌ غائرة ، عضلاتٌ سائبة ـ كل نوع من التعفن الجسدي هناك . كلهم تقريباً سيء التغذية ، وبعضهم معتلّون تماماً . اثنان كانا يرتديان حزامي فتْق ، أما الشخص المومياء ذو الأعوام الخمسة والسبعين فإن المرء ليستغرب من أنه قادرٌ على السير . وحين تنظر إلى وجوهنا غير الحليقة ، المتغضنة من رقاد البارحة ، تظننا جميعاً نستفيق من أسبوع شربٍ متواصل .

الفحص مخصصٌ فقط لكشف الجدري ، ولا يهتم بحالتنا العامة . طالب طبٍّ شابّ ، يدخن سجارته ، مسرعاً عبر الطابور ، ناظراً إلى أعلى وأسفل ، لا يسأل إن كان أحدنا مريضاً أم غير مريض . وعندما خلع زميلي في الحجيرة ملابسه رأيت صدره مليئاً بطفح أحمر ، وقد شعرت بفزع العدوى من الجدري ، لأنني أمضيت ليلتي جدّ قريب منه . لكن الطبيب فحص الطفح وقال إنه بسبب سوء التغذية فقط .

بعد الفحص ارتدينا ملابسنا ، وأُرسلنا إلى الباحة ، حيث نادى علينا البوّاب بأسمائنا ، وأعاد إلينا ممتلكاتنا التي كنا تركناها في المكتب ، ووزّع علينا بطاقات وجبات طعام . قيمة كل بطاقة ستة بنسات ، وهي معتمدة في مقاهي الطريق التي سميناها البارحة . مما يجلب الانتباه أن عدداً كبيراً من المتشردين لا يعرفون القراءة ، وأن عليهم اللجوء إليّ ، وإلى سواي ، من «الأساتذة» ، كي نحلّ رموز بطاقاتهم .

فُتحت البوابات ، فتفرّقنا فوراً . كم عذبٌ هو الهواء بعد عفونة السبايك المغلق! لديّ الآن زميل ، فعندما كنا نقشر البطاطا صادقتُ متشرداً إيرلندياً اسمه بادي جاك ، وهو رجلٌ شاحب كئيب يبدو نظيفاً ومقبولاً . كان متجهاً إلى سبايك إيدبري ، واقترح عليّ أن نمضي إلى هناك سويّةً . انطلقنا ، لنصل إلى هناك في الثالثة عصراً . كانت المسيرة اثني عشر ميلاً ، لكننا جعلناها أربعة عشر ميلاً ، بسبب ضياعنا في الأحياء الفقيرة الموحشة شماليّ لندن . كانت بطاقات وجباتنا موجهة إلى مقهى إلفورد . وعندما بلغنا المقهى ، رأت الخادمة المحتالة الصغيرة بطاقاتنا ، وعرفت أننا متشردان ، فأعرضتْ عنا ، ولم تخدمنا إلا بعد مرور وقت طويل . أخيراً ألقت على الطاولة بكوبي شاي كبيرين وأربع شرائح خبز وشيء من سائل الشواء ـ وهذا طعام ثمنه ثمانية بنسات . وقد ظهر أن هذا المقهى اعتاد أن يغشّ المتشردين ببنسين أو نحوهما في كل بطاقة ، وبما أن المتشردين يحملون بطاقاتٍ لا نقوداً ، فلم يكن بمقدورهم الاحتجاج أو الذهاب إلى مكان آخر .

28

ظلَّ بادي زميلي معظم الأسبوعين القادمين ، وبما أنه أول متشرد عرفته جيداً ، أريد أن أقدم صورة عنه . أعتقد أنه متشرد أنموذجيّ ، وثمت في إنجلترا عشرات الآلاف ممن يشبهونه .

كان فارع الطول ، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر ، ذا شعر أحمر أخذ يتجعد ، وعينين زرقاوين مترقرقتين . كان حسن الملامح إلا أن خدَّيه ترهَّلا ، وظهرت عليهما تلك السيماء المربدَّة القذرة ، المتأتية من اغتذاء الخبز والمرغرين فقط .

ملبسُه أفضل من أغلب المتشردين : سترة صيد من قماش التويد ، وبنطلون مساء لايزال محتفظاً بخطٍّ عَقْصته . ويبدو أن العقصة تمثل في ذهنه بقيةً من الاحترام ، لذا يحرص على خياطتها كلما اهترأتْ . وهو يعتني بمظهره ، عامةً ، ويحتفظ بموسى وفرشاة أحذية لن يبيعهما ، مع أنه باع «أوراق»ـهُ ، وحتى مطواتَه ، منذ أمدٍ بعيد .

ترعرع في إيرلندا ، وخدم في الحرب سنتين ، ثم اشتغل في مصنع للدهان المعدني ، حيث فقد عمله منذ سنتين . كان يشعر بالعار من كونه متشرداً ، إلا أنه اكتسب كل طرائق المتشرد . وهو يمسح الأرصفة باستمرار ، ملتقطاً أعقاب السجائر ، دون أن يخطئه عَقِبٌ ، أو حتى علبة سجائر فارغة ، فهو يستعمل الورق اللمّاع للفّ السجائر .

في طريقنا إلى إيدبري رأى لفّةَ صُحفٍ على الرصيف ، وثبَ عليها ، ليجد أنها تحتوي على شطيرتين من لحم الخروف ، مقضومتي الطرفين ، وقد أصرَّ على اقتسامهما معي . وهو لن يمرَّ على آلة أوتوماتيكية بدون أن يدير مقبضها ، فهو يقول إن هذه الآلات قد تكون معطلة ، ولهذا سوف تقذف بنسات حين تدير مقبضها . لكنه لا يطيق الجريمة . عندما كنا في ضواحي رومتون ، رأى بادي زجاجة حليب على عتبة منزل ، متروكة هناك خطأً ، كما هو واضح . توقّفَ ونظر إلى الزجاجة بنهم .

قال : «بحق المسيح! هذا غذاء جيد معرَّض للفساد . أحدهم سوف يخطف هذه الزجاجة ، إيه ؟ يخطفها بسهولة» .

رأيت أنه يفكر في أن يخطفها بنفسه .

نظر إلى الشارع . كانت المنطقة سكنية ، ولا أحد هناك . كان وجه بادي المريض المترهل يتوق إلى الحليب . استدار عن الزجاجة ، قائلاً بأسى :

«الخير أن نتركها . لا منفعة تُرجى من السرقة . شكراً للّه ، أنا لم أسرق حتى الآن شيئاً» .

الذعرُ ، وليدُ الجوع ، هو ما جعله فاضلاً .

فبوجبتين جيدتين ، أو ثلاث ، في معدته ، كان سيجد الشجاعة لسرقة الحليب . مادتا حديثه اثنتان ، خجله من كونه متشرداً ، وأفضل طريقة للحصول على وجبة مجّانية . وبينما نحن نطوّف في الشوارع ، كان يظل يغمغم بمونولوج على هذا النحو ، في صوت شاكٍ باكٍ ، صوتٍ إيرلنديّ :

«جحيمٌ أن تذرع الطرقات ، إيه ؟ وقلبك ينكسر وأنت تدخل هذه السبايكات اللعينة . لكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل غير هذا ؟ إيه ؟ أنا لم آكل وجبة لحمٍ منذ حوالي الشهرين ، وجزمتي تزداد حالتها سوءاً ـ وبحق المسيح! ماذا سيكون لو حاولنا الحصول على كوب الشاي عن طيب خاطر . آه ، ماذا سيفعل المرء بلا دين ، إيه ؟ أنا أخذت كوب شاي من الأديرة ،

ومن المعمدانيين ، والكنيسة الانجليكانية ، ومن كل الأصناف . أنا نفسي ، كاثوليكيّ . لكني لم أذهب إلى الاعتراف منذ سبع عشرة سنة ، غير أني لاأزال أحتفظ بمشاعري الدينية ، أنت تفهم . وتلك الأديرة جيدة دائماً لكوب من الشاي...» الخ . الخ . كان يظل يتحدث على هذا النحو طوال اليوم ، بدون أن يتوقف تقريباً .

كان جهله مطبقاً ، ومثيراً للامتعاض . على سبيل المثال ، سألني مرة إن كان نابوليون عاش قبل يسوع المسيح أو بعده . ومرة ثانية ، حين كنت أنظر في واجهة مكتبة ، ارتبك كثيراً لأن أحد الكتب يحمل عنوان «عن تقليد المسيح» ، وقد اعتبر ذلك كفراً . سأل غاضباً : «بحق الجحيم! ماذا تريد من تقليده ؟» . إنه قادر على القراءة لكنه يكره الكتب . في طريقنا من رومتون إلى إيدبري ، دخلتُ مكتبة عامة ، ومع أن بادي لم يرد أن يقرأ ، غير أني اقترحت عليه أن يدخل ويريح ساقيه ، لكنه فضّلَ الانتظار على الرصيف . قال : «إن منظر هذه المطبوعات كلها يجعلني أمرض» .

مثل معظم المتشردين كان شديد البخل بأعواد الكبريت . كانت لديه علبة كبريت حين التقيت به ، لكني لم أره يخرجها ليشعل منها عوداً . وقد اعتاد أن يلقي عليّ محاضرة عن الإسراف إذا أشعلت أحد أعواد كبريتي . وطريقته أن يؤرث سجارته من الغرباء ، مفضلاً البقاء نصف ساعة بلا تدخين على إشعال عود كبريت .

رثاء الذات كان مفتاح شخصيته . ويبدو أن فكرة سوء طالعه لا تفارقه لحظةً . وكان يقطع أوقات صمت طويلة ، بهتافه ، دونما سبب : «لعنةٌ أن تبدأ ثيابك تهترئ» ، أو «ذلك الشاي في السبايك لم يكن شاياً ، كان بولاً» ، كأنْ ليس في العالم شيء آخر يمكن الكلام عليه . وكان يحسد حسداً خسيساً كل من هو أفضل حالاً منه ـ لا أقصد الأغنياء ، فهم خارج أفقه الاجتماعي ، وإنما الرجال الذين يعملون . إنه يتشوف إلى العمل ، كما يتشوف فنان إلى الشهرة . فإن رأى رجلاً عجوزاً يعمل قال بمرارة : «أنظر

إلى ذلك ـ العجوز ، يدع الرجال القادرين بلا عمل » ، أمّا إذا كان فتىً ، فسوف يقول : « هؤلاء الأبالسة الصغار يأخذون خبزك من فمك » . الأجانب كلهم « كلاب حقيرة » حسب قوله ، ونظريته تقول إن الأجانب مسؤولون عن البطالة . وهو ينظر إلى النساء نظرةً فيها مزيجٌ من اللهفة والبغض . الشابّات الجميلات كنّ أبعد من أن يدخلن في ذهنه ، لكن فمه يتحلَّب لمرأى العاهرات . تمرّ مخلوقتان عجوزتان قرمزيتا الشفاه ، فيحمرّ وجه بادي احمراراً شاحباً ، ويلتفت إلى المرأتين ناظراً بنهم ، ويغمغم : « عاهرتان! » مثل ما ينظر صبيّ إلى واجهة محل حلويات . أخبرني مرةً أنه لم يعاشر امرأة منذ سنتين ، بعد أن فقد عمله ، وأنه نسي أن بمقدور المرء التفكير بغير العاهرات . إنه يمتلك الشخصية العادية للمتشرد ـ الدنيئة ، الحاسدة ، شخصية ابن آوى .

بالرغم من هذا كله ، كان إنساناً طيباً ، كريماً بطبعه ، وقادراً على مقاسمة صديقٍ كِسرته الأخيرة . وقد جعلني ، بالفعل ، أشاركه كسرة خبزه الأخيرة ، أكثر من مرّة . وقد يكون قادراً على العمل أيضاً ، لو تهيّأت له تغذية جيدة لمدة شهور قليلة . لكن عامين من الخبز والمرغرين حَطّا من حاله إلى حدّ اليأس . لقد عاش عل طعامٍ مقلَّدٍ قذر حتى صار عقله وجسده من طينةٍ أدنى . سوء التغذية ، لا سواه من الأدواء ، هو ما حطّمَ رجولته .

29

في طريقنا إلى إيدبري ، أخبرت بادي بأن لديّ صديقاً أستطيع أن آخذ منه مالاً بالتأكيد ، وعرضتُ عليه أن نمضي رأساً إلى لندن بدلاً من قضاء ليلة أخرى في السبايك . لكن بادي لم يكن في سبايك إيدبري مؤخراً ، ومثل أي متشرد ، لم يرد أن يضيع قضاء ليلة بالمجان . اتفقنا على الذهاب إلى لندن في الصباح التالي . كان لديّ نصف بنس فقط ، أما بادي فكان لديه شلنان يمكن لنا ، بهما ، أن ننام ، ونشرب بضعة كؤوس شاي .

لا يختلف سبايك إيدبري كثيراً عن سبايك رومتون . وأسوأ ما فيه أن كل التبغ يصادَر عند البوابة ، وإن قُبض على شخص يدخّن أُخرج من السبايك فوراً . وبموجب قانون التشرد ، تمكن مقاضاة المتشرد إذا دخّن في السبايك ـ والواقع أن المتشردين تمكن مقاضاتهم لأي شيء ، لكن السلطات تتجنب متاعب المقاضاة بطرد الرجال المخالفين . لا عمل هنا نؤديه ، والحجيرات مريحةٌ جداً . نمنا كلانا في حُجيرة واحدة ، أحدنا في الأعلى ، والثاني في الأسفل ، أي أن أحدنا نام على رفٍّ خشبي ، والآخر على الأرض ، مع حشيّتي قش ، وبطانيات كثيرة ، قذرة ، لكنها لا تعجّ بالحشرات . الطعام كان مثل طعام رومتون ، باستثناء تقديم الشاي لا الكاكاو . وبالإمكان الحصول على شاي إضافي في الصباح ، ذلك لأن رائد المتشردين يبيع كأس الشاي بنصف بنس ، سراً بالطبع . وقد أعطي كل منّا قطعة خبز وجبناً لنأخذها معنا ، وجبةَ غداء .

عندما بلغنا لندن كان علينا أن نقتل ثماني ساعات قبل أن تفتح بيوت الإقامة . غريبٌ كيف لا يلاحظ المرء الأشياء . لقد كنت في لندن مرّاتٍ عدة ، لكني لم أكتشف حتى ذلك اليوم أسوأ شيء في لندن ـ حقيقة أن الجلوس ذاته يكلِّف مالاً . في باريس ، حين لا تكون لديك نقود ، ولا تجد مصطبة عامّة ، تستطيع الجلوس على الرصيف . الله وحده يعلم ما قد يؤدي إليه الجلوس على الرصيف في لندن ـ ربما السجن . مع الساعة الرابعة ، كنا وقفنا خمس ساعات ، وأحسسنا بأقدامنا ساخنة حتى الإحمرار من صلابة الأحجار . كنا جائعين ، وقد أكلنا أرزاقنا بمجرد مغادرتنا السبايك ، ونفد تبغي ـ وهو أمرٌ يهمّ بادي على الأقل ، مادام يلتقط أعقاب السجائر . حاولنا دخول كنيستين فوجدناهما مغلقتين . وحاولنا الاستراحة في مكتبة عامة ، لكنها كانت بلا مقاعد . اقترح بادي ، في أملٍ أخير ، أن نجرِّب بيتاً من بيوت روتون التي لا يسمح لنا بدخولها ، عادةً ، قبل السابعة . لكننا قد نتسلل إليها ، خِفيةً . سرنا حتى المدخل الفاخر (بيوت روتون فاخرة حقاً) وحاولنا أن نبدو مثل مقيمين حقيقيين ، وشرعنا نخطو إلى الداخل . فجأةً أغلق طريقنا ، شخصٌ متمددٌ في المدخل ، حادُّ القسَمات ، في موقع مسؤولية كما يبدو ، وقال :

« أكنتما نائمين هنا البارحة ؟ »

« لا »

« إذاً ، اغربا عن وجهي » .

أطعنا الأمر . ووقفنا ساعتين أخريين في ركن الشارع . الوقوف غير مريح ، لكنه علّمني ألا أستخدم تعبير « متسكع ركن الشارع » ، فربحتُ شيئاً .

في الساعة السادسة ذهبنا إلى أحد ملاجئ جيش الخلاص . ليس باستطاعتنا حجز أسرّة حتى الساعة الثامنة ، كما أننا لسنا متأكدين من أننا سنجد أماكن شاغرة ، لكن موظفاً نادانا بـ« الأخ » أدخلنا ، شريطة أن ندفع

ثمن كوبي الشاي . قاعة الملجأ الرئيسة ، تشبه مخزن حبوب ، وهي مطلية بالأبيض ، نظيفة وعارية بصورة مقبضة ، وليس فيها من نار . كان مائتان من الرجال المقبولين مظهراً يجلسون على مصاطب خشبية طويلة . وهناك موظفان يرتديان زيّاً موحداً يمشيان جيئةً وذهاباً . على الجدار صور للجنرال بوث ، وإعلانات عن منع الطبخ والتدخين والبصاق والسِّباب والعراك والقمار . ولأمثِّل على هذه الإعلانات ، أختارُ واحداً استنسختُه حرفياً :

« كل من وُجد يقامر أو يلعب الورق سوف يُطرد ، ولن يسمح له بالدخول تحت أي ظرف كان .
تُمنح جائزة لكل إخبارٍ يؤدي إلى اكتشاف مثل هؤلاء الأشخاص .
الموظفون المسؤولون يدعون كل الساكنين إلى مساعدتهم في الحفاظ على هذه المضافة خالية من شرِّ القمار البغيض » .

« المقامرة أو لعب الورق » تعبير بهيجٌ .

في نظري أن ملاجئ جيش الخلاص ، بالرغم من نظافتها ، هي أسوأ من بيوت الإقامة .

إن بعض الناس هناك ، ميؤوسٌ منهم تماماً ـ أنماط معقولة منكسرة من البشر الذين رهنوا ياقاتهم لكنهم لايزالون يحاولون الحصول على وظائف . والمجيء إلى ملجأ لجيش الخلاص ، حيث المكان نظيف في الأقل ، يمثل لديهم آخر تشبثٍ بالوقار . عند الطاولة المجاورة ، كان أجنبيان ، يرتديان أسمالاً ، لكنهما سيّدان كما يبدو عليهما . كانا يلعبان الشطرنج شفاهياً ، دون حتى أن يسجلا النقلات . كان أحدهما أعمى ، وسمعتهما يقولان إنهما كان يوفِّران منذ زمن طويل كي يشتريا رقعة شطرنج ، ثمنها نصف كراون ، لكنهما لم يفلحا البتة . هنا وهناك كان موظفون عاطلون عن

العمل ، غارقون في حالاتهم . وبين مجموعة منهم كان شابٌ طويل نحيفٌ شاحبٌ شحوب الموتى يتحدث باهتياج . كان يضرب الطاولة بقبضته ويواصل ادّعاءاته بأسلوب غريب محموم . وعندما صار الموظفان على غير مسمعٍ منه انفجر في عبارات كفرٍ مباغتة :

«أخبركم أيها الأولاد ، بأنني سوف أحصل على ذلك العمل غداً . أنا لست واحداً من كتيبتكم الراكعة اللعينة . أستطيعُ أن أتدبَّر أمري . أنظروا إلى ذلك الإعــلان هناك! «الله كــريم!»... إنه لم يتكرم عليّ بشيء . لن تجــدوني أومن بالله . اتركــه لي أيهــا الأولاد . ســوف أحــصل على ذلك العمل»... الخ . الخ .

راقبته ، مصعوقاً بطريقة حديثه الوحشية الهائجة . بدا لي هستيرياً ، أو ثملاً قليلاً . بعد ساعة دخلت في حجرة صغيرة منفصلة عن القاعة الكبيرة ، أنوي القراءة . لم تكن فيـهـا كتب أو أوراق ، ولهـذا لا يكاد السـاكنون يدخلونها . وما أن دخلت حتى وجدت الموظف الشاب وحده هناك . كان يصلي راكعاً . قبل أن أغلق الباب ثانيةً ، أتيح لي أن أرى وجهه ، وكان يتألم . وبغتةً أدركتُ من تعبير وجهه أنه كان جائعاً . أجرة السريرين كانت ثمانية بنسات . وبقي لدينا ، بادي وأنا ، خمسة بنسات ، وقد أنفقناها في «البار» حيث الطعام رخيص ، وإن لم يكن أرخص من بعض بيوت الإقامة الأخرى . وظهر لي أن الشاي معدٌ من «غبار» الشاي الذي قد يكون قُدِّمَ إلى جيش الخلاص تبرُّعاً ، مع أنهم يبيعونه بثلاثة بنسات ونصف البنس للكوب الواحد ، ولقد كان سائلاً عكراً . في الساعة العاشرة سار موظف حول القاعة مطْلقاً صفّارته . وعلى الفور انتصب الجميع واقفين .

قلت لبادي مستغرباً : «لمَ هذا ؟»

«هذا يعني أن عليك الذهاب إلى النوم . ويجب أن تكون منضــبطاً أيضاً» .

مثل الخراف ، سار الرجال المائتان ، طائعين ، إلى الفراش ، بإمرة

الموظفين . كان المهجع عِلِّيةً واسعة مثل حجرة ثكنة ، تحتوي على ستين فراشاً أو سبعين . الأفرشة نظيفة ومريحة ، لكنّ الأسرّةَ قريبة جداً من بعضها ، حتى أن المرء ليتنفس ، مباشرةً ، في وجه جاره . نام موظفان في المهجع كي يتأكدا أن أحداً لن يدخن ، أو يتحدث ، بعد إطفاء الأنوار . أنا وبادي لم تغمض لنا عين ، فقد كان إلى جوارنا شخص يعاني متاعب عصبية ، صدمةَ قنابل ربما ، جعلته يصرخ في فترات غير منتظمة «بيب!» . كان صوتاً عالياً ، مروِّعاً ، شيئاً مثل ما يصدره بوق سيارة صغير . أنت لا تعرف متى يجيء ، وهو بالتأكيد مانعٌ للنوم . وقد ظهر أن «بيب» كما يسميه الآخرون ، ينام بصورة منتظمة في الملجأ ، وأنه في كل ليلة ظل يوقظ عشرة أو عشرين من رقادهم . إنه أنموذجٌ لذلك الشيء الذي يمنع المرء من أن يأخذ كفاية نومه حين الناس مزدحمون في بيوت الإقامة هذه مثل خراف في حظيرة .

في الساعة السابعة ، انطلقت صفّارة أخرى ، ودار الموظفون كي يوقظوا من لم ينهضوا على الفور . مُذّاك نمتُ في عدد من ملاجئ جيش الخلاص ، ووجدت أنه بالرغم من الاختلاف الطفيف بين البيوت ، إلا أن الضبط شبه العسكري هو نفسه في جميعها . إنها رخيصة بالتأكيد ، غير أنها تشبه الورشات في رأيي . في بعضها صلوات إجبارية ، دينية ، مرة أو مرتين في الأسبوع ، على المقيمين حضورها وإلا أُخرجوا من البيت . والواقع أن جيش الخلاص مؤمنون تماماً بأنهم جهازٌ خيريّ إلى حدّ أنهم لا يستطيعون تسيير بيت إقامة بدون أن يجعلوا الرائحة النتنة للإحسان تفوح منه .

في الساعة العاشرة ذهبت إلى مكتب «ب» ، وسألته أن يقرضني باوناً . أعطاني باونين ، وأخبرني أن أعاود المجيء إليه حين الضرورة ، وهكذا تحررت أنا وبادي من متاعب النقود لمدة أسبوع في الأقل . تسكعنا طوال النهار في ساحة الطرف الأغر ، باحثين عن صديقٍ لبادي لم يظهر قَطُّ ، وفي الليل ذهبنا إلى بيت إقامة في زقاق خلفيّ قرب الستراند . كانت الأجرة

أحد عشر بنساً ، لكنه كان مكاناً معتماً ، كريه الرائحة ، وملاذاً شنيعاً للفتيان اللواطيين . أسفل البيت ، في المطبخ المضبَّب ، كان ثلاثة شبّان ذوو مظهر ملتبس وبدلات زرق أنيقة ، يجلسون وحدهم على مصطبة ، وقد أهملهم النزلاء الآخرون . أعتقد أنهم لواطيّون . وهم يبدون متماثلين مثل الشبّان الأباش في باريس ، باستثناء أن هؤلاء ليست لديهم سوالف طويلة . أمام النار كان رجلٌ بكامل لباسه يتساوم مع رجل بكامل عريه . كانا بائعي صحف . والرجل كامل اللباس يبيع ملابسه إلى الرجل العاري .

قال المشتري أخيراً ، بعد الاتفاق على السعر : «حسناً . اخلعْها الآن . عليَّ الخروج كي أبيع طبعتي المتأخرة» .

خلع البائع ملابسه ، وفي ثلاث دقائق تبادلا المواقع . وأسرع الآخر خارجاً مع لوحة الديلي ميل .

كان المهجع مظلماً ، ضيقاً ، فيه خمسة عشر سريراً . وتفوح رائحة بول شنيعة حتى أن المرء ليضطر إلى التنفس أنفاساً قصيرة كي لا يملأ رئتيه من هواء المكان الفاسد . وعندما تمددت في فراشي ، خرج رجلٌ من الظلام ، وانحنى عليّ ، وشرع يغمغم في صوت مهذّبٍ نصف مخمور :

«طالب مدرسة عامة قديم ، ماذا ؟ [كان سمعني أقول لبادي شيئاً] لا تلقى الكثير من المدرسة القديمة هنا . أنا خريج إيتون قديم . أنت تعرف ـ عشرون سنة في هذا الجو ، وكل ذلك» . ثم أخذ يردد أغنية إيتونية لسباق الزوارق :

«جوٌ بديعٌ للقوارب
والحصادُ تبنٌ...» .

صاح عدة نزلاء : «أوقفْ تلك الضجة!»

قال الإيتونيَ القديم : «منحطّون . منحطّون جداً . مكان ممتعٌ لك ولي ، إيه ؟ أتعرف ما يقول لي أصدقائي ؟ يقولون يا «م» لا نفع يرجى منك . وهذا صحيح ، إذ لا نفع يرجى مني ، فلقد خسرت مكانتي في العالم ،

ولست مثل هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يخسروا مكانتهم حتى لو أرادوا . نحن الخاسرين يجب أن نتعاون قليلاً . الشباب لايزال في وجوهنا ـ أنت تعرف . هل أقدِّمُ لك كأساً ؟ » .

أخرج قنينة من براندي الشيري ، وفي الوقت نفسه فقد توازنه ، فهوى ثقيلاً على ساقيَّ . ادرك بادي الذي كان يخلع ملابسه ، أمره ، وأوقفه على رجليه .

« عد إلى فراشك ، أيها البوم العجوز! »

مشى الإيتوني القديم ، مترنحاً إلى فراشه ، وزحف تحت الأغطية ، مرتدياً كل ملابسه ، حتى جزمته . سمعته في الليل ، يردد مرّاتٍ عدّة : « يا ـ م ـ لا نفع يرجى منك » كأن العبارة استهوته . في الصباح كان يرقد نائماً بكامل لباسه ، والقنينة بين ذراعيه . كان في حوالي الخمسين ، ذا وجه لطيفٍ منهكٍ ، وملابس تثير الاستغراب لأناقتها . وإنه لعجيبٌ أن ترى الجزمة الجلدية الممتازة تطل من ذلك الفراش القذر . وخطر لي أن قنينة براندي الشيري كلّفت ما يوازي إقامة أسبوعين ، ولهذا فمن الممكن أنه ليس في حالة فقر . ربما كان يرتاد بيوت الإقامة العادية بحثاً عن الشبان اللواطيين .

لم يكن الفراش يبعد عن الآخر أكثر من قدمين . استيقظت حوالي منتصف الليل لأجد الرجل الذي بجانبي يحاول سرقة نقودي من تحت مخدتي . كان يتظاهر بالنوم وهو يفعل ذلك ، ماداً يده تحت وسادتي في خفّة الفأر . في الصباح رأيته أحدب ، ذا ذراعين طويلتين كالقرد . أخبرتُ بادي بمحاولة السرقة . ضحك وقال :

« بحقِّ المسيح! يجب أن تعتاد على ذلك . بيوت الإقامة هذه ملأى باللصوص . في بعض البيوت لن تأمن إلا إذا نمت بكامل ثيابك . رأيتهم يسرقون ساقاً خشبية من مُقعد قبل الآن . مرةً رأيت رجلاً ضخماً يزن حوالي مائتي رطل يدخل في بيت إقامة ومعه أربعة باونات وعشرة بنسات . وضع المبلغ تحت حشيّته . قال : « كل من يلمس هذا المال يفعل ذلك على

جسدي» . لكنهم فعلوا ذلك على أي حال . في الصباح استيقظ ليجد نفسا على الأرض ، إذ رفع أربعة أشخاص حشيّته من أطرافها الأربعة ورفعوه معها فكان في خفّة الريشة . إنه لم ير باوناته الأربعة وبنساته العشرة ثانيةً» .

30

في الصباح التالي ، بدأنا نبحث ، ثانيةً ، عن صديق بادي ، المسمّى بوزو ، والذي كان فنّان رصيف . ليس للعناوين وجودٌ في عالم بادي ، لكن لديه فكرة غامضة عن احتمال أن نجد بوزو في لامبث ، وفي الأخير وجدناه عند سدّ الشاطئ ، حيث مَرْبَعُه ، غير بعيد عن جسر واترلو . كان منحنياً على الرصيف مع صندوق طباشير ، ينسخ صورة لونستون تشرشل من دفتر ملاحظات . كان الشبه غير سيّئ إطلاقاً . كان بوزو رجلاً ضنيلاً ، أسمر ، معقوف الأنف ، جعد الشعر . ساقه اليمنى مشوَّهة ، وقدمه ملتوية بحيث صار الكعب إلى الأمام في صورة فظيفة . قد يوحي مرآه بأنه يهوديّ ، لكنه اعتاد أن ينكر ذلك بشدة . كان يقول عن أنفه إنه «رومانيّ» ، ويتباهى بأنه يشبه إمبراطوراً رومانياً ما ـ هو فيسابسيان كما أعتقد .

لبوزو طريقة في الكلام غريبة . فهي لهجة الكوكني الدارجة ، غير أنها صافيةٌ معبِّرة . لكأنه قرأ كتباً جيدة إلا أنه لم يهتمّ قطّ بتصحيح نحوه . ظللنا أنا وبادي فترة عند سدّ الشاطئ ، نتحدث ، وقدَّم لنا بوزو نبذةً عن حرفة الرسم على الأرصفة . وأنا أعيد هنا ، إلى هذا الحد أو ذاك ، ما قاله بكلماته :

«أنا أُدعى رسّام رصيف جاداً . أنا لا أرسم بطباشير السبّورات كما يفعل الآخرون ، بل أستعملُ ألواناً أصلية كالتي يستعملها الرسامون ، وهي

غالية جداً ، وبخاصة الأحمر . أنا أستعمل ما قيمته خمسة شلنات من الألوان في يوم طويل ، ولا أقل مما قيمته شلنان . اهتمامي الكارتون ـ أنت تعرف ، سياسة وكريكت وما إلى ذلك . ـ أراني دفتر ملاحظاته ـ هنا مُشابهات كل رجال السياسة التي نقلتُها من الصحف . لديّ كارتون جديد كل يوم . مثلاً ، حين أعلنت الميزانية ، رسمت كارتوناً لونستن وهو يحاول أن يدفع فيلاً عليه كلمة «ديون» ، وأسفل الكرتون كتبت : هل سيحرِّكه ؟ أترى ؟ بإمكانك أن ترسم كارتونات عن أي حزب من الأحزاب ، لكنّ عليك ألاّ تضع شيئاً لصالح الإشتراكية ، ذلك لأن الشرطة لن تطيق ذلك . مرةً رسمت كارتوناً فيه أفعوانُ البوا مع كلمة «رأسمال» يلتهم أرنباً مع كلمة «عمّال» . جاء الشرطيّ وشاهد الكارتون ، ليقول لي «امسح هذا ، وانتبهْ جيداً» . كان عليّ أن أمسح الكارتون . للشرطيّ الحقُّ في أن يطردك من المكان بدعوى التسكع ، وليس من الصواب الردُّ عليه» .

استفسرت من بوزو عمّا يكسبه من الرسم على الأرصفة . قال :

«في هذا الوقت من السنة ، حين لا مطر ، أكسبُ حوالي ثلاثة جنيهات بين الجمعة والأحد ـ الناس يقبضون أجورهم يوم الجمعة ، كما ترى . لا أستطيع العمل في المطر ، فالمطر يجرف الألوان رأساً . على مدار السنة ، أنا أكسب باوناً كل أسبوع ، لأنك لا تستطيع أن تفعل الكثير في الشتاء . في يوم سباق القوارب ، وفي يوم نهائيّ الكأس ، ربحتُ أربعة باونات . لكنّ عليك أن تقتطع النقود اقتطاعاً من الناس ، أنت تعرف ، ولن تحصل على شلن واحدٍ إذا اكتفيت بالجلوس والنظر . نصف بنس هو الهِبة المعتادة ، ولن تحصل على نصف البنس هذا إلا إذا تحدثت مع الناس وحاورتهم . فإن ردّوا عليك خجلوا من ألاّ يعطوك شيئاً . والأفضل أن تغيِّر رسْمتَك باستمرار ، لأنهم لو رأوك وأنت ترسم فسوف يتوقفون لمراقبتك . المشكلة أن المتسولين يأتون بمجرد أن تقوم بدورتك مع القبعة . أنت بحاجة إلى مُساعد في هذه اللعبة ، حقاً . تظل تعمل ، وتنجح في تجميع حشدٍ حولك ،

ويأتي المساعد كالعابر خلف ظهورهم . هم لا يعرفون أنه المساعد . وفجأة ينزع قلنسوته ، فتضع الناس بين نارين . لن تحصل على أي هِبةٍ من الناس الأنيقين . الناسُ غير الأنيقين ، والأجانبُ هم الذين يعطونك . بل إنني حصلت على ستة بنسات من يابانيين وسودٍ ومن إلى ذلك . إنهم ليسوا بخلاء مثل الإنجليزي . وعليك أيضاً أن تتذكر إخفاء نقودك ، ما عدا بنساً واحداً في القبعة . الناس لن يعطوك إن رأوا أنّ لديك جنيهاً أو اثنين » .

بوزو يكنّ احتقاراً عميقاً لرسامي الرصيف الآخرين عند سدّ الشاطئ . وهو يسمّيهم « جحوش السالمون » . في تلك الأيام ، كان رسّام رصيف عند كل خمس وعشرين ياردةً ، على امتداد سدّ الشاطئ ، وهي أقل مسافةٍ فاصلة معتبرة بين رسّام وآخر . أشار بوزو ، باحتقار ، إلى رسّام رصيف عجوز ، شائب اللحية ، على مبعدة خمسين ياردة .

« أترى ذلك الأحمق الغبيّ العجوز ؟ لقد ظلّ يرسم الصورة ذاتها ، يومياً ، لمدة عشر سنوات . يسمّي صورته «الصديق المخلص» ، وهي عن كلب يسحب طفلاً من الماء . النغلُ العجوز الغبيّ لا يستطيع أن يرسم أفضل من طفل ذي عشر . لقد تعلّم تلك الصورة حسب طريقة الإبهام ، مثل ما تجمع أجزاء صورة في لغز . ثمت العديد من أمثاله ، يجيئون أحياناً ليسرقوا أفكاري ، لكنني لا أهتمّ . الأغبياء لا يستطيعون أن يفكروا بشيء خاصٍ بهم ، لذا فأنا أتقدمهم دائماً . شغل الكارتون مع الوقت . مرةً حصرَ طفلٌ رأسه بين قضبان حاجز جسر تشيلسي . حسناً ، سمعت بالنبأ ، فكان كارتوني مرسوماً على الرصيف قبل أن يخرجوا رأس الطفل من بين القضبان . أنا مستعدٌ » .

بدا بوزو شخصاً ممتعاً ، وكنت أتلهف لأن أعرفه أكثر . عصر ذلك اليوم ذهبت إلى سدّ الشاطئ كي أراه ، فقد رتّبَ أن يأخذني وبادي إلى بيت إقامة جنوبيّ النهر . مسح بوزو رسومه عن الرصيف ، وعدَّ ما كسبه ، ستة عشر شلناً ، سيكون ربحه الصافي منها اثني عشر أو ثلاثة عشر شلناً . سرنا إلى

لامبث . بوزو يعرج في سيره البطيء ، مع حيوية غريبة تشبه حركة السرطان ، نصف مستدير ، ساحباً ساقه المشوّهة خلفه . إنه يحمل عصا في كل يد ، ويدلّي صندوق ألوانه على كتفه . وبينما كنا نعبر الجسر توقّفَ عند إحدى الفجوات كي يستريح . أخلدَ إلى صمت دقيقةً أو دقيقتين ، ولدهشتي رأيته ينظر إلى النجوم . لمس ذراعي وأشار إلى السماء بعصاه .

«قُلْ ، ألا تنظر إلى الدَّبران! أنظر إلى اللون . مثل برتقالة دم عظيمة! » .

من طريقة كلامه ، يمكن التفكير في أنه ربما كان ناقداً فنياً في رواق صور . لقد دُهشتُ ، واعترفتُ بأنني لا أميِّز الدَّبران ، حقاً ، ولم ألحظ من قبلُ أن للنجوم ألواناً مختلفة . شرع بوزو يقدم لي بضع معلومات عن الفلك ، مشيراً إلى المجرات الكبرى . يبدو أنه قلقَ لجهلي . قلت له مندهشاً :

« يبدو أنك تعرف الكثير عن النجوم » .

«ليس الكثير . لكني أعرف شيئاً عنها . تسلّمتُ رسالتين من الفلكيَ الملكيَ يشكرني فيهما على كتابتي عن الشُّهب . النجوم عرضٌ بالمجّان . واستعمالُ عينيك لن يكلفك شيئاً » .

« أي فكرة جيدة! إنها لم تخطر لي » .

« حسناً . عليك أن تهتم بشيء . كونُ المرء يذرع الطرقات لا يعني أن يفكر بالشاي وشريحتي الخبز فقط » .

« لكن ، أليس صعباً أن تهتم بأشياء ، أشياء مثل النجوم ، وأنت تحيا هذه الحياة ؟ » .

« أتعني الرسم على الرصيف ؟ ليس بالضرورة . هذه الحرفة لن تحوّلك إلى أرنب لعينٍ ، إذا صمَّمتَ» .

« يبدو أن لها ذلك التأثير في معظم الناس » .

« طبعاً . أنظرْ إلى بادي . إنه مدمن شاي متسكع عجوز ، صالحٌ فقط لالتقاط أعقاب السجائر . هذه هي الصفة الغالبة عليهم . إنني أحتقرهم .

لكنك لستَ مضطراً لأن تكون هكذا . إن كان لديك أي تعليم ، فلن يهمّك أن تظل تذرع الطرقات طوال حياتك » .

قلت : « حسناً . لكني وجدت العكس . ويبدو لي أنك لو سلبتَ أحداً ماله فلن يصلح لشيء منذ تلك اللحظة » .

« لا . ليس بالضرورة . إن صممتَ فبمقدورك أن تحيا الحياة ذاتها ، فقيراً كنتَ أم غنياً . بمقدورك أن تظل مع كتبك وأفكارك . فقط عليك أن تقول لنفسك « أنا رجلٌ حرٌّ هنا » ـ ودقّ على جبهته ـ كي تكون بخير » .

ظلّ بوزو يتحدث أكثر في التوتر ذاته ، وأنصتُّ إليه بانتباه . بدا لي رسامَ رصيف غير عادي ، كما أنه أول شخص سمعته يقول بأن البؤس لا يهمّ . رأيته كثيراً في الأيام القليلة التي تلتْ . ولعدة مرات هطل المطر فما كان باستطاعته العمل . أخبرني بقصة حياته ، وكانت قصة غريبة .

إنه ابنٌ لبائع كتب مفلس . اشتغل في طلاء المنازل منذ الثامنة عشرة . ثم خدم ثلاث سنين في فرنسا والهند ، أثناء الحرب . بعد الحرب وجد في باريس عملاً لطلاء المنازل ، وأقام ثمت عدة سنوات . راقت له فرنسا أكثر من إنجلترا (وهو يحتقر إنجلترا) ، وكانت حاله جيدة في باريس ، فقد وفَّر مالاً ، واتخذ فتاةً فرنسية خطيبةً . في أحد الأيام سُحقت الفتاة حتى الموت تحت عجلات حافلة . ظل بوزو عاكفاً على الشراب أسبوعاً ، ثم عاد إلى العمل ، مختضاً . في الصباح نفسه سقط من سقّالة كان يعمل عليها من ارتفاع أربعين قدماً ، على الرصيف ، وسُحقت قدمه اليمنى سحقاً . ولسبب ما تلقّى ستين باوناً فقط تعويضاً . عاد إلى إنجلترا ، وصرف ماله باحثاً عن عمل . جرَّب البيع المتنقل للكتب في سوق شارع ميدل سكس ، ثم جرَّبَ بيع الدمى من صينية ، وأخيراً استقرَّ على رسم الرصيف . عاش عيشة كفاف مُذّاك ، نصف جائع في الشتاء ، ينام غالباً في السبايك أو على سدّ الشاطئ . حين عرفته لم يكن يملك إلا الثياب التي يرتديها ، وأدوات رسمه ، وبعض الكتب . ملابسه كانت أسمال الشحاذ المألوفة ، غير أنه يلبس ياقة وربطة

عنق يتباهى بهما . الياقة ، وعمرها أكثر من سنة ، دائمة الدوران حول رقبته ، واعتاد بوزو أن يثبتها بحواشٍ يقتطعها من طرف قميصه ، حتى صار قميصه بدون طرف . ساقه المعطوبة تزداد سوءاً ، وربما كان ينبغي بترها . أما ركبتاه فقد تقرَّن جلدهما من كثرة الركوع على الأرصفة ، فغدتا مثل كعبي حذاء . والواضح أن ليس له من مستقبل سوى التسول أو الموت في ورشة .

مع هذا كله ، لم يكن ليشعر بالخوف ، أو الندم ، أو رثاء النفس . لقد واجه موقفه ، وصنع فلسفته . يقول إن كونه فقيراً ليس خطأه ، وهو يرفض أن يحسَّ بأي وخز إزاء هذا الفقر ، ولا يدعه يزعجه . كان عدوَّ المجتمع ، مستعداً كامل الاستعداد لارتكاب جريمة حين يرى الفرصة مواتية . يرفض مبدئياً أن يكون شحيحاً . في الصيف لا يوفِّر شيئاً ، وينفق رزقه الفائض على الشراب ، فهو لا يهتم بالنساء . أما إذا أمسى خالي الوفاض آن الشتاء ، فعلى المجتمع التكفل بأمره . كان مستعداً لانتزاع أي بنس يستطيعه من الجهات الخيرية ، شرط ألاّ يقول شكراً . وهو يتجنب الجهات الخيرية الدينية ويقول إن حنجرته لا تقبل أن يغني الترانيم مقابل الكعك . إن لديه صفاتٍ شريفة متنوعة ، فهو يفتخر ، مثلاً ، بأنه لم يلتقط عقب سجارة ، حتى لو كان يتضور جوعاً . ويعتبر نفسه في مرتبة أعلى من المتسولين المعتادين ، الذين يرى فيهم قوماً أدنياء ، لا يتمتعون حتى بميزة أن يكونوا جاحدين .

يتحدث بالفرنسية بين حين وآخر ، وقرأ بعض روايات زولا ، وكل مسرحيات شكسبير ، ورحلات جليفر ، وعدداً من المقالات . باستطاعته أن يصف مغامراته في كلمات يتذكرها المرء . قال لي ، مثلاً ، وهو يتحدث عن الجنائز :

«أرأيتَ ، مرةً ، جثةً تُحرَق ؟ أنا رأيت ذلك في الهند . هم يضعون الرجل العجوز على النار ، وفي اللحظة التالية كدت أخرج من جِلدي ، لأنني رأيت الرجل يَرفس . كانت عضلاته فقط تنكمش من الحرارة ، لكنني

فزعت . كان ينتفض قليلاً مثل سمكة على الجمر ، ثم انفجرت معدته بفرقعة يمكن سماعها من بعد خمسين ياردة . لقد جعلني المشهد أقف ضد حرق الموتى » .

أو ، ما قاله بصدد حادث سقوطه :

« الطبيب قال لي « أنت سقطت على قدم واحدة ، يا رَجُلي ، وإنك لمحظوظٌ إذ لم تسقط على قدميك كلتيهما فتنطبق مثل الكونسرتينا ، ويخرج عظما وركيك من أذنيك! » .

واضحٌ أن العبارات لم تكن للطبيب ، بل كانت لبوزو . لقد استطاع أن يبقي ذهنه سليماً منتبهاً ، وهكذا عجز أي شيء عن جعله يستسلم للبؤس . قد يرتدي الأسمال ، ويشعر بوطأة البرد ، ويتضور جوعاً ، غير أنه كما قال لي ، يظل حرّاً ، مادام يستطيع القراءة والتفكير ومراقبة النجوم .

كان ملحداً حدَّ المرارة (من نمط الملحد الذي لا يتعلق الأمر بعدم إيمانه بالله ، وإنما بالبغض الشخصي له) ، ويحسّ بنوع من السرور في التفكير بأن شؤون الإنسان لن تتحسن إطلاقاً . قال لي إنه يجد سلواه ، وهو نائم على سدّ الشاطئ ، يراقب المريخ أو المشتري ، حين يفكر باحتمال أن يكون هناك أناسٌ نائمون على السدّ . وعنده نظرية عجيبة حول هذا . يقول إن الحياة على الأرض قاسية ، لأن الكوكب فقير في ضروريات العيش . والمريخ ، بجوه البارد ومائه الشحيح يجب أن يكون أفقر ، والحياة أقسى بالتالي . وبينما تكون عقوبتك في الأرض ، السجن ، حين تسرق ستة بنسات ، فإنك في المريخ قد تشوى حيّاً .

هذه الفكرة تبهج بوزو ، ولا أدري لماذا . لقد كان شخصاً جدَّ استثنائي .

31

أجرة المبيت ، في بيت إقامة بوزو ، تسعة بنسات للّيلة . كان مكاناً واسعاً ، مزدحماً ، بتجهيزات تكفي خمسمائة شخص ، وموئلاً للمتشردين ، والشحاذين ، والمجرمين الصغار . كل الأعراق ، حتى السود والبيض ، مختلطون فيه ، ضمن شروط المساواة . ثمت هنود أيضاً ، وحين تكلمت مع أحدهم بلغة أوردو رديئة أجابني بكلمة يرتعد لها المرء لو كان في الهند . لقد صرنا تحت مستوى التحامل العرقيّ . يطّلع المرء على لقطات من حيوات غريبة . «الجد» العجوز ، وهو متشرد في السبعين يعتاش في الغالب على جمع أعقاب السجائر وبيع تبغها بثلاثة بنسات للأونصة . «الطبيب» ـ وكان طبيباً حقيقياً شُطب اسمه من سجل الأطباء بتهمة ما ، يعيش إلى جانب بيعه الصحف ، على استشارات طبية مقابل بضعة بنسات كل مرة . بحّارٌ صغير من تشيتاغونيا ، حافٍ وجائعٌ ، كان هجر سفينته ، وظل يطوف أياماً في لندن ، ضائعاً ، مسكيناً ، إلى حد أنه لا يعرف في أي مدينة هو . كان يظن أنه في ليفربول حتى أخبرتُه . كاتبُ رسائل تسوُّلٍ ، صديق لبوزو ، يكتب رسائل مؤثرة طالباً العون لدفع نفقات جنازة ، جنازة زوجته ، وعندما تبلغ رسالةٌ مقصدها يملأ جوفه حتى الانفجار بالخبز والمرغرين . كان شخصاً مقرفاً كالضبع . تحدثت إليه ، ووجدته مثل سائر المحتالين ، يصدق معظم أكاذيبه . كان بيت الإقامة هذا ، مرتعاً وملاذاً ، لمثل هذه النماذج .

حين كنت مع بوزو علّمني شيئاً عن تقنيّة التسول اللندني . والأمر أعقد مما يُتصوَّر . المتسولون يختلفون اختلافاً شديداً ، وهناك خطّ اجتماعي حادّ بين أولئك الذين يتسولون حسبُ ، وأولئك الذين يحاولون إعطاء قيمة ما للنقود . كما أن المبالغ التي يمكن كسبها من الحيل المختلفة ، مختلفة أيضاً . أما الحكايات التي ترويها صحف الأحد عن متسولين ماتوا ليتركوا ألفي باون مخيطةً في سراويلهم ، فهي أكاذيبُ محضٌ . لكن الفئة العليا من الشحاذين يحالفها الحظ ، فيكسبون أجرة أسابيع في كل ضربة . المتسولون الميسورون أكثر من سواهم ، هم أكروباتيو الشوارع وفوتوغرافيّوها . في موقع مناسب ـ مكان اصطفاف لدخول مسرح مثلاً ـ غالباً ما يحصل أكروبات الشارع على خمسة باونات في الأسبوع . فوتوغرافيو الشوارع قد يكسبون المبلغ ذاته ، لكن عملهم يعتمد على الطقس اللطيف . ولهؤلاء حيلهم في ترويج حرفتهم . فحين يرون ضحيةً ممكنةً ، مُقبلةً ، يسرع أحدهم ليكون خلف الكامرا ، ويتظاهر بأنه التقط صورةً . وعندما تصل الضحية إليهم ، يهتفون :

«هاأنتذا ، سيدي ، خذ صورتك اللطيفة ، الثمن شلن» .

تحتجّ الضحية : «لكني لم أسألكم أن تلتقطوها» .

«ماذا ؟ أنت لا تريد أن تأخذها ؟ لماذا ؟ نحن حسبنا أنك أومأت بيدك . حسناً . لقد خسرنا لوحة! هذا يكلفنا ستة بنسات» .

آنذاك تشعر الضحية بالشفقة ، فتقول إنها ستأخذ الصورة بعد كل ذلك . المصورون يفحصون لوحة الفيلم ويقولون إنها فاسدة ، وإنهم سيلتقطون صورة جديدة مجاناً . هم لم يلتقطوا الصورة الأولى ، طبعاً ، وهكذا لن يخسروا شيئاً ، لو رفضت الضحية .

العازفون على الأرغن ، مثل الأكروبات ، يعتبرون فنانين أكثر من كونهم شحاذين . وقد أخبرني عازف أرغن ، اسمه شورتي ، وهو أحد أصدقاء بوزو ، كل شيء عن حرفته . هو وزميله «يشغِّلون» المقاهي

والحانات حول وايت تشابل وكوميرسيال رود . من الخطأ القول إن عازفي الأرغن يكسبون رزقهم في الشارع . إن تسعة أعشار نقودهم تؤخذ من داخل المقاهي والحانات ـ الحانات الرخيصة فقط ، فهم ممنوعون من دخول الحانات ذات المستوى الرفيع .

يتبع شورتي طريقةً معينة ، وهي أن يقف خارج حانةٍ ويعزف لحناً ، بعد ذلك يتقدم زميله ، وهو ذو ساقٍ خشبية تثير الرأفة ، ويدخل ، دائراً بقبعته . وممّا يعتبره شورتي مسألة شرف ، أن يعزف دائماً لحناً ثانياً بعد تلقّيه الهِبة . أما فكرته فهي أنه مُسلٍّ أصيل ، وليس كمن يُدفع له ليُصرَف . يكسب شورتي وزميله باونين أو ثلاثة باونات في الأسبوع ، بينهما ، لكنهما لا يربحان في الواقع إلا باوناً واحداً لكل منهما ، إذ يتعيّن عليهما دفع الإيجار الأسبوعي للأرغن ، وهو خمسة عشر شلناً . وهما يطوفان الشوارع منذ الثامنة صباحاً ، حتى العاشرة ليلاً ، وأكثر من ذلك في أيام السبت .

رسّامو الأرصفة يُدعَون أحياناً فنانين ، وأحياناً لا . قدّمني بوزو إلى واحد كان فناناً «حقيقياً» ـ أي أنه درس في باريس ، وقدّم صوراً إلى الصالون في أيامه . كان اختصاصه استنساخ الرسّامين العظام ، وكان يفعل ذلك فعلاً رائعاً ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه يرسم على الحجر . أخبرني كيف بدأ يعمل رسّام رصيف :

«زوجتي وأولادي كانوا يتضورون جوعاً ، وكنت أسير ليلاً عائداً إلى المنزل ، مع لوحات كثيرة كنت أدور بها على المتعاملين ، وكنت أفكر بأي طريقة أستطيع الحصول على باون أو اثنين . وإذا بي أرى ، في الستراند ، شخصاً منحنياً يرسم على الرصيف ، والناس يعطونه بنسات . وعندما مررت به ، قام ، ودخل في حانة . فكّرتُ (اللعنة! إن كان باستطاعته الحصول على نقود هكذا ، فأنا قادرٌ) . وبتأثير هذا الحافز انحنيت وبدأت أرسم بالطباشير . الله يعلم كيف فعلتُها . ربما كان رأسي خفيفاً بسبب الجوع .

الشيء الغريب هو أنني لم أستعمل الباستل من قبل ، وكان عليّ أن أتعلم تقنياته خلال العمل . حسناً ، شرع الناس يتوقفون ويقولون إن رسومي ليست سيئة ، وأعطوني تسعة بنسات . في هذه اللحظة خرج الشخص الآخر من الحانة ، وقال : (ماذا تفعل في مكاني ؟) . بيّنتُ له أنني كنت جائعاً ، محتاجاً أن أكسب شيئاً . قال : (أوه ، تعال وخذ كأساً معي) . هكذا أخذت كأساً ، ومن حينها غدوتُ رسّام رصيف . إنني أكسب باوناً في الأسبوع ، لكن من حسن حظي أن زوجتي تكسب قليلاً من الخياطة .

أسوأ شيء في هذه الحياة ، البردُ ، والتالي في سوئه هو التدخل الذي يجب أن ترضخ له . في البداية ، وكنت غير عارف بما يكفي ، ألفتُ أحياناً أن أنسخ امرأة عارية على الرصيف . أول ما فعلت ذلك كان خارج كنيسة القديس مارتن . خرج شخصٌ يرتدي السواد ، ربما كان من حراس الكنيسة ، وهو يتميز غضباً . صرخ بي : «أتظن أننا نرضى بهذه الفضيحة المشينة خارج بيت الله المقدس ؟» . هكذا تعيَّنَ عليَّ أن أمسحها . كانت تقليداً لفينوس بوتيشللي . مرة ثانية نسخت الصورة نفسها على سدّ الشاطئ . رآها شرطيّ عابر ، وبدون أن يتفوه بكلمة ، شرع يسير عليها حتى مسحها بقدميه الضخمتين المسطحتين » .

بوزو حدثني الحديث ذاته عن تدخل الشرطة . حين كنت معه ، كانت هناك قضية «سلوك غير أخلاقي» في هايد بارك ، تصرَّف فيها رجال الشرطة تصرفاً سيئاً . رسم بوزو كارتوناً لهايد بارك يظهر فيه رجال الشرطة مختبئين في الأشجار ، مع عبارة تقول : (اللغز ، جِدْ رجال الشرطة) . قلت له أليس من الأفضل وضع عبارة : (اللغز ، جِد السلوك غير الأخلاقي) ؟ لكن بوزو لم يوافق . قال إن أي شرطيّ يرى الصورة سوف يطرده ، ليفقد مكانه نهائياً .

في منزلة أدنى من رسامي الأرصفة ، يأتي من ينشدون الترانيم ، أو يبيعون الكبريت ، أو خيوط الأحذية ، أو الظروف التي تحتوي على بضع حبّات من اللافندر ـ تسمى عطراً بتعبير مهذب . هؤلاء الناس جميعاً ، هم

بكل صراحة شحّاذون ، يستغلون مظهراً من مظاهر البؤس ، ولا يتجاوز ما يكسبه واحدهم نصف كراون يومياً .

أما سبب تظاهرهم ببيع الكبريت وما إليه ، بدلاً من التسوّل الصريح ، فيعود إلى ما تتطلبه القوانين الإنجليزية غير المعقولة حول التسوّل . القوانين السارية تقضي ، إذا تقدمتَ إلى شخص غريب وطلبت منه بنسين ، بحبسك أسبوعاً ، في حال استدعاء ذلك الشخص شرطياً . لكن إذا أفسدتَ الجو بزعيقك : «أقرب ، يا إلهي ، إليك» ، أو خربشتَ بالطباشير على رصيف ، أو وقفت تحمل صينية فيها علب كبريت ـ وباختصار ، إذا جعلتَ من نفسك مصدر إزعاج ، فسوف تعتبر ذا حرفة مشروعة ، لا متسولاً . إن بيع الكبريت والغناء في الشوارع ، هما ، بكل بساطة ، جرائم قانونية . لكنها ليست جرائم مربحة ، فليس في لندن مغنٍّ أو بائع كبريت قادرٌ على تأمين خمسين ليرة في العام ـ وهو عائدٌ بائس للوقوف أربعاً وثمانين ساعة في الأسبوع على الناصية ، والعربات تأكل ظهرك .

يجدر بي أن أقول شيئاً عن الوضع الاجتماعي للمتسولين ، فحين يتعرف عليهم المرء ، ويجد أنهم بشرٌ عاديّون ، يصدمه الموقف الغريب الذي يتخذه المجتمع إزاءهم . ويبدو أن الناس يشعرون بأن ثمت اختلافاً جوهرياً بين المتسولين والناس «العاملين» . إنهم رِسٌّ منفصل ـ منبوذون ، مثل المجرمين والبغايا . العمال «يعملون» ، والمتسولون لا «يعملون» ، إنهم كائنات طفيلية بطبيعتهم . والمتعارف عليه أن المتسول لا «يكسب» رزقه ، مثل ما «يكسب» بنّاء القرميد أو الناقد الأدبي ، رزقه . المتسول زائدةٌ اجتماعية ، نتحمله لأننا نعيش في عصر إنسانيّ ، لكنه خسيسٌ في جوهره .

لكن لو دقق المرء النظر فلن يجد فرقاً «جوهرياً» بين معيشة المتسول ومعيشة عدد لا يحصى من الناس المحترمين . المتسولون لا يعملون ، كما يقال ، لكنْ ، ما «العمل» ، إذاً ؟ العامل غير الماهر يعمل ملوّحاً برفش . المحاسب يعمل بإضافة أرقام . المتسول يعمل بوقوفه خارج الأبواب في كل

تقلبات الطقس ، ويصاب بالدوالي والتهاب القصبات المزمن... الخ . التسول حرفة ، شأنها شأن أي حرفة أخرى ، عديمة النفع ، بالطبع ـ لكن ثمت الكثير من الحرف المحترمة عديمة النفع . والمتسول باعتباره نمطاً اجتماعياً ، تمكن مقارنته بالعديد من الآخرين . وإنه لنزيهٌ ، صادقٌ ، مقارنةً بمعظم بائعي الأدوية ، وأفضل ذهناً إذا قارنّاه بمالك صحيفة من صحف الأحد ، وأكثر وداً من وكيل إيجار ـ ويمكن القول باختصار إنه من الطفيليات ، لكن الطفيليات غير الضارّة . ونادراً ما يأخذ من المجتمع أكثر من كفاف العيش . أما ما يبرره حسب أفكارنا الأخلاقية ، فإنه يدفع ثمنه ، مراراً ومراراً ، بمعاناته . وأنا لا أظن في المتسول شيئاً يجعله مختلف المرتبة عن الآخرين ، أو يعطي معظم الرجال العصريين حقَّ احتقاره .

ثم يأتي السؤال : لماذا يُحتقر المتسولون ؟ ـ ذلك لأنهم محتقرون على نحو شامل . أعتقد أن لهذا سبباً بسيطاً ، هو أنهم أخفقوا في كسب حياةٍ لائقة . عملياً ، لا يهتم أحدٌ إن كان العمل نافعاً أم غير نافع ، منتجاً أم طفيلياً ، الأمر المطلوب الوحيد أن يكون العمل مربحاً . في كل الكلام الحديث عن القدرة ، والكفاءة ، والخدمة الاجتماعية ، وما إلى ذلك ، أهناك معنى آخر غير «اكسب مالاً ، اكسبه بطريقة مشروعة ، واكسب منه الكثير» ؟

لقد صار المال اختبار الفضيلة الأكبر . في هذا الاختبار يفشل المتسولون ، ولهذا يُحتقرون . ولو أمكن كسب عشرة باونات أسبوعياً من التسول ، لصار التسول مهنة محترمة ، على الفور . إذا نظرنا إلى المتسول نظرة واقعية ، فلسوف نجده ببساطة ، رجلَ أعمال ، ومثل رجال الأعمال الآخرين يكسب رزقه ، بالطريقة التي يعتمدها . وهو لم يبع شرفه أكثر مما فعل معظم الناس . لقد أخطأ ، فقط في اختياره مهنة يستحيل معها أن يصير غنياً .

32

أريد أن أدوِّن بعض الملحوظات ، المختصرة قدر الإمكان ، عن دارجة لندن وشتائمها . لقد حذفت المعروف منها ، لأذكر الآتية :

A gagger ـ متسول ، أو لاعبٌ في الشارع من أي نوع

A moocher ـ المتسول صراحة بدون أن يدَّعي حرفةً

A nobber ـ من يجمع البنسات لشحّاذ

A chanter ـ مغنّي شارع

A chodhopper ـ راقص شارع

A mugfaker ـ مصور فوتوغرافي في الشارع

A glimmer ـ شخص يراقب السيارات الفارغة

A gee (or jee) ـ متواطئ مع مُتاجر بالسلع الرخيصة ، يشجع المهنة متظاهراً بالشراء

A split ـ مُخبر سري

A flattie ـ شرطي

A dideki ـ غجري

A tobi ـ متشرد

A drop ـ نقود تعطى إلى متسول

Funkum ـ لافندر أو عطر آخر يباع في مظاريف

A boozer ـ مَشربٌ عامّ

A slong ـ إجازة بائع جوّال

A hip ـ مكان للنوم ، أو مبيت

Smoke ـ لندن

A judy ـ امرأة

The spike ـ مبيتٌ عابر

The lump ـ مبيتٌ عابر

A tosheroon ـ قطعة نقد بنصف كراون

A deaner ـ شلن

A hog ـ شلن

A sprowsie ـ ستة بنسات

Clods ـ قطع نقدية نحاسية

A drum ـ علبة صفيح لإعداد الشاي

Shackles ـ حساء

A chast ـ قملة

Hard-up ـ تبغ مصنوع من أعقاب السجائر

A stick or cane ـ عتلة اللصّ

A peter ـ خزانة

A bly ـ مشعل الأسيتلين الذي يستعمله اللص

To bawl ـ أن يمتص أو يبتلع

To knock off ـ أن يسرق

To skipper ـ أن ينام في العراء

حوالي نصف هذه الكلمات موجود في المعاجم الكبيرة . ومن الممتع أن يحزر المرء أصول بعضها ، مع أن واحدة أو اثنتين منها عصيّة على هذا ، مثل Funkum وTosheroon . ربما جاءت Deaner من Denier ، وGlimmer مع

الفـعل to glim قـد تـكون لهـا عـلاقـة مع الكلمـة القـديمـة glim التي تـعني الضوء ، أو كلمة قديمة أخرى glim تعني لمحةً ، لكنها لحظة تـكوُّن كلمات جديدة ، فهي في صيغتها المضارعة لاتـكاد تكون أقدم من motor-cars . كلمـة Gee غـريبـة ، وربمـا جاءت من gee أي حصـان ، بمـعنى الحـصـان الدريئة . أصل كلمة Screever غامض . ربما جاءت من كلمة Scribo ، لكن لم توجد في اللغة الإنجليزية كلمة تمـاثلها في الأعوام المائة والخمسين الماضية ، كما لا يمكن أن تجيء مباشرة من اللغة الفرنسية ، لأن الرسّامين على الأرصفة غير معروفين في فرنسا . كلمتا Judy وBawl من كلمات الإيست إند ، وليس لهـمـا وجـود غـربيّ جـسـر البـرج . كلمـة Smoke يستعملها المتشردون فقط . Kip كلمة دانيماركية . حتى وقت قريب كانت كلمة Doss تستعمل بهذا المعنى ، لكنها الآن ميتة تماماً .

يبدو أن دارجة لندن ولُكنتها تتغيران بسرعة . إن اللكنة اللندنية القديمة التي وصفها ديكنز وسُرتيس ، حيث حرف V مكان W ، وW مكان V ، اختفت نهائياً الآن . لهجة الكوكني التي نعرفها يبدو أنها ولدت في الأربعينيات (جرت الإشارة إليها أولاً في كتاب أميركي هو كتاب هيرمان ملفيل «السترة البيضاء») ، والكوكني تتغير أيضاً ، فلن تجد أحداً يقول fice مكان face ، وnawce مكان nice وما إلى ذلك مما كان يقوله الناس قبل عشرين عاماً .

الدارجة تتغير مع اللكنة ، فقبل خمس وعشرين أو ثلاثين سنة كانت الدارجة المنغَّمة شائعة في لندن . كل شيء كان يسمّى مع ما يتناغم معه . hit or miss لكلمـة kiss ، Plates of meat لـfeet ، الخ . وكـانت الدارجـة المنغَّمة من الشيوع بحيث استعملت في الروايات ، أما الآن فكادت تختفي . والكلمات التي أوردتُها قد تختفي خلال السنين العشرين الآتية .

كلمات السِّباب تتغير أيضاً ـ أو أنها تخضع للموضة . مثلاً ، كانت الطبقة العاملة في لندن قبل عشرين عاماً تستعمل كلمة bloody . الآن

تركوها تماماً ، مع أن الروائيين لايزالون يستعملونها . ولا أحد من مواليد لندن (دع ذوي الأصول الاسكتلندية أو الإيرلندية) يقول الآن bloody إلا إذا كان حاصلاً على تعليم . الواقع أن الكلمة ارتقت في السلّم الاجتماعي ولم تعد كلمة سباب لدى الطبقة العاملة . والنعت اللندني ، الملصق بكل اسم ، الآن ، هو ـــ ولا شك في أن هذا النعت سوف يجد طريقه ، يوماً ما ، إلى غرفة الاستقبال ، لتستبدل به كلمة أخرى .

إن أمر السباب ، السباب الإنجليزي بخاصة ، لَغامضٌ . إن طبيعة السباب غير عقلانية شأنها شأن السحر ـ والحقُّ أنها من نوع السحر . لكن فيها أيضاً مفارقة : إن هدفنا من السباب هو أن نصدم ونجرح ، وهذا ما نفعله حين نذكر شيئاً ينبغي أن يظل سرّاً مكتوماً ـ والعادة أن يكون هذا الشيء متصلاً بالوظائف الجنسية . لكن الأمر الغريب هو أن الكلمة ما إن غدت كلمة سباب حتى فقدت معناها الأصلي ، أي أنها تفقد ما جعلها كلمة سباب . الكلمة تصبح شتيمة لأنها تعني شيئاً معيناً ، ولأنها صارت شتيمة ، لم تعد تعني ذلك الشيء . مثلاً ـــ لم يعد اللندنيون يستعملون الكلمة بمعناها الأصلي إلا نادراً . إنها على شفاههم ليل نهار ، لكنها مجرد حشو . كلمة ـــ ، أيضاً ، لاتزال تستعمل أحياناً في باريس ، لكن الناس الذين يستعملونها ، أو معظمهم ، ليست لديهم فكرة عمّا كانت تعنيه . والقاعدة ، كما يبدو ، أن الكلمات المقبولة باعتبارها سباباً تمتلك نوعاً من الطبيعة السحرية ، التي تجعلها منفصلة ، وعديمة الفائدة في الحديث الاعتيادي .

الكلمات المستعملة للإهانة يبدو أنها محكومة بالمفارقة ذاتها مثل كلمات السباب . يفترض المرء أن كلمة تغدو إهانةً لأنها تعني شيئاً سيئاً ، لكن الواقع أن قيمة الإهانة الموجودة فيها ليست لها علاقة بمعناها الفعليّ . وعلى سبيل المثال ، فإنّ أقسى إهانة توجَّه إلى لندني هي كلمة bastard التي لاتكاد تكون إهانةً إذا رجعنا إلى معناها . وأسوأ إهانة توجه إلى امرأة ، سواء في باريس أو لندن ، هي كلمة cow ، وهو اسم قد يكون مدعاة

مديح ، فالأبقار هي من خير الحيوان . واضح أن الكلمة إهانة ، لأن المقصود بها أن تكون إهانة ، بدون الرجوع إلى معناها المعجميّ . الكلمات ، وبخاصة كلمات السباب ، تكون ما أراد الرأيُ العام أن تكونه . وفي هذا السياق ، يغدو ممتعاً ، أن نرى كيف أن كلمة سباب تغيّرُ طبيعتها بمجرد اجتيازها الحدود . في إنجلترا بمقدورك أن تطبع je m'en fous دون احتجاج من أحد ، أما في فرنسا فيجب أن تطبعها je m'en f___ . وكمثال آخر ، خذ كلمة barnshoot ، وهي تشويه للكلمة الهندستانية bahinchut وهي شتيمة لا تغتفر في الهند . هذه الكلمة هي جزء من مزاج مهذب في إنجلترا . بل لقد رأيتها في كتاب مدرسيّ ، وكانت في إحدى مسرحيات أريستوفان ، وقد بيّنَ الشارح أنها تعود إلى الرطانة التي تحدث بها السفير الفارسي . المفترض أن الشارح يعرف معنى bahinshut ، لكنها ، باعتبارها أجنبية ، فقدت الخاصيّة السحرية للشتيمة الموجودة فيها ، وصار بالإمكان طباعتها . يلاحظ أمرٌ آخر في السباب اللندني ، وهو أن الرجال عادةً لا يشتمون بحضور النساء . أما في باريس فالمسألة مختلفة تماماً . قد يفضل العامل الباريسي ألا يشتم بحضور امرأة ، لكنه غير ملتزم بهذا التزاماً كاملاً ، والنساء الفرنسيات يشتمن بحريّة . اللندنيون أكثر تهذيباً أو حشمةً في هذا الأمر .

هذه ملحوظات قليلة أوردتُها عشوائياً إلى هذا الحد أو ذاك . ومما يؤسف له أن أحداً من القادرين على هذا الموضوع لم يخصص كتاباً سنوياً لدارجة لندن وسبابها ، مسجلاً التغييرات بدقّة . إن هذا قد يلقي ضوءاً مفيداً على تكوُّن الكلمات وتطورها وزوالها .

33

الباونان اللذان أعطانيهما «ب» ، ظلاّ معي حوالي عشرة أيام . وكان سبب استمرارهما هذا الوقت كله ، يعود إلى بادي الذي تعلّم البخل على الطريق ، حتى صار يعتبر الوجبة الجيدة الوحيدة في اليوم ، إسرافاً شنيعاً . لقد صار الطعام يعني عنده ، مجرد الخبز والمرغرين ـ الشاي والشريحتين الأبديتين ، مما سيخدع الجوع ساعةً أو ساعتين . علّمني كيف أعيش ، وآكل ، وأبيت ، وأدخن ، بمعدل نصف كراون في اليوم . كما أنه استطاع كسب شلنات إضافية من مراقبته السيارات الفارغة في العشيّات . إنه عملٌ محفوفٌ بالمخاطر ، لأنه غير قانونيّ ، لكنه ينفعنا قليلاً .

في صباحٍ ما جرّبنا التقدم إلى عمل شِغّيلة شطائر . ذهبنا في الخامسة صباحاً إلى زقاقٍ خلف بعض المكاتب ، لكن كان هناك طابورٌ ينتظر من ثلاثين إلى أربعين رجلاً ، وبعد ساعتين أخبرونا أن لا عمل لنا . لم نخسر الكثير ، إذ أن عمل شغيلة الشطائر لا يُحسد عليه . هم يقبضون حوالي ثلاثة شلنات في اليوم ، عن عمل عشر ساعات ـ إنه عمل شاقّ ، وبخاصة حين تهبّ الرياح . ليس من تراخٍ هناك ، إذ أن مفتشاً يمرّ غالباً ليتأكد من أن الرجال منهمكون . وزيادةً في متاعبهم ، يتم تشغيلهم مياومةً ، أو لثلاثة أيام أحياناً ، لكن ليس لأسبوع ، مما يجعلهم ينتظرون ساعاتٍ ، كي يعملوا ، كل صباح . عدد العاطلين المستعدين للعمل يجعلهم عاجزين عن

المطالبة بتحسين معاملتهم . العمل الذي يؤديه رجال الشطائر هو توزيع إعلانات يدوية ، ويتم الدفع حسب التوزيع . هكذا عندما ترى رجلاً يوزع إعلانات يدوية ، فتفضَّلْ عليه بشراء واحدٍ ، لأنه سوف ينهي عمله بتوزيع ما لديه من إعلانات .

في هذه الأثناء ، استمررنا في حياة بيت الإقامة ، وهي حياةٌ وضيعة ، رتيبة ، ذات ضجر قاتل . لأيام عدة لم يكن لدينا ما نفعله سوى الجلوس في المطبخ تحت الأرض ، نقرأ صحف أمس ، أو عدداً من مجلة يونيون جاك حين تقع أيدينا عليه . هطل مطرٌ كثير هذا الوقت ، وكل من يدخل يتصاعد منه بخار ، حتى صار المطبخ عطناً بصورة رهيبة . متعة المرء الوحيدة كانت الوجبة المنتظمة للشاي والشريحتين . لست أعرف كم عدد الناس الذين يَحيون في لندن هذه الحياة ـ يجب أن يكونوا آلافاً في الأقل . أما بالنسبة لبادي فكانت أفضل حياةٍ عاشها منذ عامين . استراحاته من التشرد ، الأوقات التي يحصل فيها على شلنات قليلة ، كانت كلها مثل هذه . التشرد ذاته صار أسوأ قليلاً . حين تستمع إلى صوته الشاكي الباكي ـ كان يئنّ ويتوجع دائماً عندما لا يأكل ـ تدرك أي عذابٍ سبّبته البطالة له . يخطئ الناس حين يظنون أن العاطل عن العمل يقلق من أجل أجوره فقط ، فالأمر على الضد من ذلك ، إذ أن شخصاً أمياً يسري العمل في عروقه ، هو بحاجة إلى العمل أكثر من حاجته إلى المال . بإمكان الرجل المتعلم أن يتآلف والبطالة القسرية التي هي أسوأ شرور البؤس . لكن رجلاً مثل بادي ، لا يملك وسيلة لملء الفراغ ، سوف يغدو تعيساً خارج العمل ، تعاسة الكلب في سلسلته . لهذا يكون من السخف التظاهر بأن أولئك الذين « أزرى بهم الدهر » يستحقون الرأفة أكثر من سواهم . الشخص المستحق الشفقة هو من كان زريّ الحال منذ البداية ، مواجهاً البؤس بذهنٍ خاملٍ خامد .

لقد كان وقتاً كئيباً ، والقليل منه ظلّ في ذاكرتي ، باستثناء أحاديثي مع بوزو . مرةً غزا فريقٌ خيريٌّ بيت الإقامة . بادي وأنا كنا خارجه ، وحين

عدنا عصراً ، سمعنا أصوات موسيقى في الأسفل . هبطنا ، لنجد ثلاثة أشخاص مهذَّبين ، أنيقي الثياب ، يعقدون حفلاً دينياً في المطبخ . كانوا مكوَّنين من سيّدٍ وقور يرتدي قباء الراهب ، وسيدةٍ تجلس على هارمونيوم محمول ، وشابٍّ بلا ذقن يتلاعب بصليب . وقد ظهر أنهم دخلوا ، عنوةً ، وبدأوا يعقدون حفلهم ، بدون أن يدعوهم أحدٌ ، أيّاً كان .

كان ممتعاً رؤية كيف واجه النزلاء هذا الاقتحام . النزلاء لم يتصرفوا إزاء المقتحمين المتدينين أيَّ تصرفٍ خشن . كل ما فعلوه أنهم أهملوهم تماماً . وبتفاهمٍ ضمنيّ عامّ تصرَّفَ من كانوا في المطبخ ـ ربما مائة رجل ـ كأنّ المتدينين لم يوجدوا ، قطُّ .

لقد وقفوا هناك ، مغنّين ، مرتِّلين ، صابرين ، ولم يعرهم أحدٌ انتباهاً ، أيَّ انتباه ، كأنهم ثلاثة من أبو مقصّ . السيّد ذو القباء ألقى موعظة ، لكن لم تُسمع كلمة واحدة منها ، إذ تلاشت في ضجة الغناء المعتادة ، والشتائم ، وقرع القدور . وجلس الرجال على مبعدة ثلاثة أقدام من الهارمونيوم ، مهملين الثلاثة ، منشغلين بوجبتهم ، وألعاب ورقهم . أخيراً أقلع المتدينون عن محاولتهم ، وخرجوا ، بدون أن توجه إليهم أي إهانة ، سوى الإهمال . لا شكَّ في أنهم وجدوا عزاءهم باعتقادهم أنهم كانوا على هذه الدرجة من الشجاعة ، بحيث « يغامرون مغامرة حرّة بالدخول إلى أوطأ الأوكار » . الخ . الخ .

قال بوزو إن هؤلاء الناس جاؤوا إلى بيت الإقامة عدة مرات في الشهر . إن لهم نفوذاً لدى الشرطة ، و« النائب » لا يقدر على طردهم . عجيبٌ أن يسلِّم الناس بأن لهم الحق في وعظك والصلاة عبرك ، بمجرد أن يكون دخلك أقل من مستوىً معيَّن .

بعد تسعة أيام ، تدنّى باونا « ب » إلى شلن وتسعة بنسات . خصصنا أنا وبادي ثمانية عشر بنساً لمنامنا ، وصرفنا ثلاثة بنسات على ما ألفناه من شاي وشريحتين ، نقتسمه ، باعتباره مُشهّياً لا وجبة .

عصراً ، كنا جائعين حدّ اللعنة ، وتذكر بادي كنيسةً قرب محطة كنج كروس ، حيث يقدم شاي مجّاني للمتشردين ، مرة في الأسبوع . وكان ذلك اليوم ، يوم الشاي الأسبوعي ، فقررنا الذهاب إلى هناك . بوزو لم يأت معنا ، مع أن الجو ممطر ، وأنه مفلسٌ تماماً ، قائلاً إن الكنائس ليست مبتغاه .

خارج الكنيسة ، كان حوالي مائة شخص ينتظرون ، من أنماطٍ قذرة اجتمعوا من كل مكان لنبأ الشاي المجاني ، مثل طيور الحدأة على جاموس ميت . فجأةً فُتحت الأبواب ، وساقنا رجلُ دين وبضع فتيات إلى رواق بأعلى الكنيسة . كانت كنيسة أنجليكانية ، كئيبة قبيحة ، مع نصوص عن الدم والنار مثبتة على الجدران ، وكتاب ترانيم يضم ١٢٥١ ترنيمةً ، وحين قرأت بعض هذه الترانيم ، استخلصت أن الكتاب يصلح ليكون أنثولوجيا للشعر الرديء . كان المقرر أن تقام صلاة بعد الشاي . والرعية المعتادون جالسون في أسفل الكنيسة .

كان يوم عطلة ، وليس في الكنيسة إلا العشرات من الرعية ، نساءً في الغالب ، عجفاوات هرمات ، يُذكرن بالطيور المسلوقة . جلسنا على مصاطب الرواق ، وقُدِّم لنا شاينا ، في زجاجات مربّى من زنة الرطل ، لكل واحد زجاجة ، مع ست شرائح خبز ومرغرين . ما إن انتهى الشاي حتى خرج عشرة متشردين كانوا قرب الباب ، هرباً من الصلاة . البقية ظلوا في أماكنهم ، لا ورعاً وامتناناً ، بل لعدم تصميمهم على الخروج .

أطلق الأرغن عدة صفرات تمهيدية ، ثم بدأت الصلاة . وفجأةً ، كأنما بإشارة ، جعل المتشردون يسيئون التصرف بطريقة فاضحة . لم يكن أحد فكّرَ بأن مشاهد كهذه يمكن حدوثها في كنيسة . على امتداد الرواق كان الرجال يترنحون على مصاطبهم ويضحكون ، ويثرثرون ، ويميلون ليقذفوا كريّات خبز على الرعيّة . وكان عليَّ أن أضبط الشخص الجالس جواري بالقوة إلى حد ما ، وأمنعه من إشعال سجارة . المتشردون يعاملون الصلاة

باعتبارها مشهداً هزلياً خالصاً . والحقّ أن الصلاة كانت مضحكة للغاية ـ من النمط الذي تتعالى فيه بغتةً صيحات «هللويا» ، وصلوات ارتجالية ـ إلا أن سلوكهم فاق كل وصف .

كان في الرعية شخص عجوز ـ الأخ بوتل أو كذا ـ يدعى غالباً ليقودنا في الصلاة ، ويقولون إنه في مناسبة سابقة ظل مصراً على متابعة صلاة ارتجالية مدة خمس وعشرين دقيقة ، حتى أوقفه القسيس . ومرة حين نهض الأخ بوتل ، صاح أحد المتشردين : «أراهن اثنين إلى واحد أنه لن يصل إلى سبع دقائق!» ، وكان صوته أعلى حتى من صوت القسيس ، مع أصواتنا التي تعالت في أرجاء الكنيسة كلها . أحياناً يبعث إلينا أحد أفراد الرعية في الأسفل كلمة : «اسكتوا!» ، بدون جدوى . لقد صممنا على إفساد الصلاة ، ولا أحد قادر على إيقافنا .

كان مشهداً عجيباً ، بل مقزِّزاً . ففي الأسفل حفنة من الناس البسطاء المهذبين يحاولون جاهدين العبادة ، وفي الأعلى مائة رجل أطعمهم هؤلاء يتعمدون جعل العبادة مستحيلة . حلْقة من الوجوه القذرة الشَّعْراء تطلُّ من أعلى ساخرةً صائحةً . ترى ماذا تستطيع قلّةٌ من العجائز والشيوخ فعله ضد مائة متشرد مُعادٍ ؟ كانوا خائفين منا ، وكنا نزعجهم بفظاظة . لقد كنا ننتقم منهم لأنهم أذلّونا إذ أطعمونا .

القسيس كان شجاعاً . صوته يرعد باستمرار في موعظة عن يوشع ، وكاد يفلح في تجاهُلِ ما يجري في الأعلى . لكنه في النهاية ، ربما لأنه استُفزَّ أكثر مما يتحمل ، أعلنَ بصوتٍ عالٍ : «سأخصص الدقائق الخمس الأخيرة من موعظتي للخُطاة!» قال هذا وجعل ينظر إلى الرواق . لكن بأي اهتمامٍ قابلناه! حتى والقسيس يهددنا بنار جهنم ، كنا نلفّ السجائر ، وأخيراً ، مع «آمين» الأخيرة ، اندفعنا صاخبين نهبط السلّم ، وقد اتفق الكثير على العودة ثانية في الأسبوع القادم للشاي المجّاني .

أمتعني المشهد . كان جدّ مختلفٍ عن الاستكانة المألوفة لدى

المتشردين ـ عن الامتنان الذليل الذي يتقبّلون به الإحسان في ضعة الديدان . وتفسير ذلك ، بالطبع ، أننا كنا نفوق الرعيةَ عدداً . المرء الذي يتقبّل الإحسان يكره المحسنَ عادةً وهي طبيعة ثابتة في الشخصية البشرية . وعندما يكون مع المرء مائة يساندونه ، يكشف هذه الطبيعة .

عصراً ، وبعد الشاي المجاني ، حصل بادي ، بدون توقُّعٍ ، على ثمانية بنسات أخرى من مراقبة السيارات الفارغة . وكانت بالضبط تكفي لمبيت ليلة أخرى . وقد وضعناها جانباً ، لنبقى جائعين حتى التاسعة من العشية القادمة . بوزو الذي كان سيعطينا بعض الطعام ، كان غائباً طوال اليوم . كانت الأرصفة مبتلّة ، وقد ذهب إلى «الفيل والقلعة» حيث يعرف مستقَرّاً ذا سقف . ولحسن حظي كان لديّ بعض التبغ ، وإلاّ لكان يومي أسوأ .

في الثامنة والنصف أخذني بادي إلى سدّ الشاطئ ، حيث عُرف عن رجل دينٍ أنه يوزع بطاقات وجبات طعام ، مرةً في الأسبوع . تحت جسر تشيرنغ كروس كان خمسون رجلاً ينتظرون ، وقد انعكست صورهم في بُريكات الماء المرتعشة . بعضهم كانوا نماذج منفِّرة ، فهم من النائمين على السدّ ، والسدّ يجمع أنماطاً أسوأ من السبايك . أتذكر أن أحدهم كان يرتدي معطفاً بلا أزرار مشدوداً بحبل ، وبنطلوناً مهلهلاً ، وجزمةً تُظهر أصابع قدميه ـ ولا شيء غير ذلك لباساً . كان ملتحياً مثل فقير هندي ، وقد نجح في طلي صدره وكتفيه بوسخ أسود فظيع مثل زيت القطارات . أما ما يتبدى من وجهه تحت الوسخ والشّعر ، فكان بياضاً ناصلاً سببه مرضٌ خبيث . سمعته يتكلم ، وكانت لهجته جيدة ، مثل لهجة موظف أو بائع مخزن .

ظهر رجل الدين ، فاصطفت الرجال حسب مجيئهم . كان رجل الدين شاباً لطيفاً ودوداً ، ومن الغرابة أنه يشبه شارلي ، صديقي في باريس ، تماماً . كان خجولاً ومتأثراً ، ولم يتكلم إلا بالتحية ، تحية المساء ، واكتفى بالإسراع مع الطابور ، وتسليم بطاقة وجبة لكل واحد ، غير منتظرٍ حتى

عبارة الشكر . وكانت النتيجة الشعور بالامتنان الأصيل ، وقال الجميع إن رجل الدين إنسان جيّد . وصاح أحدهم (على مسمع من الرجل) : «حسناً ، إنه لن يكون أسقفاً ، أبداً!» ـ وكان المقصود بهذا ، الثناء ، طبعاً .

قيمة البطاقة الواحدة ستة بنسات ، وهي موجهة إلى محلّ طعام غير بعيد . وعندما ذهبنا إلى هناك ، وجدنا صاحب المحل ، بسبب معرفته أن المتشردين لن يذهبوا إلى محل آخر ، يغشّنا ، بتقديم طعام لا يكلف غير أربعة بنسات . قدمت أنا وبادي بطاقتينا فقُدِّم لنا طعامٌ مشتركٌ بيننا يمكن الحصول عليه بسبعة بنسات أو ثمانية في أي مقهى . كان رجل الدين أنفق أكثر من باون على البطاقات ، وهكذا كان صاحب المحل يحتال على المتشردين بمعدل سبعة شلنات أو أكثر كل أسبوع . إن هذا النوع من الوقوع ضحيةً ، أمرٌ سائرٌ ، في حياة المتشرد ، وسيظل أمراً سائراً مادام الناس مستمرين في إعطاء بطاقات وجبات بدلاً من النقود .

عدت وبادي إلى بيت الإقامة ، ولأننا مازلنا جائعين ، لجأنا إلى المطبخ ، مستعيضين بالدفء عن الطعام . في الساعة العاشرة والنصف وصل بوزو ، متعباً شاحباً ، لأن ساقه المعطوبة تجعل السير عذاباً . لم يكسب بنساً واحداً من الرسم على الرصيف . فكل الأماكن المسقوفة قد أُخذتْ ، ولهذا تسولَ عدة ساعات ، محاذراً الشرطة . لقد جمع ثمانية بنسات ، أي أقل ببنس واحدٍ من أجرة مبيته .

لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ على موعد الدفع ، وأفلح فقط في أن يتسلل إلى الداخل حين كان «النائب» غافلاً ، وفي كل لحظة يمكن أن يُمسَك ، ويُطرد ، لينام على السدّ . أخرج بوزو أشياءه من جيبه ، وتفحَّصها ، مفكراً في ما سيبيع منها . قرر بيع موساه ، وشرع يطوف به في المطبخ ، وبعد بضع دقائق باعه بثلاثة بنسات ـ فتجمّع لديه ما يكفي لدفع أجرة المبيت ، وشرب شاي ، وبقي لديه نصف بنس .

أخذ بوزو شايه ، وجلس قرب النار يجفف ثيابه . وعندما شرب شايه

رأيته يضحك مع نفسه ، كأنه يضحك لمزحة . سألته عن سبب ضحكه ، فقال : «أمرٌ مضحكٌ ، مضحكٌ بحيث يصلح لمجلة Punch . ماذا تظنني فعلتُ ؟»

«ماذا ؟»

«بعتُ الموسى ، ولم أحلق ذقني أولاً : أي أحمق أنا!»

لم يأكل منذ الصباح ، وسار عدة أميال بساقه المعطوبة الملتوية ، وابتلّت ملابسه ، وليس بينه وبين التضوُّر جوعاً سوى نصف بنس . بالرغم من هذا كله ، كان يستطيع أن يضحك لفقدان موساه .

إن المرء لا يملك إلا أن يحبّه .

34

في الصباح التالي ، وقد نفدت نقودنا ، ذهبنا ، بادي وأنا ، إلى السبايك . اتجهنا جنوباً على أولد كينت رود ، قاصدين كروملي ، إذ لم نكن نستطيع الذهاب إلى سبايك لندنيّ ، فقد كان بادي في أحدها مؤخراً ، وهو لا يهتم بالمخاطرة في الذهاب ثانيةً . كانت مسيرة ستة عشر ميلاً على طريق معبَّد يقرِّح باطن الأقدام ، وكنا جائعين فعلاً . بادي مسحَ الأرصفة ليجمع مخزوناً من أعقاب السجائر يوازي وقته في السبايك . وفي النهاية ، كوفئ على دأبه ، إذ عثر على بنس . اشترينا قطعة خبز كبيرة ، والتهمناها أثناء مسيرنا .

عندما وصلنا إلى كروملي ، كان الوقت جدَّ مبكر على السبايك ، فسرنا عدة أميال أبعد ، إلى مزرعة قرب مرجٍ ، حيث يمكن أن يجلس المرء . كانت المزرعة محطة قوافل مألوفة للمتشردين ـ وبالإمكان معرفة ذلك من العشب الخفيف والصحف المبتلّة والعلب الصدئة التي خلّفوها وراءهم . متشردون آخرون كانوا يصلون فرادى ، أو مَثْنى . كان طقساً خريفياً جميلاً ، وقريباً منا كان مهادٌ من حشيشة الشفاء النامية . وبدا لي أنني حتى الآن أستطيع أن أستاف رائحة حشيشة الشفاء الحادة ، وهي تتصارع مع نتن المتشردين . في المرج مُهران من مهارى العربات في لون الترسينا النيئة ، بأعرافٍ وذيولٍ بيض ، يرعيان قرب البوابة . تمددنا على الأرض ،

ننزُّ عَرَقاً ورَهَقاً . استطاع أحدهم أن يجد عيداناً يابسة فأشعل ناراً ، وشربنا كلنا شاياً بلا حليب من علبة صفيح دارتْ علينا .

شرع بعض المتشردين يروي حكايات . وكان أحدهم ، واسمه بِلْ ، شخصاً ممتعاً ، متسوّلاً أصيلاً من النمط القديم ، قوياً مثل هرقل ، وعدوّاً لدوداً للعمل . كان يتباهى بأن قوّته تؤهله للحصول على عملٍ جسديٍّ متى شاء ، لكنه ما أن يقبض أجور أسبوعه الأول حتى يغيب في نوبة سكر رهيب ، فيُطرد . وبين حين وآخر كان « يخطف » من أهل الدكاكين عموماً . وهو يتحدث هكذا :

«أنا لا أمضي بعيداً في كينت . كينت بلادٌ شديدة . كينت . كان الكثيرون يخطفون هناك . والخبّازون يفضلون أن يرموا بخبزهم بدلاً من إعطائك منه . الآن ، أكسفورد هي مكان الخطف . أكسفورد . عندما كنت في أكسفورد خطفت خبزاً ، وخطفت لحم خنزير ، وخطفت لحم بقر . وكل مساء أخطف بنسات من الطلبة لأدفع أجرة مبيتي . البارحة كان ينقصني بنسان لدفع أجرة مبيتي ، لذا ذهبت إلى قسيس وخطفت منه ثلاثة بنسات . أعطاني البنسات الثلاثة ، وفي اللحظة التالية وشى بي لشرطيّ بتهمة التسول . قال الشرطي : (كنتَ تتسول) . قلت : (لا . كنت أسأل السيد عن الوقت) . أخذ الشرطي يفتش في سترتي ، فأخرج رطل لحم ورغيفي خبز . قال : (حسناً ، ما هذا كله ؟ الأفضل أن تأتي معي إلى المركز) . حُبست سبعة أيام . لن أخطف ثانية من القساوسة . لكن ، بحق المسيح! ماذا كان يهمني حبس سبعة أيام ؟ » الخ . الخ .

يبدو أن حياته كلها كانت هكذا ـ دورة خطف ، سكر ، وحبس . كان يضحك وهو يتحدث عنها ، معتبراً كل شيء فكاهةً كبرى . يبدو أنه لم يكسب من تسوُّله ، فهو يرتدي فقط بدلة من الكودري ، ولفاعاً ، وقلنسوة ـ لا جوارب . غير أنه لايزال مكتنزاً مرِحاً ، بل إنك لتشمّ منه رائحة البيرة ، وهي رائحة غير مألوفة في متشردي هذه الأيام .

اثنان من المتشردين كانا في سبايك كروملي مؤخراً ، ورووا قصة مخيفة عنه . قالوا إن حادث انتحار جرى هناك قبل سنين . إذ استطاع متشردٌ أن يهرِّب موسى إلى داخل حُجيرته ، وهناك قطع حلقومه . وفي الصباح ، حين جاء رائد المتشردين ، كانت الجثة محشورة إزاء الباب ، ولكي يفتحوها كان عليهم أن يكسروا ذراع الميِّت . وانتقاماً لها ، سكنت روح الميت الحُجيرة ، وكل من سكن هناك مات خلال سنة . وهناك أمثلة عدة ، بالطبع . وهكذا لو انحشرتْ بابُ حُجيرةٍ وأنت تحاول الدخول ، فعليك أن تتجنب تلك الحجيرة كالطاعون ، ذلك لأنها الحُجيرة المسكونة .

متشردان ، بحّاران سابقان ، رويا حكاية مخيفة أخرى . ثمت رجل (أقسما بأنهما عرفاه) اعتزم التسلل إلى سفينة متجهة إلى التشيلي . كانت السفينة محملة بسلع مصنوعة موضوعة في حاويات خشب ، واستطاع الرجل بمساعدة أحد عمّال الأرصفة أن يختبئ في إحداها . لكن عامل الأرصفة ارتكب خطأً في الأمر الذي بموجبه يتمُّ تحميل الحاويات . إذ أمسكت الرافعة بحاوية المتسلل ، ورفعتها عالياً ، ثم أنزلتها في قاع عنبر السفينة تحت المئات من الحاويات . لم يكتشف أحدٌ ما حدث حتى نهاية الرحلة ، عندما وجدوا المتسلل متعفناً ، ميتاً من الاختناق .

متشردٌ آخر روى قصة جيلدوري ، قاطع الطريق الاسكتلندي . حُكم على جيلدوري بالشنق . هرب . وقبض على القاضي الذي حكم بشنقه ، و(يا للرجل الرائع!) شنقه . المتشردون أحبوا القصة طبعاً ، لكن الأمر الممتع هو أنهم رووها مخطوءةً . جيلدوري حسب روايتهم ، هرب إلى أميركا ، حيث قُبض عليه ثانيةً ، بالفعل ، وأُعدم . لقد حُوِّرت القصة ، عمداً بلا شك ، كما يحوِّر الأطفال قصص شمشون وروبن هود ، مانحين تلك القصص نهايات سعيدة ، متخيَّلة تماماً .

هذا ، جعل المتشردين يتحدثون عن التاريخ ، وأعلن رجل طاعن في السنّ أن «قانون العضّة الواحدة» هو من بقايا تلك الأيام ، حين كان النبلاء

يصطادون البشر بدلاً من الغزلان . بعضهم ضحك منه ، لكنّ الفكرة مستقرّة في رأسه . لقد سمع أيضاً عن قوانين القمح ، والتمرد العظيم أيضاً الذي يعتقد أنه انتفاضة الفقراء على الأغنياء ـ ربما خلط الأمر بتمردات الفلاحين . أشكّ في أن العجوز يعرف القراءة ، وهو ، بالتأكيد لا يردد مقالات الصحف . إن التقاطاته من التاريخ انتقلت من جيل متشردين إلى جيل متشردين آخر ، ربما لقرونٍ ، في بعض الحالات . إنه التقليد الشفاهي ، مستمراً ، مثل صدى خافت من العصر الوسيط .

ذهبت أنا وبادي إلى السبايك في السادسة مساءً ، لنخرج في العاشرة صباحاً . إنه يشبه إلى حد بعيدٍ ، رومتون وإيدبري ، ولم نر شيئاً من الشبح .

بين النزلاء العابرين كان شابّان هما وليم وفريد ، صيادا سمك سابقان من نورفولك ، صديقان ودودان ، ومحبّان للغناء . عندهما أغنية تدعى « بيللا الشقيّة » تستحق التدوين هنا . سمعتهما يغنيانها حوالي ست مرات خلال يومين ، واستطعت أن أحفظها غيباً ، إلا بيتاً أو اثنين حزرتُهما . وها هي ذي الأغنية :

« بيللا كانت صبيّةْ/ بيللا كانت حلوةْ
عيناها زرقاوانِ ، والشَّعرُ ذَهَبْ
آهٍ يا بيللا المسكينةْ!
خُطوتُها جِدُّ خفيفةْ/ والقلبُ سعيد
لكنْ ، لا عقلَ لها...
في أحد الأيام ، أغواها شخصٌ خدّاعٌ شرّيرٌ وبلا قلبٍ

بيللا المسكينةُ كانت صبيّة
لم تصدِّقْ أن العالمَ قاسٍ ، وأن الرجال خدّاعون
آهٍ يا بيللا المسكينةْ!

قالت : رَجُلي سوف ينفِّذُ ما هو حقٌّ ،
ويتزوجني الآن ، فهذا أمرٌ واجب
كانت واثقة القلب بذاك الخدّاع الشرّير بلا قلبٍ

قصدتْ منزلَه ، ذاك الوغد
وإذا بالوغدْ/ غادر سرّاً وحقائبه...
آهٍ يا بيللا المسكينةْ!
قالت مَولاةُ الدار لها : ابتعدي عن وجهي يا عاهرةً
سوف تسوِّدُ باب الدار .
بيللا المسكينة قد أفسدها
شخصٌ خدّاعٌ شرّيرٌ وبلا قلبٍ .

طولَ الليل تسير على الثلج القاسي
وتعاني ما لم يعرفه أحدٌ ،
آهٍ ، يا بيللا المسكينةْ!
وأخيراً ، إذ طلع الصبحُ الأحمر
كانت بيللا ماتتْ... وا أسفاه!
ووا أسفاه!
أرسلها نحو الموت
شخصٌ خدّاعٌ ، شريرٌ ، وبلا قلبٍ .

ولهذا ، فليفعلْ واحدُكم ما شاء...
لكنَّ ثمار الإثم تظلّ .
آهٍ ، يا بيللا المسكينةْ!
بيللا ، إذ وضعوها في القبر

قال رجالٌ : وا أسفاً ، إن حياة الإنسان كهذي...
لكنّ النسوة غنّينَ بصوتٍ عذبٍ وخفيضٍ :
هذا ما فعله الرجال
الأوغادُ القذرون!»

ربما كتبت هذه الأغنيةَ ، امرأة .

وليم وفريد ، مغنِّيا هذه الأغنية ، كانا وغدين ، من النمط الذي يسيء إلى سمعة المتشردين . وحدث أنهما عرفا أن لدى رائد المتشردين في كروملي مخزوناً من الملابس العتيقة ، التي يمكن أن تعطى ، وقت الحاجة ، للنزلاء العابرين . وليم وفريد ، قبل أن يدخلا السبايك ، خلعا جزمتيهما ، وفتقا الخيوط ، وقطّعا من الكعوب ، مخرِّبين جزمتيهما إلى هذا الحد أو ذاك . وبعد ذلك قدَّما طلباً للحصول على جزمتين . حين رأى رائد المتشردين حالة جزمتيهما أعطاهما جزمتين تكادان تكونان جديدتين . وما كاد وليم وفريد يخرجان من السبايك صباحاً حتى باعا الجزمتين بشلن وتسعة بنسات . وبدا لهما من المفيد أن يخربا جزمتيهما حدَّ عدم صلاحية الاستعمال ، مقابل شلن وتسعة بنسات .

بعد مغادرتنا السبايك ، اتجهنا جميعاً نحو الجنوب ، في موكب طويل متعرج ، قاصدين بنفيلد السفلى وآيدل هيل . وفي الطريق حدث عراكٌ بين متشردين . وقد كانا اختصما طوال الليل (لسبب تافهٍ هو أن أحدهما نعت الآخر بأنه Bull shit فظنّه هذا يقول بولشفيك ، وهي إهانة مميتة) ، وقاما بعراكهما في الحقل . وقف اثنا عشر منّا يراقبونهما متفرجين . ظلَّ المشهد ثابتاً في ذهني لسبب واحد ـ أن الرجل المهزوم سقط ، وسقطت قلنسوته لتكشف أن شعره كان أبيض تماماً . بعد ذلك ، تدخّلَ بعضنا ، وأوقفنا العراك . في هذه الأثناء كان بادي يستطلع ، فوجد أن السبب الحقيقي للعراك ، كان كالعادة ، حول طعام ببضعة بنسات .

وصلنا بنفيلد السفلى جدَّ مبكرين ، وأمضى بادي الوقت بالسؤال عن عمل عند الأبواب الخلفية . في أحد البيوت أُعطي عدداً من الصناديق ليقطعها حطباً ، وبعد أن أخبرهم بأن له زميلاً في الخارج ، أدخلني ، وأدَّينا العمل معاً . وبعد انتاء العمل أخبر ربُّ المنزل الخادمة بأن تخرج لنا كوب شاي . أتذكر الطريقة الرهيبة التي أخرجتْ بها الشاي ، وكيف خانتها شجاعتها ، فوضعت الأكواب على الممر ، وأغلقت باب المنزل وراءها ، حابسةً نفسها في المطبخ . إن اسم «متشرد» مخيف جداً . أعطوا لكل منا ستة بنسات ، فاشترينا رغيفاً بثلاثة بنسات ، ونصف أونصة من التبغ ، تاركين لنا خمسة بنسات .

فكّر بادي بأن من الحكمة أن نطمر بنساتنا الخمسة ، إذ أن رائد المتشردين في بنفيلد السفلى مشهور بأنه طاغية ، وربما رفض إدخالنا إذا وجد لدينا نقوداً . اعتاد المتشردون طمر نقودهم . أمّا إذا اعتزموا تهريب مبلغ كبير إلى داخل السبايك فإنه يخيطونه في ملابسهم ، مما يعني السجن ، لو عُثر عليه لديهم . وقد دأب بادي وبوزو على رواية قصص عن هذا الأمر . يحكيان عن إيرلندي (بوزو يقول إنه إيرلندي ، وبادي يقول إنجليزي) ليس متشرداً ، أنه انقطع في قرية صغيرة حيث لم يستطع أن يجد مبيتاً . وكان عنده ثلاثون باوناً . طلب نصيحة من متشرد ، فأوصاه بالذهاب إلى ورشة . أمرٌ مألوفٌ أن يذهب المرء إلى ورشة إن لم يجد مبيتاً في مكان آخر ، ويتعيّنُ عليه آنذاك أن يدفع أجرة معقولة للمبيت هناك . لكن الإيرلندي ظنّ نفسه ذكياً إلى حد المبيت مجاناً ، فقدَّم نفسه إلى الورشة باعتباره عابر سبيل . في هذه الأثناء ، رأى المتشرد ذو النصيحة ، أن فرصته مواتية ، فطلب من رائد المتشردين ، تلك الليلة ، أن يسمح له بمغادرة الورشة مبكراً في الصباح ، بحثاً عن عمل ما . وفي السادسة صباحاً ، سُمح له بالخروج ، وخرج ـ في ثياب الإيرلندي . شكا الإيرلندي هذه السرقة ، فحُبس ثلاثين يوماً بسبب دخوله مهجع عابرين ، بادّعاءاتٍ باطلة .

35

آن بلوغنا بينفيلد السفلى ، تمددنا طويلاً على العشب النضر ، تحت عيون سكان الأكواخ الذين يراقبوننا من بواباتهم الأمامية . رجل دين وابنته جاءا وحدّقا فينا صامتَين لفترة ، كما لو كنا أسماكاً في حوض ، ثم ابتعدا . كان العشرات منا ينتظرون . كان وليم وفريد هناك ، وهما لايزالان يغنيّان ، والرجلان اللذان تعاركا ، وبيل الخطّاف . كان يخطف من الخبّازين ، ولديه الكثير من الخبز البائت المخبّأ بين سترته وجِلده العاري . تقاسمَ خبزه معنا ، وكنا مسرورين لذلك . ثمت امرأة بيننا ، أول امرأة متشردة أراها في حياتي . كانت مكتنزة ، محطّمة ، قذرة جداً ، في حوالي الستين ، ترتدي تنّورة سوداء تسحب أذيالها خلفها . كانت تبالغ في التكبُّر ، وكلما جلس واحدٌ قربها تنشّقتْ ، وتحرّكتْ مبتعدة .

سألها أحد المتشردين : « إلى أين أنت ماضية ، يا سيدتي ؟ »

تنشّقت المرأة ، ونظرتْ إلى البعيد .

قال : « هيا ، يا سيدتي ، افرحي . نحن كلنا في السفينة ذاتها » .

قالت المرأة بمرارة : « شكراً . حين أريد أن أختلط مع مجموعة متشردين ، فسوف أخبرك » .

استمتعتُ بطريقة نطقها كلمة « متشردين » . كأنها تُريك في خطفةٍ روحَها كلها ، روحاً أنثويةً ، صغيرةً ، لاهثة ، لم تتعلم أي شيء إطلاقاً من

سنواتٍ على الطريق . لا شك في أنها كانت سيدةً محترمة أرملة ، وصارت متشردة بعد حادثٍ جللٍ .

فُتح السبايك في الساعة السادسة . ولسوف نقضي نهاية الأسبوع في داخله ، كما جرت العادة ، لسببٍ لا أعلمه ، إلا إذا كان الأمر صادراً عن إحساسٍ غامض بأن يوم الأحد يستحق شيئاً ما كريهاً . حين سجّلنا أسماءنا ، ذكرتُ أن مهنتي «صحافيّ» ، وهي أصدق من مهنة «رسّام» ، ذلك لأني كسبت ، أحياناً ، مالاً من مقالاتٍ صحافيةٍ ، وكان من الغباء أن أذكر ذلك ، فهو سيؤدي إلى أسئلة . ما إن دخلنا السبايك حتى اصطففنا للتفتيش . نادى رائد المتشردين عليّ باسمي . كان رجلاً فظاً ذا طبعٍ عسكريّ ، وفي الأربعين من العمر ، وهو لا يبدو شديد الغلظة كما يُشاع عنه ، غير أنه يتّسم بخشونة الجندي القديم . قال محتداً :

«من منكم هو بلانك ؟» (نسيتُ أي اسمٍ أعطيتُ) .

«أنا ، سيدي» .

«إذاً ، أنت صحافيّ ؟»

أجبت مرتعشاً : «نعم ، سيدي» . أسئلة أخرى ، وسيظهر أني كنت أكذبُ ، وهذا معناه السجن . لكن رائد المتشردين اكتفى بالنظر إليّ من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ ، وقال : «إذاً ، أنت جنتلمان» .

«أعتقدُ ذلك» .

نظر إليّ ، ثانيةً ، نظرة طويلة ، وقال : «إنه لحظٌّ سيئ جداً ، أيها الحاكم ، حظٌّ سيئ جداً» ، وبعد هذا عاملني معاملة تفضيل غير عادلة ، حتى بنوع من الاهتمام . فهو لم يفتشني ، وأعطاني في الحمّام منشفة نظيفة خاصة ، وهو ترفٌ لم يُسمَع به . إن لكلمة صحافيّ وقعاً قوياً في أذني الجندي القديم .

عند الساعة السابعة ، كنا التهمنا خبزنا وشاينا ، وصرنا في حُجيراتنا . نمنا ، كل واحدٍ في حُجيرة ، وكان ثمت أسرّةٌ وحشيّاتٌ تبنٍ ، تهيء نوماً

جيداً . لكن أي سبايك هو دون الكمال ، والنقص في سبايك بينفيلد السفلي هو البرد . فأنابيب الماء الساخن لا تعمل ، والبطانيتان اللتان أُعطيناهما كانتا خفيفتين من القطن ، غير ذواتي فائدة . كان الوقت خريفاً ، إلا أن البرد قارس . لقد أمضيت ساعات الليل الطويلة الاثنتي عشرة أتقلَّبُ من جنب إلى جنب ، أنام بضع دقائق ، وأستفيق مرتجفاً . لم نكن نستطيع أن ندخن ، فتبغنا الذي هرّبناه مخيطٌ في ملابسنا ، وهذه لن نتسلمها إلا في الصباح . وعلى امتداد الممر تُسمع ضجة أنين ، وشتيمة يطلقها أحدهم . وأظن أن أحداً لم ينم أكثر من ساعة .

في الصباح ، بعد الفطور وفحص الطبيب ، ساقنا رائد المتشردين ، جميعاً ، إلى داخل غرفة الطعام ، وأغلق الباب علينا . كانت غرفة مبيَّضة بالنورة ، وذات أرضية من الحجر ، ووحشةٍ بالغةٍ ، بأثاثها المكوَّن من الألواح والمصاطب ، ورائحتها الشبيهة برائحة السجن . والنوافذ ذات القضبان هي أعلى من إمكان النظر عبرها ، ولا زينة في الغرفة سوى ساعة حائط ونسخة من أنظمة الورشة . ولأننا كنا على المصاطب متزاحمين بالمناكب ، شعرنا من الآن بالضجر ، بينما الساعة لم تكد تبلغ الثامنة صباحاً . لا شيء نفعل ، لا شيء نتحدث عنه ، لا مجال حتى للحركة . العزاء الوحيد هو أن بمقدور المرء أن يدخن ، ذلك لأن التدخين يُتغاضى عنه ما لم يقبض على الشخص متلبساً به . سكوتي ، وهو متشرد أشعر صغير ، ذو لهجة كوكني لعينة من غلاسكو ، كان بلا تبغ ، ذلك لأن علبة أعقاب سجائره قد سقطت من جزمته خلال التفتيش وأُخذت . قدَّمتُ له ما يلفُّ سجارة ، وأخذنا ندخن حذرين ، جاعلين سجائرنا في جيوبنا مثل التلاميذ ، حين نسمع رائد المتشردين آتياً .

معظم المتشردين أمضى عشر ساعات متصلة في هذه الغرفة الموحشة ، غير المريحة . والله وحده يعلم كيف صبروا . أنا كان حظي أفضل من سواي ، ففي الساعة العاشرة نادى رائد المتشردين قلةً من الرجال ليؤدوا

أعمالاً مختلفة ، وقد اختارني لأساعد في مطبخ الورشة ، وهو العمل المفضَّل على غيره . هذا العمل ، شأنه شأن المنشفة ، كان من مفعول السحر الذي جلبته كلمة جنتلمان .

لم يكن لي في المطبخ ما أفعله ، فانسللتُ إلى سقيفة صغيرة تتخذ لخزن البطاطا ، حيث كان عدد من شغيلة الورشة يزوغون عن صلاة صباح الأحد . ثمت صناديق مريحة للجلوس ، وأعداد قديمة من « فاميلي هيرالد » وحتى نسخة من « رافلز » من مكتبة الورشة . الشغيلة تحدثوا أحاديث ممتعة عن حياة الورشة . وأخبروني بين ما أخبروني ، أن الشيء المكروه حقاً في الورشة ، كعلامة إحسانٍ ، هو البزّة الموحدة ، ولو ارتدى الناس ملابسهم الخاصة ، أو حتى قلانسهم ، فلن يهتموا بأن يكونوا شغيلةً هنا . تغديت على مائدة الورشة ، وكانت وجبة تصلح لأفعوان البوا ـ أكبر وجبة أكلتها منذ يومي الأول في فندق « س» . قال الشغيلة إنهم ، أيام الآحاد ، يأكلون حتى الانفجار ، لأن تغذيتهم في أيام الأسبوع الأخرى سيئة . بعد الغداء أمرني الطاهي بغسل الأواني ، ورمي الطعام المتبقي . كانت الفضالة مدعاةً للدهشة ، وللامتعاض في مثل تلك الظروف . قطع لحم نصف مأكولة ، وكميات من الخبز الهشيم والخضروات كانت ترمى مثل القمامة ، ثم تغطى بورق الشاي . ملأت خمس سلال قمامة حتى أعلاها بطعام صالح للأكل . وبينما كنت أفعل ذلك كان خمسون متشرداً يجلسون في السبايك ومِعَدُهم نصف ممتلئة بأكل السبايك المكون من الخبز والجبن ، وربما مع حبتي بطاطا مسلوقتين ، إكراماً ليوم الأحد . ويقول الشغيلة إن الطعام يرمى اتباعاً لسياسة معينة ، بدلاً من وجوب تقديمه إلى المتشردين .

في الساعة الثالثة عدت إلى السبايك . كان المتشردون جالسين هناك منذ الثامنة ، ولا فسحة لحركتهم ، نصف مجانين من الضجر . حتى التدخين انتهى ، إذ أن تبغ المتشرد هو أعقاب سجائر ملتقطة . والمتشرد يُحرم من

التدخين إذا ابتعد بضع ساعات عن الرصيف . كان معظم الرجال ضجرين إلى حدّ أنهم لم يعودوا يتحدثون ، وهم يجلسون فقط متزاحمين ، محدّقين في لاشيء ، ووجوههم المغضنة مفلوقة بتثاؤبات هائلة . الغرفة منتنة بالضجر .

بادي ، وقد أوجعه جنبه من المصطبة القاسية ، كان في نوبة دمدمةٍ ، فلجأتُ ، قتلاً للوقت ، إلى متشرد ممتاز أتحدثُ معه ، وهو نجّارٌ شابّ ، يرتدي ياقة وربطة عنق ، وقد لجأ إلى التشرد كما قال بسبب عدم امتلاكه عدّة شُغل . كان يحتفظ بمسافة ما ، بينه وبين المتشردين الآخرين ، ويعتبر نفسه رجلاً حراً ، لا عابر سبيل . كما أن له ذوقاً أدبياً ، ويحتفظ بنسخة من رواية « كُوَنتن دروارد » في جيبه . وقد أخبرني أنه لم يدخل ، البتة ، في سبايك ، إلا إذا دفعه الجوع ، وأنه يفضل أن ينام تحت الأسيجة وخلف أكوام التبن . وعلى امتداد الساحل الجنوبي تسوّلَ ، نهاراً ، ونام ليلاً في أكواخ السباحة ، أسابيع كل مرة .

تحدثنا عن الحياة على الطريق . وانتقدَ النظام الذي يجعل المتشرد يقضي أربع عشرة ساعة في اليوم داخل السبايك ، ويقضي الساعات العشر الأخرى في المشي وتجنُّب الشرطة . تحدث عن حالته ـ ستة أشهر بعهدة المجتمع ، لأنه لا يملك بضعة باونات يشتري بها عدّة نجارة . إنه نظامٌ أبله ، كما قال .

ثم أخبرتُه عن تبذير الطعام في مطبخ الورشة ، ورأيي في هذا . آنذاك غيّرَ نبرة حديثه فوراً . وجدتُ أنني أيقظت الجالس على مقعد الكنيسة ، هذا الذي ينام في كل عامل إنجليزي . لقد بيّنَ ، رأساً ، الأسباب الموجبة لرمي الطعام بدلاً من إعطائه للمتشردين ، ولامني لوماً شديداً .

قال : « يجب أن يفعلوا ذلك ، فلو جعلوا هذه الأماكن مريحة جداً ، لرأيت كل حثالة البلد مجتمعة فيها . الطعام الرديء فقط هو الذي يبعد تلك الحثالة عنها . هؤلاء المتشردون هم أكثر كسلاً من أن يعملوا . هذا هو عيبهم . ولا أظنك تريد تشجيعهم . إنهم حثالة » .

قدمتُ حججاً لأبرهن أنه مخطئ في رأيه ، لكنه لم يسمع لي ، وظل يردد :

«لا أظنك تريد أن ترأف بهؤلاء المتشردين هنا ـ إنهم حثالة . أنت لا تريد الحكم عليهم بالمقاييس ذاتها المطبّقة على أناسٍ مثلك ومثلي . إنهم حثالة . مجرد حثالة» .

من الممتع رؤية الطريقة الحاذقة التي يفصل بها نفسه عن «هؤلاء المتشردين هنا» . لقد كان على الطريق لمدة ستة أشهر ، لكنه يرى أنه ليس متشرداً عند الله . وأعتقدُ أن ثمت عدداً وفيراً من المتشردين الذين يشكرون الله لأنهم غير متشردين . إنهم مثل المترحلين الذين يقولون أشياء جارحة كهذه عن المترحلين .

مضت ، بطيئةً ، ثلاث ساعات . في الساعة السادسة وصل العشاء ، وتبيَّنَ أنه غير صالح للأكل ، فالخبز ، الصلبُ بما يكفي صباحاً (كان قُطِّعَ إلى شرائح ليل السبت) هو الآن قاسٍ مثل بسكويت السفن . ومن حسن الحظ أنه مغموس بمرقٍ ، لذلك اكتفينا بالمرق ، وهو على أي حال أفضل من لاشيء . في السادسة والربع أُرسلنا لننام . متشردون جدد كانوا يصلون ، وكي لا يختلط المتشردون من أيام مختلفة ، (خوف الأمراض المعدية) وُضع القادمون الجدد في الحُجيرات ، ونحن في المهاجع . مهجعنا كان مثل مخزن حبوب ، ويضم ثلاثين فراشاً متقارباً ، وحوضاً يستعمل مبولةً مشتركة . رائحة المهجع كريهة ، والشيوخ يسعلون وينهضون طوال الليل . لكن الازدحام جعل المهجع دافئاً ، فنمنا قليلاً . تفرَّقنا في العاشرة صباحاً ، بعد فحص طبيّ جديد ، مع قطعة خبز وجبن للغداء .

وليم وفريد ، المستقويان بملكية شلن ، رميا خبزهما على حاجز السبايك ، احتجاجاً كما قالا . كان هذا ثاني سبايك في كينت لم يطيقاه ، وقالا عنه إنه مزحةٌ كبرى . كانا مرحين ، مقارنةً بالمتشردين . المعتوه (ثمت معتوه في كل مجموعة متشردين) قال إنه منهكٌ لا يستطيع السير ،

وتشبث بحاجز السبايك ، حتى جاء رائد المتشردين فأبعده ، ودفعه بركلةٍ إلى السير . انعطفت أنا وبادي شمالاً ، نحو لندن . ومعظم الآخرين كانوا ماضين إلى آيد هيل ، الذي يقال إنه أسوأ سبايك في إنجلترا .

مرة أخرى ، كان الطقس خريفياً لطيفاً ، والطريق هادئاً ، مع القليل من السيارات المارّة . الهواء عذبٌ ، مثل راحة ورد الخلنج البري ، بعد عفونة السبايك التي هي مزيج من العرق والصابون والمجاري . وبدا أننا المتشردان الوحيدان على الطريق . وفجأة ، سمعنا خطىً مسرعة خلفنا ، وصوتاً ينادي . كان سكوتي الصغير ، متشرد غلاسكو ، الذي جرى يتبعنا لاهثاً . أخرج علبة صدئة من جيبه . كان يبتسم ابتسامة ودّية ، مثل من يردُّ دَيناً . قال بكل تهذيب : «هيا ، أيها الزميل ، أنا مدين لك ببعض الأعقاب . أنت قدَّمتَ لي سجارة أمس . رائد المتشردين أعاد لي علبة أعقابي عندما خرجنا صباحاً . هيا» .

ووضع أربعة أعقابٍ قذرة ، مدعوكة ، فارغة ، في راحتي .

36

أريد أن أبيّنَ بضع ملحوظات عـامـة عن المـتـشـردين . عندمـا يفكر المرء ، بالأمر ، يجد أن المتشردين نتيجُ غريب يستحق التأمل . غريبٌ أن قـبـيلة رجالٍ ، يُعـدّون بعـشـرات الآلاف ، يطوّفـون في أرجـاء إنجلتـرا ، من أقصاها إلى أقصاها ، مثل يهودٍ تائهين . لكن القضية ، وهي تستحق التفكير بشكل واضح ، لا يمكن البدء بتأملها إلا بعد التخلص من أهواء معينة . هذه الأهواء نابعة من فكرة أن كل متشرد ، هو وغدٌ ، كحقيقة واقعة . علّمونا في الطفـولة أن المـتـشـردين أوغـاد ، وهكذا وُجد في أذهاننا نمطٌ من الوغد المثـال ، الوغد الأنموذجي ــ مخلوقٌ كريهٌ ، بـل خطِرٌ ، يفضل المـوت على العمـل أو الاغتسـال ، ولا يريد سوى أن يتـسـول ، ويشـرب ، ويسطو على أقنان الدجاج . هذا المتشردُ ــ الوحشُ ، ليس أكثر حقيقية في الحياة من الصيني الشرير في قصص المجلات . لكن من الصعوبة البالغة التخلص من النمط هذا . إن كلمة «متشرد» ذاتها ، تثير تخيُّلَه (أي الفرد) . وما يعتقده يشوّش الأسئلة الحقيقية المتصلة بالتشرد .

لنتناولْ سؤالاً أساسياً حول التشـرد : لماذا يوجد المتشـردون ؟ شيءٌ غريبٌ أن يعرف قلّةٌ من الناس ما يجعل المـتـشـرد على الطريق . ونتـيـجـة الاعتقاد بالمتشرد ـ الوحش ، تُقتـرح أسبابٌ عجيبة للظاهرة . يقال إن المتشـردين يتشردون كي يتجنبوا العمل ، ويتـسـولوا بسـهـولة ، ويغتنمـوا

فرصاً للجريمة ، وأخيراً ـ كسبب أقل احتمالاً ـ لأنهم يحبون التشرد . بل لقد قرأت في كتاب عن علم الإجرام ، أن المتشرد رُجْعَى ، عودةٌ إلى مرحلة البدو الرحَّلِ في تاريخ البشرية . بينما السبب الواضح تماماً للتشرد ماثلٌ جداً أمام الوجه . بالطبع ، ليس المتشرد رُجعى بدويّة ـ بالإمكان القول أيضاً إن التاجر الجوّال رُجعى . المتشرد يتشرد ، لا بسبب أنه يحب التشرد ، وإنما للسبب نفسه الذي جعل السيارة تلتزم اليسار . لأن ثمت قانوناً يُلزمها بذلك . إن شخصاً بلا موارد ، إن لم تساعده الأبرشية ، فلن يجد العون إلا في بيوت أبناء السبيل ، ولأن هذه البيوت لا تؤويه إلا ليلة واحدة ، يظل أوتوماتيكياً يتحرك . هو متشرد لأن عليه ، حسب القانون السائد ، إمّا أن يتشرد أو يجوع . لكن الناس نشأوا على الاعتقاد بالمتشرد ـ الوحش ، ولهذا يفضلون التفكير بوجوب وجود دافعٍ شرير للتشرد .

والحقُّ أن جانباً جدَّ ضئيل من فكرة المتشرد ـ الوحش ، سيصمد للتدقيق . خذ الفكرة الشائعة حول أن المتشردين أشخاصٌ خطرون . بمعزلٍ عن التجربة ، يمكن القول بدءاً إن قليلاً جداً من المتشردين خطرون ، لأنهم لو كانوا خطرين لتمّ التعامل معهم بموجب ذلك . إن بيتاً لأبناء السبيل يؤوي غالباً ، مائة متشرد ، في الليلة الواحدة ، ويتولى أمر هؤلاء المائة ، جهازٌ من ثلاثة أشخاص ، بوّابين ، في الغالب . لا تمكن السيطرة بثلاثة رجال غير مسلحين على مائة شخصٍ وحشيّ . والواقع أن المرء حين يرى كم يتعرض المتشردون للمضايقة من جانب موظفي الورشات ، يجد أن هؤلاء المتشردين هم من أكثر الناس مسالمةً وخضوعاً ، إلى حدٍ لا يمكن تصوّره . أو خذ الفكرة أن كل المتشردين سكيرون ـ وهي فكرة مضحكة في ظاهرها . لا شك في أن متشردين كثاراً سوف يشربون لو أتيحت لهم الفرصة . في هذه الأيام ، يبلغ سعر الباينت مما يدعى بيرةً في إنجلترا سبعة بنسات . وكي تسكر على البيرة يجب أن تدفع نصف كراون ، والرجل الذي يستطيع التصرف بنصف كراون ، غالباً ، ليس متشرداً بأي حال . فكرة أن

المتشردين طفيليات اجتماعية وقحة ، ليست بلا أساس إطلاقاً ، لكنها تنطبق على نسبة مئوية قليلة من الحالات . إن التطفل الشرير ، المتعمَّد ، كالذي يُقرأ في كتب جاك لندن عن التشرد الأميركي ، ليس في طبيعة الشخصية الإنجليزية . فالإنجليز رسٌّ مثقل الضمير بإحساس قويّ بخطيئة البؤس . ولا يمكن تخيُلُ أن يختار الإنجليزي العادي ، عامداً ، التحولَ إلى طفيليّ ، وهذه الشخصية الوطنية لا تتغير بالضرورة لأن رجلاً صار عاطلاً عن العمل . والحقُّ أننا لو تذكرنا أن المتشرد هو مجرد إنجليزي عاطل عن العمل ، أُرغم قانونياً على العيش متصعلكاً ، لاختفى المتشرد ـ الوحش . أنا لا أقول إن معظم المتشردين هم شخصياتٌ مثالية ، بل أقول فقط إنهم بشرٌ عاديّون . وإن كانوا أسوأ من الآخرين فإن هذا نتيجةٌ لا سببٌ لطريقتهم في الحياة .

يتبع ذلك أن الموقف المتشدد المتخذ عادةً إزاء المتشردين ليس أعدلَ مما لو اتُّخِذ إزاء المقعَدين والمعطوبين . عندما يدرك المرء ذلك ، يبدأ فيضع نفسه موضع المتشرد ، ويفهم أي حياة هي حياته . إنها حياةٌ غير مجدية تماماً ، وغير مُسرِّة إطلاقاً . لقد وصفتُ بيت أبناء السبيل ـ رتابة يوم المتشرد ـ لكن ثمت شروراً ثلاثة ينبغي التأكيد عليها هنا . الشرّ الأول هو الجوع ، الذي يشكل القدَر العام للمتشردين . بيت أبناء السبيل يعطيهم طعاماً محدَّداً قد لا يُقصد به أن يكون كافياً ، وأي شيء سواه ينبغي الحصول عليه بالتسوّل ـ أي بمخالفة القانون . والنتيجة أن كل متشرد يعاني من سوء التغذية ، ولبرهنة ذلك تكفي ملاحظة الرجال المصطفّين خارج أي بيت لأبناء السبيل .

الشرّ الثاني في حياة المتشرد ـ وقد يبدو أهون من الشر الأول ، لكنه يستحق أن يُدرج ثانياً ـ هو أن المتشرد مقطوعٌ تماماً عن العلاقة بالنساء . هذه النقطة بحاجة إلى إيضاح .

المتشردون مقطوعون عن النساء ، في المقام الأول لأنَ قلّة قليلة جداً من النساء هنّ في هذا المستوى الاجتماعي . قد يُظَن أن الجنسين بين

المحرومين متوازنان كما في أي موضع آخر . لكن الحقيقة غير هذا ، ويمكن القول إن المجتمع تحت مستوى معيّن ، هو مجتمع ذكوريّ . والأرقام الآتية المأخوذة من مجلس لندن للأعمال الخيرية ، عن إحصاء ليلة في ١٣ شباط ١٩٣١ ، تُرينا الأعداد المقارنة للرجال المحرومين والنساء المحرومات :

قضاء الليل في الشوارع ـ ٦٠ رجلاً ، ١٨ امرأة .

في ملاجئ ومنازل غير مجازة كبيوت سكنى عامّة ـ ١٠٥٧ رجلاً ، ١٣٧ امرأة .

في حمى كنيسة سانت مارتن ـ ٨٨ رجلاً ، ١٢ امرأة .

في بيوت أبناء السبيل والمضافات العائدة لمجلس لندن ـ ٦٧٤ رجلاً ، ١٥ امرأة .

يمكن أن نرى من هذه الأرقام ، على مستوى العمل الخيريّ ، أن الرجال يفوقون النساء ، بنسبة عشرة إلى واحد . والسبب المفترض هو أن البطالة تصيب النساء أقل من الرجال ، كما أن أي امرأة مقبولة بمقدورها الارتباط برجل ، كملجأ أخير . والنتيجة هي أن المتشرد محكومٌ عليه بالعزوبية الدائمة . المتشرد ، إذ لا يجد امرأة من مستواه ، فإن أي امرأة ، من مستوى أعلى ، ولو أعلى قليلاً ، هي أبعد عن متناوله ، بُعدَ القمر . الأسباب لا تستحق النقاش ، لكن لا ريب في أن النساء لا يستجبن لمن هو أفقر منهنّ . المتشرد ، إذاً ، هو أعزب ، منذ اللحظة الأولى التي يكون فيها على الطريق . لا أمل له ، إطلاقاً ، في الحصول على زوجة ، أو عشيقة ، أو أي امرأةٍ ، باستثناء العاهرات ، إذا استطاع في النادر أن يجمع بضعة شلنات .

واضحٌ أن نتائج هذا يجب أن تكون : اللواط ، مثلاً ، وحالات الاغتصاب أحياناً . لكنْ أعمق من هذين ، هناك الانحطاط الناشئ في الرجل الذي يعرف أنه غير صالح للزواج . فالدافع الجنسي ، إن لم نُغْلِ من شأنه ، هو دافعٌ أساسيّ ، والجوع الجنسي يوهنُ المعنويات ، كالجوع الجسدي . إن شر البؤس ليس في أنه يجعل الرجل يتعذب ، وإنما في أنه يجعله يتدهور جسدياً وروحياً . ولا شك في أن الجوع الجنسي يساهم في عملية التدهور هذه . المتشرد بانقطاعه عن جنس المرأة كله ، يشعر بأن مرتبته قد هبطت

إلى مستوى المُقعد أو المجنون . ولا إذلال يمكن له أن يدمِّر أكثر ، احترامَ الذات لدى الإنسان .

الشر الثالث في حياة المتشرد هو البطالة الإجبارية . إن قوانيننا حول التشرد مرتَّبة بحيث أن المتشرد إن لم يكن سائراً على الطريق ، فسوف يكون جالساً في زنزانة ، أو ، في الفترات ، متمدداً على الأرض بانتظار أن يُفتح مأوى أبناء السبيل . جليٌّ أن هذه طريقة في الحياة كريهة وتحطُّ من الشأن ، وبخاصة للرجال المتعلمين .

وإلى هذا ، يمكن تعداد الكثير من الشرور الأقلّ ـ ولأُسَمِّ واحداً فقط هو المشقّة ، التي لا يمكن فصلها عن الحياة على الطريق ، ولنتذكّرْ أن المتشرد العادي ليس له من الثياب إلا ما يرتدي ، ومن الأحذية إلا الجزمة غير الملائمة ، وأنه لا يجلس على كرسيّ شهوراً متصلة . لكن النقطة الهامّة هي أن معاناة المتشرد ، بلا جدوى . فهو في حياة غير مقبولة إطلاقاً ، يعيشها دونما أي غاية . ولا يمكن ، حقاً ، ابتداعُ رتابةٍ أكثر عبثيةً من السير من سجن إلى سجن ، وتمضية حوالي ثماني عشرة ساعة في اليوم بين الزنزانة والطريق . إن في إنجلترا عدة آلاف من المتشردين في الأقل . وهم في كل يومٍ يصرفون عدداً لا يُحصى من وحدات طاقة العمل ـ قادرة على حرث آلاف الأكرات* ، ورصف أميالٍ من الطرق ، وتشييد العشرات من المنازل ـ يصرفونها في مجرد سَيرٍ لا نفع فيه . وكل يوم ، يُمضون فيما بينهم حوالي عشر سنين من الزمن ، في النظر إلى جدران الزنزانة . وهم يكلفون البلاد ، باوناً واحداً في الأقل ، أسبوعياً ، لكل رجل ، ولا يقدِّمون شيئاً مقابل هذا . ولا يُقصد بها أن تنفع أحداً . القانون يجعل هذه العملية تستمر ، وقد اعتدنا عليها حتى لم تعد مدعاةً للإستغراب . لكنها عملية غبية جداً .

---

* الأكر = ٤ آلاف متر مربع .

بعد أن تبيَّنتْ لنا عبثية حياة المتشرد ، يأتي السؤال عن إمكان فعل أي شيء لتحسينها . واضح ، أنه يمكن ، مثلاً ، جعل بيوت أبناء السبيل أفضل قليلاً للإقامة ، وهذا ما تمَّ فعله في بعض الحالات . في السنة الماضية ، تحسّنَ الوضع في بعض بيوت أبناء السبيل إلى حدٍ كبير ، لو كانت المعلومات صحيحة ، ويدور الحديث عن تعميم هذا التحسُّن . لكن هذا لا يصل إلى لُبّ المشكلة . المشكلة هي : كيف نحوِّل المتشرد من صعلوكٍ ضجِرٍ ، نصفِ حيٍّ ، إلى كائن بشريٍ يتمتع باحترام الذات . إن مجرد زيادة الراحة لن يؤدي إلى المطلوب . حتى لو صارت بيوت أبناء السبيل فاخرة ، فإن حياة المتشرد تظل مبدَّدة . إذ سيظل يعيش على نفقة الآخرين ، محروماً من الزواج والحياة المنزلية ، وخسارةً للمجتمع . المطلوب هو إخراجه من العيش على نفقة الآخرين ، بإيجاد عمل له . عملٍ ليس لغرض العمل ، بل عملٍ يستمتع به ، وينتفع منه . في معظم بيوت أبناء السبيل ، الآن ، لا يقوم المتشردون بأي عمل كان . مرةً ، استُخدموا لتكسير الأحجار مقابل طعامهم ، لكنَّ هذا توقّفَ لأنهم كسّروا من الأحجار ما يكفي لسنين قبل الوقت المحدد ، وجعلوا عمّال تكسير الحجر عاطلين عن العمل . أما الآن فقد أُبقيَ على بطالتهم ، إذ لا شيء لهم ليفعلوه ، كما يبدو . ثمت وسيلة بيّنةٌ تماماً لجعل المتشردين نافعين وهي هكذا بالتحديد : كل بيتٍ من بيوت أبناء السبيل باستطاعته إدارة مزرعة صغيرة ، أو بستان مطبخ في الأقل ، ويتعيَّن على كل متشرد قادرٍ على العمل ، يقدِّم نفسه ، أن يعمل عمل يوم كامل . يستخدم منتوج المزرعة أو البستان لإطعام المتشردين ، وفي أسوأ الأحوال سيكون هذا أفضل من إطعامهم الخبز والمرغرين والشاي . طبيعيٌّ أن بيوت أبناء السبيل لن تكون معتمدةً اعتماداً ذاتياً بالكامل ، لكن بمقدورها المُضيّ إلى هذا الهدف ، بل ربما حققت ربحاً في المدى البعيد . ينبغي أن نتذكر أن المتشردين ، تحت النظام الحاليّ ، هم خسارةٌ حقيقية للبلاد ، فعلاوةً على كونهم لا يؤدون أي عمل ، فإن الطعام المقدَّم إليهم

يحطم صحتهم ، هكذا يخسر النظام الحاليَ الصحةَ إضافةً إلى المال . ومن الخير أن نجرب نظاماً يقدم لهم طعاماً لائقاً ، ويجعلهم ينتجون ولو بعضاً من طعامهم .

قد يعترض معترضٌ قائلاً إن مزرعة أو حتى بستاناً لا تمكن إدارتهما بالعمل العابر . لكن ليس ثمت من سبب حقيقي يوجب على المتشردين أن يظلوا يوماً واحداً فقط في أي بيت من بيوت أبناء السبيل . فليقيموا شهراً ، أو حتى سنة ، إن كان لديهم عملٌ يؤدونه . إن الارتحال الدائم للمتشردين هو عملية مصطنعة . المتشرد في هذا الوقت هو إنفاقٌ ، وهدفُ كل بيتٍ ، إذاً ، هو دفعه إلى البيت الثاني ، ومن هنا جاءت قاعدة البقاء ليلةً واحدة . لو عاد خلال شهر ، فإنه يعاقب بالحبس أسبوعاً داخل البيت ، وهي عقوبة كالسجن ، ومن هنا يظل المتشرد يذرع الآفاق . أما إذا مَثَّلَ المتشردُ العملَ ، ومثَّلَ البيتُ الطعام الجيد له ، فإن الأمر سيتغيّر . وستتحول البيوت إلى مؤسسات تنهض بأمرها ذاتياً ، وسيكون المتشردون المقيمون هنا أو هناك حسب الحاجة إليهم ، غير متشردين .

إنهم سوف يؤدون عملاً مفيداً ، بالمقارنة ، ويحظون بطعامٍ لائق ، ويعيشون حياة مستقرة . وتدريجاً ، مع نجاح النظام ، قد يتوقف اعتبارهم عالةً ، وسيكونون قادرين على الزواج ، واحتلال مكانة محترمة في المجتمع .

إنها فكرة أوّلية فقط ، وهناك بعض الاعتراضات عليها . ومع هذا ، فإنها تقترح طريقة لتحسين حال المتشردين بدون وضع أعباء جديدة على كاهل الدولة . وينبغي ، في كل الأحوال ، أن يكون الحل من هذا النوع . فالسؤال هو ماذا نفعل بأناسٍ سيئي التغذية ، عاطلين ؟ والجواب : أن نجعلهم يزرعون ما يأكلون ـ يفرض نفسه تلقائياً .

37

أود أن أورد كلمة عن تسهيلات المنام المتاحة لشخص مشرَّد في لندن . من المستحيل في الوقت الحاضر الحصول على أي فراش في أي مؤسسة غير خيرية في لندن ، بأقلّ من سبعة بنسات للّيلة الواحدة . فإن لم يكن عندك سبعة بنسات ، فعليك اختيار أحد هذه البدائل :

١ـ سدّ الشاطئ . هنا ، حصيلة ما حدّثني به بادي عن النوم على السدّ :

«المسألة كلها مع السدّ ، أنّ عليك أن تنام مبكراً . يجب أن تكون على مصطبتك في الساعة الثامنة ، إذ لا توجد مصاطب كثيرة ، وفي بعض الأحيان تكون كلها مشغولة . ثم أن عليك أن تحاول النوم فوراً . الجو بعد الثانية عشرة أبردُ من أن تستطيع النوم فيه ، والشرطة تطردك في الساعة الرابعة . ليس من السهل أن تنام ، مع حافلات الترام المارّة عبر رأسك طوال الوقت ، والإشارات الضوئية تتخافق عبر النهر ، في عينيك . البرد قاسٍ . والذين ينامون هناك ، يلفّون أنفسهم عادةً بالصحف ، لكن هذا لا ينفع كثيراً . ستكون جدّ محظوظٍ لو استطعت أن تنام ثلاث ساعات» .

لقد نمت على السدّ ، ووجدت الأمر مطابقاً ما قاله بادي . لكن النوم على السدّ أفضل كثيراً من عدم النوم إطلاقاً ، وهو البديل إن قضيت الليل في الشوارع ، في مكانٍ غير السدّ . حسب قانون لندن ، بإمكانك الجلوس

ليلاً ، لكن الشرطة يجب أن تطردك إذا رأتك نائماً . الاستثناءات الخاصة هي السدّ ، وركنٌ أو ركنان (هنالك واحدٌ خلف مسرح الليسيوم) . واضحٌ أن القانون قطعةٌ من الهجومية الإرادية . هدف القانون ، كما يقال ، هو حماية الناس من الموت مكشوفين في العراء ، لكن الواضح أنّ رجلاً بلا مأوى ، رجلاً سوف يموت لأنه مكشوفٌ في العراء ، هذا الرجل سوف يموت ، سواء كان نائماً أم مستيقظاً . في باريس ليس من قانون كهذا ، والناس هناك ينامون بالعشرات تحت جسور نهر السين ، وفي مداخل الأبواب ، وعلى المصاطب في الساحات ، وحول فتحات تهوية المترو ، بل داخل محطات المترو . ليس من ضرر واضحٍ في الأمر . لا أحد سينام الليل في الشارع إن لم يكن مضطراً . ومادام مضطراً فالواجب أن يُسمح له بالنوم ، إن استطاع .

٢ـ **معلّقة البنسَين** ـ هذا المكان ذو منزلة أعلى قليلاً من السدّ . في معلّقة البنسَين يجلس النزلاء في صفٍ على مصطبة ، وأمامهم يمتد حبلٌ ، وهم يستطيعون الاستناد إلى الحبل مثل ما يستند المرء إلى سياج . وهناك رجل ، يدعى الحاجب تفكُّهاً ، يقطع الحبل في الخامسة صباحاً . لم أكن هناك ، قَطُّ . لكن بوزو كان هناك مراتٍ عدة . سألته إن كان بمقدور أحدٍ أن ينام في مثل ذلك الوضع ، فقال إن النوم هناك أكثر إراحة مما يظهر ـ وعلى أي حال أفضل من النوم على الأرض العارية . توجد في باريس أماكن مماثلة ، لكن الأجرة هناك خمسة وعشرون سنتيماً (نصف بنس) بدلاً من بنسَين هنا .

٣ـ **التابوت** ، بأربعة بنسات للّيلة الواحدة . في التابوت ، أنت تنام في صندوق خشبيّ ، يغطيك قماشٌ مشمَّع . التابوت بارد ، وأسوأ ما فيه البقّ ، إذ لا منجاة لك منه مادمتَ مغلقاً عليك في صندوق .

أعلى من هذه ، تأتي بيوت الإقامة العامّة ، التي تتراوح أسعارها بين سبعة بنسات ، وشلن وبنس . أفضلها منازل روتون ، حيث السعر شلن واحد ، وحيث تخصص لك مقصورة ، وتنتفع بحمّامات ممتازة . وتستطيع أن

تدفع نصف كراون لحجرة «خاصة» مجهزة ، بالفعل ، تجهيز حجرة فندق . منازل روتون مبانٍ ممتازة ، والاعتراض الوحيد عليها هو نظامها الصارم ، إذ لا يسمح بالطبخ ، ولعب الورق ، الخ .

ربما كان أفضل إعلان لمنازل روتون أنها مشغولة دائماً حدَّ الامتلاء . منازل بروس أيضاً ، وأجرتها شلن وبنس ، ممتازة .

تليها ، في النظافة ، مضافات جيش الخلاص ، وأجرتها سبعة بنسات أو ثمانية . وهي تختلف (كنت في واحدة أو اثنتين لا تختلفان كثيراً عن بيوت الإقامة العادية) ، لكن معظمها نظيفة ، جيدة الحمامات ، لكنّ عليك أن تدفع مبلغاً إضافياً للحمّام . وبإمكانك الحصول على مقصورة بشلن . في مَبيتات الثمانية بنسات ، الأفرشة مريحة ، لكنّ منها الكثير (أربعين فراشاً في الغرفة الواحدة عادةً) ، وهي متقاربة مع بعضها ، بحيث أن ليلتك لن تكون هادئة . التقييدات الكثيرة تفوح منها رائحة السجن أو المؤسسة الخيرية . ومضافات جيش الخلاص يرغب فيها أولئك الذين يضعون النظافة قبل أي شيء آخر .

وهناك بيوت الإقامة العامة ، وهي ـ سواء دفعتَ سبعة بنسات أو شلناً ـ مزدحمة صاخبة كلها ، وأفرشتُها قذرة وغير مريحة . ومما يعوِّض عن هذا جوُّها المتساهل ، والمطابخ الشبيهة بمطابخ المنزل ، حيث بإمكان المرء التمدد مسترخياً طوال ساعات النهار أو الليل . إنها حجراتٌ صغيرة قذرة ، لكنّ فيها نوعاً من الحياة الاجتماعية الممكنة . ويقال إن بيوت إقامة النساء أسوأ بكثير من تلك التي للرجال ، وثمت بيوت جدّ قليلة لإيواء المتزوجين . والواقع أن إقامة الزوج في مكان ، والزوجة في مكان آخر ، أمرٌ شائع .

في اللحظة هذه ، يقيم خمسة عشر ألف شخص على الأقل ، بلندن ، في بيوت الإقامة العامة . فبالنسبة لشخص غير مرتبط ، يكسب باونين في الأسبوع ، أو أقل ، يمثل بيت الإقامة ، موئلاً مناسباً جداً . من الصعب أن يحصل على غرفة مؤثثة بمثل هذا الرخص ، كما أن بيوت الإقامة تقدم له تدفئة مجانية ، وحمّاماً ، ومجتمعاً . أما القذارة فهي أهون الشرور . والسوء

الحقيقي في بيوت الإقامة ، أنها أماكن يدفع فيها المرء المال كي ينام ، بينما النوم العميق مستحيل . وكل ما يتلقّاه الشخص مقابل نقوده سريرٌ طوله خمسة أقدام وست بوصات ، وعرضه قدمان وست بوصات ، مع حشيّةٍ حدباء قاسية ، ووسادة كقطعة من اللوح مغطّاة بوجهٍ قطني ، وملاءتان رماديتان منتنتان . وفي الشتاء تعطى بطانيات ، لكنها غير كافية إطلاقاً . والفراش في غرفة حيث لا يكون عدد الأسرّة أقل من خمسة ، وفي بعض الأحيان يكون العدد خمسين أو ستين ، يبعد الواحد عن الآخر ياردةً أو اثنتين . ومن الطبيعي ألاّ يستطيع أحدٌ النوم عميقاً في مثل هذه الظروف . والأماكن الوحيدة الأخرى التي يُحشر فيها الناس هكذا هي الثكنات والمستشفيات . في الردهات العامة بالمستشفيات لا يأمل أحدٌ حتى بالنوم جيداً . في الثكنات يزدحم الجنود ، لكنّ أفرشتهم جيدة ، وهم أصحّاء ؛ أما في بيوت الإقامة العامة فيكاد النزلاء جميعاً يعانون من السعال المزمن ، ويشكون من أمراض في المثانة تجعلهم يستيقظون طوال ساعات الليل . والنتيجة رائحة كريهة تجعل النوم مستحيلاً . وحسب ملاحظتي ، لا يستطيع أي نزيلٍ هنا أن ينام أكثر من خمس ساعات ، في الليل ـ وهذا غشٌ فاضحٌ عندما يدفع المرء سبعة بنسات أو أكثر .

هنا ، بإمكان التشريع أن يفعل شيئاً . في الوقت الحاضر يصدر مجلس لندن كل أنواع التشريع بصدد بيوت الإقامة ، لكن أياً من هذه التشريعات ليس لصالح النزلاء . إن المجلس لا يكلف نفسه إلا الأمر بمنع القمار والعراك ، الخ . الخ . وليس هناك قانون يقضي بأن تكون الأفرشة في بيوت الإقامة مريحة . إن قانوناً كهذا يمكن تطبيقه ، أسهل من منع القمار مثلاً . يجب أن يُلزَم أصحاب بيوت الإقامة بتوفير ملاءات كافية وحشيّات أفضل ، وفوق هذا كله ، بتقسيم مهاجعهم إلى مقاصير . لا يهم إن كانت المقصورة صغيرة ، الشيء الهام هو أن الشخص يجب أن ينام وحده . هذه التغييرات القليلة ، حين يُلتزَم بتطبيقها ، ستؤدي إلى وضع مختلف جداً . ليس

مستحيلاً جعلُ بيت الإقامة مريحاً بصورة معقولة ، مع الأسعار السائدة . في بيت الإقامة البلدي بكرويدن ، مقاصير ، وأفرشة جيدة ، وكراسيَ (ترفٌ نادرٌ في بيوت الإقامة) ، ومطابخ فوق الأرض ، بدلاً من أن تكون في القبو تحت الأرض . وليس من سبب في ألاّ يكون بهذا المستوى كلُّ بيتِ إقامةٍ ذي تسعة بنسات .

سوف يعارض أصحاب بيوت الإقامة ، طبعاً ، أي تحسينٍ ، لأن تجارتهم الآن رابحة ربحاً فاحشاً . البيت الواحد يربح بين خمسة باونات إلى عشرة في الليلة الواحدة ، وليس ثمت أفرشةٌ بالدَّين (الدَّين ممنوع بتاتاً) ، والنفقات قليلة باستثناء إيجار المبنى . أي تحسينٍ يعني ازدحاماً أقل ، ويعني بالتالي أرباحاً أقل . لكن بيت إقامة كرويدن الممتاز يبيّن إلى أي حدٍّ يمكن أن تقدَّمَ خدمات جيدة مقابل تسعة بنسات . قوانين قليلة جيدة التوجه يمكنها أن تجعل هذه الشروط عامّةً . وإن أرادت السلطات أن تهتمَّ فعلاً ببيوت الإقامة ، فعليها أن تجعلها أكثر راحةً ، لا أن تُوالي تقييداتها الغبية التي لا يمكن احتمالها في فندق .

38

بعد أن تركنا السبايك في بينفيلد السفلى ، أنا وبادي ، وكسبنا نصف كراون من التعشيب والتنظيف في حديقة أحدهم ، بتنا ليلة في كروملي ، وسرنا عائدين إلى لندن . افترقتُ عن بادي بعد يوم أو يومين . أقرضني «ب» آخر باونين ، وبما أن أمامي تسعة أيام فقط من الصبر ، كان ذلك نهاية متاعبي . لقد ظهر أن معتوهي المروَّض أسوأ مما توقعتُ ، لكنه ليس أسوأ من أن يجعلني أرغب في العودة إلى السبايك ، أو إلى أوبرج جيان كوتار .

بادي توجّه إلى بورتسموث حيث قد يجد صديقٌ هناك عملاً له ، فلم أره مُذَاك . قبل وقتٍ قصير ، أُخبرتُ بأنه قُتل في حادث سير ، لكنَ الخبر قد يخصُ شخصاً آخر . لم أسمع عن بوزو إلا قبل ثلاثة أيام . إنه في واندز ورث ـ سجينٌ لمدة أربعة عشر يوماً بتهمة التسوّل . لا أعتقد أن السجن يقلقه كثيراً .

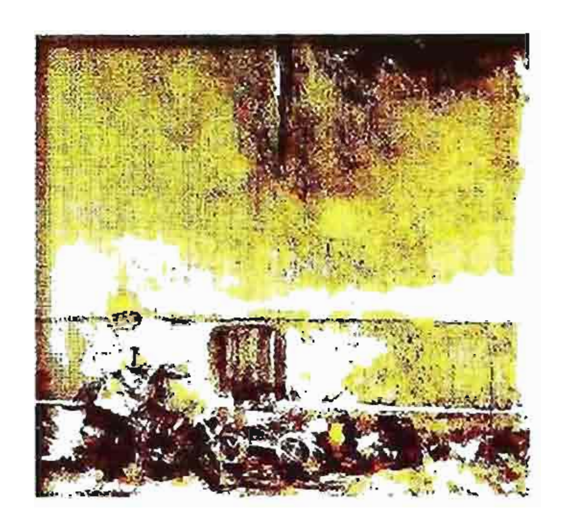
قصتي تنتهي هنا . إنها قصة تافهة تماماً ، ولا آملُ إلا في أنها كانت ممتعة ، شأن يوميات السفر . أستطيع القول ، في الأقل ، هنا العالم الذي ينتظرك إن كنتَ مفلساً . في أحد الأيام أريد أن أستكشف العالم بصورة أكثر تدقيقاً . عليَّ أن أعرف أُناساً مثل ماريو وبادي وبيل الخطّاف ، لا في لقاءات عابرة ، وإنما في لقاءات حميمة ، أريد أن أعرف ما يدور ، حقاً ،

في نفوس غاسلي الصحون والمتشردين والنائمين على السدّ . في الوقت الحاضر أشعر أنني لم أعرف من البؤس إلاّ حافته .

لكني قادرٌ على الإشارة إلى أمرٍ أو أمرين تعلمتُها جيداً في محنتي . لن أفكر ثانيةً بأن كل المتشردين هم أوغادٌ سكيرون ، ولن أتوقع أن يكون متسوِّلٌ ممتناً حين أعطيه بنساً ، ولن يدهشني أن يكون العاطلون يفتقدون الطاقة على العمل ، وأن يشتركوا في جيش الخلاص ، وأن أرهن ملابسي ، وأنني لن أرفض إعلاناً يدويّاً ، ولن ألتذَّ بوجبةٍ في مطعمٍ فاخر .

إنها لَبدايةٌ .

ـ انتهت الرواية ـ



جورج أورويل (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) يقال عنه إنه الكاتب العبقري الوحيد في فترة ما بين الحربين .

قُدِّم أورويل إلى اللغة العربية على مقاس الحرب الباردة ، في روايتيه « مزرعة الحيوان » و« ١٩٨٤ » ، بينما أُهملت أعمالٌ عظيمةٌ له ، مثل « أيامُ بورميةٌ » و« ذكرى كاتالونيا » ، لأن هذه الأعمال مرتبطة بفترته اليسارية ، المديدة ، الجميلة .

« متشرداً في باريس ولندن » هي من تلك الفترة ، وإذ نقلتُها إلى اللغة العربية حاولتُ أن أكمل صورة أورويل ، بدلاً من اجتزائها . هذه الرواية ، إلى جانب ما تقدمه من فنٍ ، تقدم لوحةً عجيبة لما لحق بالإنسان البسيط من ظلمٍ فادحٍ ، تحت وطأةِ رأسماليةٍ شرسة ، رأسمالية العقد الثالث من قرننا المرتحل .

س . ي